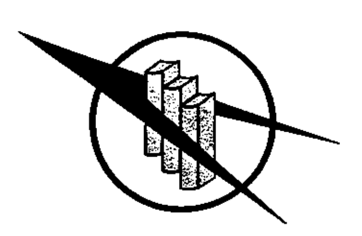


الدروز في التاريخ

تأليف
الدكتورة نجلا أبو عز الدين

دار العلم للملايين
ص.ب: ١٠٨٥ - بيروت
تلكس: ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
نيسان (ابريل) ١٩٨٥

الإهداء

إلى ذكرى
والدي مصطفى أبو عز الدين
وعمي سليمان أبو عز الدين
وعمي محمد أبو عز الدين

توطئة

لقد توخيت من تأليف هذا الكتاب هدفين: أولها إدراج المعتقدات الدرزية في سياق تطور المذهب الشيعي في مصطلحه الاسماعيلي - الفاطمي. وثانيها وصف الدور الذي قام به الدروز في تاريخ لبنان وسورية. فبالرغم من قلة عددهم قام الدروز، بقيادة عائلاتهم البارزة، بدور مهيمن في الشؤون اللبنانية على مدى قرون وتجاوز نفوذهم لبنان إلى داخلية سورية. غير أن وضعهم أخذ يتغير منذ سنة ١٨٤٠ ولذا توقف هذا السرد التاريخي عند تلك السنة. وفضلاً عن الكتب المذكورة في ثبت المراجع فقد استعنت بمجموعة الوثائق التي جمعها المرحوم عمي سليمان أبو عز الدين والتي هي الآن في حوزتي. فقد كان يأمل أن يضع كتاباً عن الدروز ولكن الأجل لم يمهله للأسف.

وينبغي بهذه المناسبة التنويه بالجهد الذي بذله الزعيم الراحل كمال جنبلاط في العثور على مخطوطات هامة تتعلق بالعقيدة الدرزية كانت تعتبر مفقودة.

إني أوجه الشكر إلى الأستاذ وِلْفَرِد مادلونغ في جامعة اكسفورد لما أبداه من اهتمام بنشر هذا الكتاب. كما أعبّر عن امتناني للمساعدة القيمة التي قدمها الأستاذ ألبرت حوراني بجامعة أكسفورد. فقد بحث مخطوطة الكتاب معي مطولاً وعرض ملاحظات قيمة، كما أنه قدّم الكتاب إلى دار النشر الشهير بريل في ليدن. لكل ذلك أود أن أعبّر عن شكري العميق.

لقد وضعت هذا الكتاب باللغة الانكليزية ونشر في ليدن، هولاندا في تموز (يوليو) سنة ١٩٨٤ وقد اشترك معي شقيقي فريد أبو عز الدين في ترجمته إلى اللغة العربية.

الفصل الأول

الأصول العرقية

تكونت جماعة الدروز في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي. وقد برزت إلى الوجود استجابة لدعوة انتشرت من القاهرة في عهد الخليفة الفاطمي السادس الحاكم بأمر الله. صدرت الدعوة في سنة ٤٠٨ / ١٠١٧، وكانت تسعى إلى إبلاغ جميع الناس. وانتشر الدعاة في أنحاء الأرض وأقبل الناس يعتنقون الدعوة. غير أنه بعد الانقلاب على الدعوة الذي أعقب غيبة الحاكم في سنة ٤١١ / ١٠٢١، عاد كثيرون ممن كانوا اعتنقوها إلى مذاهبهم السابقة. واستمرت الدعوة زهاء ربع قرن بعد هذا التاريخ وأقفلت في سنة ٤٣٦ / ١٠٤٤.

إن الذين بقوا متمسكين بالمذهب الجديد كانوا يسكنون في أكثريتهم مناطق جبلية لا يسهل وصول الغرباء إليها. وأهم مناطق تواجدهم وأقدمها جنوبي جبل لبنان ووادي التيم عند جبل الشيخ. ويقيم الآن أكبر عدد من الدروز في جبل الدروز في حوران، لكن استيطانهم هناك قريب العهد نسبياً، إذ يعود إلى العقد الثاني من القرن السابع عشر. وبقيت جماعات صغيرة من الدروز في قرى الجبل الأعلى (جبل السماق) وفي جوار حلب وغوطة دمشق. والدروز في فلسطين يسكنون قرى في صفد وعلى سفح جبل الكرمل.

لقد أثار الدروز اهتمام الرحالة والمستكشفين الأجانب الذين أعجبوا بصفاتهم وتحيروا في السرية التي يقترن بها مذهبهم، فحاولوا أن يفسروا ما سموه «اللغز»، وفي محاولاتهم أيدوا نظريات بعضها أبعد ما يكون عن الحقائق التاريخية.

لكي نرجع إلى أصول الدروز العرقية لا بد من النظر إلى العناصر التي تكونت منها الشعوب في المنطقة التي نشأت فيها جماعة الدروز، أي في سورية بمعناها الجغرافي الذي يشمل فلسطين ولبنان.

كانت سورية منذ القدم موضع تلاقي وتمازج الشعوب والحضارات. وكانت الجزيرة العربية المعين البشري الذي أمدّ هذه البقعة بالجزء الأكبر من سكانها. ولم تكن الجزيرة في الزمن الغارق في القدم إقليماً جافاً كما عرفت في عصور التاريخ بل إن الربع الخالي، وهو الآن من أشد بقاع الأرض قفراً، كان في الأزمان الغابرة هضبة خصبة تتخللها أنهار واسعة حفرت أودية عميقة، ومع مجيء عصور الجفاف لم تعد الجزيرة قادرة على توفير العيش لسكانها، فانتقلت أعداد كبيرة منهم إلى البلاد الواقعة في منطقة الأمطار في الشمال. واستمر تدفق السكان في فترات عبر التاريخ من الصحراء إلى الهلال الخصيب.

واستقر أقدم الوافدين في السهول المحاذية للبحر الأبيض المتوسط، فسكن الكنعانيون الجنوب والفينيقيون الجزء الشمالي من الساحل. وقدم فيما بعد العموريون والآراميون الذين سكنوا سورية الداخلية. وجاءت أعظم الموجات من الصحراء أيام الفتح العربي في القرن السابع الميلادي.

وقدمت شعوب أخرى من الشمال، فأقام الحثيون إمارات في شمال ووسط سورية. وفي بداية الألف الثاني قبل الميلاد قامت دولة الميتانيين Mitanni عند المنعطف الكبير لنهر الفرات. وفي أوائل القرن الثاني عشر

قبل الميلاد جرت هجرة واسعة النطاق من الشعوب الشمالية إلى آسيا الصغرى وسورية وفلسطين. كان بينهم الشعب الفلسطي Palest والذي أعطى اسمه لفلسطين.

كان من الطبيعي أن تستوطن هذه الشعوب في البقاع المنبسطة، في السهول الداخلية والسواحل البحرية. أما بالنسبة إلى سكان الجبال في هذا الزمن البعيد فالمعلومات قليلة ولا يعرف إلى أي مدى كانت المرتفعات مأهولة وأي نوع من الشعوب يسكنها. ولكننا نعرف أن الجبال كانت تكسوها الغابات إلى حافة البحر. وقد بدأ استغلال هذه الغابات منذ القدم. فالمدن الفينيقية المزدهرة أكثرت من استعمال الأخشاب في البناء وفي صناعة السفن وفي التجارة مع غيرها من البلدان وقد ورد كثيراً ذكر الجبال الواقعة خلف الشواطىء في نقوش الملوك الاشوريين والمصريين. ويستدل من الضرائب والرسوم التي فرضها الفراعنة على حكام البلاد الجبلية أنه كانت هناك أماكن فيها زراعة مزدهرة ومن المرجح أن مناطق زراعية نشأت على المنحدرات القريبة من الشاطىء. فإن استغلال الغابات تطلّب الكثير من العمال، فأنشئت الطرق وأقيمت أماكن لإيواء العاملين وتخزين مؤنهم. ومع الزمن ظهرت قرى صغيرة بعد أن تحولت المنحدرات التي قطعت منها أشجار الغابات إلى أرض زراعية(١).

ينتمي الدروز إلى أصول عربية، وقد استوطن العرب البلاد السورية في عصور سابقة على الفتح العربي. جاءوا في بعض الأحيان في هجرات قبلية، هذا إلى جانب التسرب الدائم من الصحراء إلى الحضر وقد أنشأوا إمارات بلغت درجة عالية من الحضارة، أهمها مملكة تدمر في بادية الشام

(١) J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, 5 volumes; D. D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, 2 volumes;
Strabo, Geography; R. Dussaud, Topographie Historique de la syrie Antique et Médiévale, pp 39-45, 396.

التي ازدهرت في القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد. وارتكز ازدهار تدمر على التجارة، إذ تحكمت في الطريق التجاري عبر نهر الفرات، وحافظت على الحياد بين الامبراطوريتين الرومانية والبارثية مما مكن من استمرار التجارة بين الشرق والغرب. وبلغت تدمر أوجها في أيام الملكة زنوبيا التي أثارت إعجاب المؤرخين، القدماء منهم والحديثين لما اتسمت به من شجاعة وقدرة في القيادة مع تبحر في العلم إلى جانب الفضيلة والجمال الرائع. وامتدت مملكتها من مصر إلى أواسط آسيا الصغرى. إن أثار تدمر، وهي من أروع الآثار الباقية عن العصور القديمة، تشهد على ما بلغته هذه الواحة من العمران.

وأنشأ الأنباط دولة ارتكزت أيضاً على التجارة، فقد سيطروا على طريق القوافل في شمالي الجزيرة العربية من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج. وتعكس اثار عاصمتهم بطراء ازدهار مملكتهم التي امتدت إلى دمشق وشملت مراكز مهمة مثل صلخد وجرش. وحافظوا على استقلالهم من القرن الثالث قبل الميلاد إلى سنة ١٠٦ بعد الميلاد حين أصبحت مملكتهم جزءاً من الامبراطورية الرومانية.

وكان للعرب في شمالي سورية دولة عاصمتها الرها. وتروى قصة طريفة عن أحد ملوك هذه الدولة واسمه أبجر. كان أبجر مصاباً بداء عضال وقد سمع عن السيد المسيح وعجائبه كما سمع أن اليهود يضطهدونه. فبعث إليه رسولاً وكتاباً يدعوه ويقول إن له مدينة صغيرة وجميلة وهي تتسع لهما ليعيشا بسلام وأمن. لم يأت المسيح إلى الرها لكن رسول أبجر عاد ومعه منديل كان المسيح مسح به وجهه فطبعت صورته عليه. وبقي هذا الأثر المقدس في كنيسة الرها إلى سنة ٣٣١ / ٩٤٣ حين نقل إلى القسطنطينية

وقد افتدي به أسرى مسلمون كانوا عند الروم[١].

وفي أواخر العصر السلوقي سيطر شيوخ القبائل على وادي نهر العاصي. وسيطر الايتوريون على وادي البقاع، حيث عاصمتهم عنجر، وامتدت سلطتهم إلى حوران وأقاموا الحصون على جبل لبنان ومنها كانوا يغيرون على المدن الساحلية إلى أن تغلب عليهم القائد الروماني بومبيوس في سنة ٦٣ قبل الميلاد.

وسكنت قبائل غير مستقرة استقراراً كاملاً في منطقة الحراء إلى جنوب شرقي دمشق على المنحدر الشرقي من جبل الدروز حيث وجدت نقوش كثيرة على الصخور لغتها عربية كتبت بأحرف أرامية.

وعندما أصبحت سورية ولاية رومانية في سنة ٦٤ قبل الميلاد كانت البلاد كلها تتربع في أيدي العرب.

وأصبح ابن شيخ عربي من شهباء في حوران امبراطوراً رومانياً (من سنة ٢٤٣ - ٢٤٩ بعد الميلاد) هو فيلبوس العربي الذي يعد من قياصرة الرومان العظام. وقد أثنى عليه ثناء حاراً أحد كبار معاصريه قائلاً إنه كان حاكماً مثالياً. ومضى يقول: «لقد سبق وقلت بما فيه الكفاية عن عدله. لقد كانت جميع الولايات ترتجف ويستبد بها الخوف لكثرة الجواسيس التي كانت تجوب المدن وتتنصّت على ما يقوله الناس. حتى لكان من المستحيل أن يفكر المرء أو يتكلم بحرية. إذ قُضي قضاء مبرماً على حرية كل قول معتدل وحر، بحيث كان الناس ترتعد فرائصهم عند رؤية ظلهم. من هذا الخوف الجاثم على الصدور أطلق نفوس الجميع وجعلهم أحراراً، معيداً لهم حريتهم الكاملة».

(١) R. Duval, Histoire Politique, Religieuse et Littéraire d'Edesse, Journal Asiatique, 1891, pp 234-255.

يحيى بن سعيد الانطاكي، تاريخ ص ٣٢ - ٣٤.

وقد وافق على هذا الثناء مؤرخ حديث شهير[١].

حاول الرومان أن ينظموا تدفق القبائل من الصحراء بأن أقاموا دويلات تابعة لهم عند تخوم سورية الجنوبية. وقد تتابع عدد من القبائل في الزعامة، واعتنق بعضهم المسيحية. وفي القرن السادس الميلادي كانت الزعامة للغساسنة مارسوها من مركز دولتهم في الجولان. وكان الغساسنة من القبائل الكثيرة التي هاجرت إلى الشمال بعد أن انهار البنيان الاجتماعي والسياسي في جنوبي الجزيرة العربية التي كانت في الألف سنة قبل الميلاد والقرون الميلادية الأولى مركز حضارة مزدهرة ينعم في ظلها مجتمع بالعيش الرغد. وكان ثراء دول الجنوب: معين وسبأ وحمير مضرب المثل في العالم القديم، ومصدر تجارة تنقلها القوافل وتحمل بضائع غالية الثمن كالبخور والتوابل والذهب وغيرها من سلع الكماليات. وأقام عرب الجنوب مستوطنات في شمالي الجزيرة العربية في القرون الأخيرة قبل الميلاد، وبقيت آثار أبنيتهم ومئات من النقوش سجلاً يرشد إلى معرفة لغتهم وديانتهم وأوجه أخرى لمجتمعهم.

بدأت حضارة الجنوب تذوي عندما تحولت التجارة عن طريق القوافل إلى البحر وذلك بعد اكتشاف الريح الموسمية في عهد البطالسة. ولما اضمحلت تجارة القوافل تداعى المجتمع الذي كان قائماً عليها. وبدأ عرب الجنوب يغادرون أوطانهم، فأهملت منشآت الري وغيرها من الأعمال العمرانية وأصبحت خراباً. جرت هجرة أهل الجنوب على مراحل ولو أن الرواية السائدة ربطتها بانهيار أحد هذه المنشآت وهو سد مأرب.

إن انتشار القبائل العربية في سورية سهّل الفتح العربي. فالرابطة

(١) M. J. Rostovtseff, The Social and Economie History of the Roman Empire, volume 2, p 454.

العرقية بين العربي المقيم في الحضر والبدوي القادم من الصحراء كانت من أسباب النجاح السريع الذي لاقاه الفاتحون.

وبعد الفتح اتسع الوجود العربي، وإن كنا لا نعلم على وجه التحديد حجم الجيوش العربية. فسورية أصبحت مركز الخلافة ومنها سيِّرت الجيوش إلى الفتوحات شرقاً إلى أواسط آسيا وغرباً إلى الاندلس. وسورية التي امتدت حدودها الشمالية إلى الدولة البيزنطية والتي تعرضت لغزوات الروم في البحر، أوجب وضعها هذا وجود جيوش مرابطة كبيرة. وأنشئت الحصون في المواقع الستراتيجية ومنحت الحاميات اقطاعات مما شجع على الاستيطان الدائم.

ومع تقدم الفتح ورسوخه جلا عن البلاد أولئك السكان الذين كانت تربطهم بالبيزنطيين روابط مختلفة، وحلّ الفاتحون محلهم. فالخليفة عثمان بن عفان أمر معاوية والي الشام أن يعدّ الجيوش في السواحل ويرتب المقاتلة[١] في الحصون ويقطع الرتب الأراضي ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل. ثم إن الناس بعدُ انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية.

وأكثر القبائل التي استوطنت بلاد الشام قبل الإسلام كانت من عرب الجنوب. وإلى هذه القبائل اليمنية ينتسب الدروز.

هناك عديد من النظريات ظن أصحابها أنهم توصلوا إلى معرفة أصل الدروز العرقي. إن أكثر هذه النظريات لا تستحق الوقوف عندها. ومن بين الذين لم يتوهوا في التخيلات المستشرق الألماني أوبنهايم الذي نقل عن مرجع درزي موثوق أن الدروز عرب دخلهم مزيج قليل من الأكراد. وكتب الباحثان الانكليزيان هوغارث وجرترود بل إن العنصر السائد في الدروز عربي. مضافاً إلى امتزاجهم بسكان الجبال من أصل أرامي.

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٨.

أما الاعتقاد السائد بين الدروز والمتوارث جيلاً بعد جيل هو أصلهم العربي الذي يرجع إلى قبائل سكنت سورية، منها قبل الإسلام ومنها جاء مع الفتح.

وعن انتشار هذه القبائل نجد معلومات وافية عند الجغرافيين العرب الذين عاشوا في العصور الإسلامية الأولى، ومعلوماتهم جديرة بالثقة فهم يكتبون عمّا خبروه بأنفسهم ويصفون بلاداً زاروها فعلاً. وحسبما جاء فيما كتبوه كان العرب موزعين في كل البلاد السورية من أقصى الجنوب إلى الشمال ومن تخوم بادية الشام إلى البحر الأبيض المتوسط في السهول وعلى المرتفعات وفي السواحل.

كان الدروز في أوائل تاريخهم منتشرين في مناطق واسعة من سورية. في الشمال مثلاً حيث استجابت القبائل العربية إلى الدعوة. وكانت هذه القبائل استوطنت الجزيرة، بين دجلة والفرات، على دفعات في فترات متتابعة. وسميت أجزاء هذه المنطقة بأسماء القبائل التي استوطنتها. فالقطاع الشمالي، حوض دجلة الأعلى، هو ديار بكر، وإلى الشرق شملت ديار ربيعة القطاع بين نهر الخابور والموصل، وفي الغرب ديار مضر وهي البلاد الواقعة عند المنعطف الكبير لنهر الفرات.

واستوطنت قبيلة تنوخ التي تحتل مركزاً هاماً في تاريخ الدروز البلاد الواقعة بين حلب وحماه. وعندما تقدمت الجيوش العربية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح كانت تنوخ مستقرة في هذه المنطقة. وكانت اللاذقية الواقعة على البحر تابعة لديار تنوخ. وإلى جانب تنوخ سكنت قبيلة بهراء بحيث عرفت سلسلة الجبال بين اللاذقية وجبل لبنان باسم جبل بهراء وتنوخ. وفي الطرف الشمالي الشرقي من السلسلة يقع جبل السماق) أو الجبل الأعلى موطن جماعة كبيرة من الدروز في أيام الدعوة. ولم يبق منهم هناك سوى عدد قليل.

وفي دمشق والقرى المجاورة كان الدروز أكثر بكثير مما يستدل من عددهم هناك الآن. وكانت ديرة دمشق وسهول البثنية وحوران إلى الجنوب موطناً للقبائل العربية لعدة قرون قبل الإسلام. وكانت الجولان قاعدة المملكة الغسانية التي تجمع حولها العرب المقيمون في تلك النواحي. وبعد الفتح قدمت قبائل من عرب الشمال والجنوب قيس ويمن، واستقرت في دمشق ونواحيها.

ودخلت القبائل إلى الجبال، فجبل عامل في جنوب لبنان سمي كذلك نسبة إلى قبيلة عاملة اليمنية. وفي الجبل وراء صيدا نزل قوم من قريش واليمن.

إن أهم مراكز تجمع الدروز منذ بدء الدعوة وإلى اليوم منطقة وادي التيم والقطاع الجنوبي من جبل لبنان. وينسب وادي التيم إلى تيم الله بن ثعلبة من قبيلة ربيعة، ونزلت في الوادي قبائل عربية أخرى.

أما فيما يتعلق بسكان جنوبي جبل لبنان فإننا نجد في مراجع مختصة بالدروز معلومات غير متوفرة في مصادر أخرى.

من هذه المراجع كتاب «عمدة العارفين» لعبد الملك الاشرفاني الذي عاش في القرن السابع عشر واعتمد مصادر بعضها فُقِدَ منذ زمانه، والكتاب، وهو مخطوط لم ينشر بعد، يتألف من ثلاثة أجزاء تحوي قصص الأنبياء وقدماء الفلاسفة والحكماء وأخبار بعض الصحابة والأئمة، وفي الجزء الثالث تاريخ الدروز المذهبي.

يقول الاشرفاني عند ذكر الأمراء التنوخيين: إنه لما توجه الصحابة لفتح الشام، خرج لنصرتهم فخذ من التنوخيين، وكانوا مقيمين في المعرة، وقدموا إلى ثغر بيروت بعددهم وعدتهم وملكوا بلاد الغرب وجبل بيروت وأقاموا فيه.

وفي سجل النسب الأرسلاني، وهو مرجع موثوق، أن التنوخيين انتقلوا من معرة النعمان إلى جبل لبنان في خلافة أبي جعفر المنصور الذي أمر الأمراء الأرسلانيين أن ينتقلوا مع عشائرهم ويستوطنوا الجبل وراء بيروت ليحموا الساحل ويحفظوا الطرق الداخلية[1].

إن هجرة التنوخيين من شمالي سورية تؤيدها مصادر عامة ترجع إلى العصور الإسلامية الأولى. فالبلاذري يروي أن تنوخ اضطرت إلى النزوح من منطقة حلب حيث كانت تعيش في رخاء بسبب خلاف وقع بينها وبين قبائل أخرى مجاورة وذلك بعد وفاة هارون الرشيد. ويقول ميخائيل السرياني، بطريرك انطاكية لليعاقبة (١١٦٦ - ١١٩٩ ميلادية) أن تنوخ اضطرت إلى الهجرة بعد أن هزمها القيسيون، فالعشائر التنوخية كما يتضح من المصادر غادرت مقرها في الشمال في هجرات متتالية.

كانت الزعامة للارسلانيين في العهد التنوخي الأول في جبل لبنان. لكنهم كادوا ينقرضون في موقعة جرت مع الصليبيين في بيروت والغرب في سنة ٥٠٣ / ١١١٠ انتقلت بعدها الزعامة إلى آل بحتر. وقد ارّخ لهذه العائلة التي حكمت الغرب لعدة قرون الأمير البحتري صالح بن يحيى. كتب صالح في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، لكنه اعتمد في تاريخه على وثائق قديمة محفوظة عند عائلته. وهو مؤرخ صادق

(١) يحتوي سجل النسب الأرسلاني على ١٩ إثباتاً متسلسلاً من سنة ٧٥٨/١٤١ إلى ١٣١٣/٨٩٦ في كل منها شهود عيان وأحكام شرعية من قضاة ورد ذكر بعضهم في كتب التراجم وتقع الاثباتات التي في النسب ضمن مدة قضائهم. وفي النسب حوادث تاريخية وذكر خلفاء وملوك وقواد ممن ولي الشام وبغداد ومصر وكلها مطابقة لما في التاريخ العام.
بين أوراقنا صورة فوتوغرافية لدرج كامل للنسب أهداه المرحوم الأمير أمين مصطفى أرسلان للمرحوم والدي. ويوجد خلاصة للنسب الارسلاني في دائرة المعارف للبستاني وتاريخ الأعيان للشدياق.

ودقيق يجتهد في تمحيص ما يرويه ويعمل بما يعتقده وهو أن «النقل أمانة»[1].

ومن أهم المصادر عن التنوخيين في جبل بيروت الكتب المذهبية للدروز حيث توجد رسائل وُجهت إلى أمراء تنوخيين سيرد ذكرها فيما بعد.

وجاء إلى الجبل مجموعة من العشائر بقيادة معن بن ربيعة، وكانوا حاربوا الصليبيين في شمالي سورية وتراجعوا جنوباً بعد هزيمتهم، ثم استقروا إلى جوار التنوخيين وتزاوجوا معهم. وفيما بعد حكمت أسرة معن لبنان الذي بلغ أوج عزه في أيام الأمير فخر الدين الثاني في الثلث الأول من القرن السابع عشر.

من الواضح أن هجرة القبائل العربية إلى لبنان لم تحدث دفعة واحدة في تاريخ محدد بل كانت مستمرة سببتها عوامل مختلفة في أوقات متعددة. وعندما استقروا في الجبال المطلة على البحر تولى المستوطنون حماية السواحل والطرق البرية. في بادىء الأمر ضد الروم وأعوانهم المردة، وفيما بعد ضد الفرنجة.

لا نعلم إلى أي مدى كانت البلاد التي نزلوها آهلة بالسكان، فالمصادر لا تذكر من السكان المحليين غير المردة الذين حاربهم التنوخيون. ومما يدل على خلو الأرياف من السكان أو قلة عددهم أن القبائل لم تفرض سيطرتها فقط على البلاد بل إنهم استقروا كفلاحين يحرثون الأرض ويزرعونها.

أما عن القوة العددية لهؤلاء المستوطنين فيمكننا أن نفترض أنها كانت كبيرة نظراً إلى أهمية المسؤولية التي أسندت إليهم.

(١) صالح بن يحيى، تاريخ ص ١٦٥، ١٦٧.

الفصل الثاني

الخلفية التاريخية

قبل أن نبدأ الكتابة عن الدروز لا بد من نظرة إلى الشيعة وخاصة الشيعة بشكلها الإسماعيلي – الفاطمي، إذ أن مذهب الدروز لا يمكن فهمه إلّا ضمن هذا الإطار.

بدأت الشيعة، والدروز أحد فروعها، كحركة سياسية، فقد كانت شيعة علي وكان بدؤها الخلاف الذي قام حول من يخلف النبي.

إن أنصار علي زعموا أنه الأحق بهذه الخلافة وذلك لقرابته من الرسول ﷺ، فهو ابن عمه وزوج ابنته فاطمة، وسبق الصحابة في الدخول في الإسلام، ولمزاياه الخلقية: التقوى والعلم والشجاعة في الدفاع عن الدين.

لم يعين النبي خلفاً له لقيادة الأمة من بعده[1]. لقد أذهلت وفاته المسلمين الذين فجعوا بغيابه عنهم. غير أنهم ما لبثوا أن تجمعوا في فئتين، فئة المهاجرين الذين تبعوا النبي من مكة إلى المدينة، وفئة الأنصار الذين أيدوه ورحبوا به في مدينتهم وادّعى كل من الفريقين الحق في خلافة الرسول. وكان يخشى أن يعرض هذا الخلاف الجماعة الفتية إلى الانقسام. لقد تلافى هذا الخطر عمر بن الخطاب بإقدامه وحزمه إذ أخذ بيد أبي

(١) يعتقد الشيعة أن النبي أوصى بولاية علي حين نزل عند غدير خم وهو عائد من حجة الوداع فأخذ بيد علي وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه.

بكر الصديق هذا الصحابي الأمين والمقرب من النبي، فتبعه جموع الصحابة مبايعين أبا بكر، وهكذا حُلّت مسألة الخلافة.

بدأ عهد الخلافة بانتخاب أبي بكر. وكان الخليفة على رأس الأمة التي اعتبرت كياناً دينياً ودنيوياً.

عيّن أبو بكر عمرَ خليفة له، وكان هذا الاختيار قراراً مصيرياً أيضاً، إذ يُعتبر عمر المؤسس الثاني للإسلام. في أيامه لُقب الخليفة بأمير المؤمنين.

أما عمر فقد أوكل إلى ستة من كبار الصحابة، بينهم علي بن أبي طالب، اختيار واحد منهم ليخلفه، فاتفقوا على عثمان بن عفان من السابقين في اعتناق الإسلام.

إن أنصار علي لم يحركوا ساكناً أثناء خلافة أبي بكر وعمر اللذين حكما الأمة بعزم وعدل فهابتهم العرب.

تغير الوضع في خلافة عثمان. فكان من اتساع الفتوحات الإسلامية وتدفق المال الناتج عنها وكثرة الداخلين في الإسلام من بين الشعوب المغلوبة إن نشأت مشاكل لم يكن لدى عثمان، ذلك الرجل الطيب، القدرة على مواجهتها. وقد أُخذت على عثمان مآخذ منها أنه كان يقرب أهله بني أمية، وهؤلاء استغلوه مما أثار استياء بعض الصحابة في مكة والمدينة[1].

وكانت الولايات مضطربة بسبب النزاع بين القبائل ونزوح الفلاحين من أراضيهم وما نتج عن ذلك من ضيق وعدم استقرار.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، الجزء الخامس، ص ٢٥ – ٢٨؛ اليعقوبي، تاريخ، الجزء الثاني، ص٢٠٢ – ٢٠٤.

وكان من بين الصحابة من جمع المال وسكن القصور واقتنى العبيد، مما كان مغايراً لسنة الرسول وسلوك أبي بكر وعمر، وكانت سيرتهم لا تزال حية في أذهان الناس. وقد أثار هذا التهافت على حب الدنيا وملاذها غضب المتدينين، ومنهم أبو ذر الغفاري الذي اشتهر بتعنيفه الصريح لمن سلك هذا السبيل.

كان مكتب أبي ذر (أي ديوان عطائه) بالشام إذ كان يغزو منها بلاد الروم. كان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء، فقد قال له لما بنى الخضراء: يا معاوية، إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة. وإن كانت من مالك فهذا الإسراف. كان يعظ الناس فتجتذب عظاته جماهير متشوقة لسماعه متأثرة بكلامه، وجعل يقول: «يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس». فخاف معاوية أن يفسد عليه أهل الشام فكتب إلى عثمان يطلب استدعاءه إلى المدينة.

يروى أن النبي قال: ما أقلت الغبراء ولا أطبقت الخضراء على ذي مهجة أصدق من أبي ذر.

لقد ألقيت على عثمان تبعات كل ما حصل من متاعب وتجاوزات. وأعنف اللوم صدر من الجنود الذين قارنوا بين حياتهم القاسية إن في المعسكرات أو في الحروب وبين المتنعمين بعطاآت سخية من بيت المال. فاندلعت الفتنة وقتل عثمان.

وبويع علي بالخلافة. ولما لجأ منافساه طلحة والزبير إلى السلاح هزما في

(١) البلاذري، كتاب أنساب الأشراف، الجزء الخامس ص ٥٢-٥٦؛ الطبري، تاريخ، الجزء الأول ص٢٨٥٩ - ٢٨٦٠؛ ابن الفقيه الهمذاني، كتاب البلدان، ص١٥٦.

موقعة الجمل قرب البصرة. بعدها نقل علي مركز الخلافة من المدينة إلى الكوفة.

حاول علي أن يعزل معاوية والي الشام، وكان عمر ولّاه عليها ثم عثمان من بعده. وقد أحسن معاوية سياسة البلاد خلال عشرين عاماً من ولايته.

رفض معاوية أن يقر لعلي بالخلافة. بل، بصفته نسيباً لعثمان، طالب أن يعاقب قتلته؛ فنشب خلاف بينهما تطور إلى قتال. وكانت معركة صفين، على ضفة الفرات الغربية، تسير لصالح علي عندما رفعت المصاحف على رؤوس الحراب بين جنود معاوية وارتفعت الأصوات تنادي: لا حكم إلّا لله، مما أحدث البلبلة في صفوف علي. فاضطر أن يرضخ لرأي القائلين من جماعته بوجوب اللجوء إلى التحكيم بدل الاستمرار في القتال. فكان أن أثار قراره هذا سخط جماعة أخرى من اتباعه ممن رأوا أنه بقبوله التحكيم قد أبطل حقه في الخلافة، وعليه خرجوا من صفوفه فسُموا الخوارج. وكان مقتل علي على يد أحدهم وهو يصلي في مسجد الكوفة، وذلك في شهر رمضان سنة أربعين للهجرة (٦٦١ م).

وبوفاة علي انتهى عصر الخلفاء الراشدين الذين يمجدهم التاريخ العربي بصفتهم مثالاً للحكم الصالح، كما جاء في كتاب الفخري لابن الطقطقى حيث قال في وصف دولة الخلفاء الراشدين: «واعلم أنها دولة لم تكن من طرز دول الدنيا وهي بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه. والحق في هذا أن زيها كان زي الأنبياء وهديها هدي الأولياء وفتوحها فتوح الملوك الكبار»(١).

باعتلاء معاوية سدة الخلافة بدأ حكم ملكية وراثية. أسس معاوية الخلافة الأموية التي حكمت قرابة قرن العالم الإسلامي الممتد من جبال

(١) ابن الطقطقى، الفخري، ص ٨٩.

البرانس في شمال إسبانيا إلى كاشغر في غربي الصين.

أما الخوارج الذين قاتلوا علياً فلم يذعنوا للأمويين بل اعتبروهم مغتصبي الخلافة. كما اعتبر الخوارج انفسهم المسلمين حقاً وما عداهم كفرة يحل قتالهم. وهكذا كانت ثورات الخوارج متواصلة.

كان الخوارج ينتمون إلى قبائل عربية من شمالي الجزيرة، وقد ورثوا عن حياة البادية نزعة ديمقراطية، فإنهم رأوا أن الخلافة ليست حكراً على قريش بل هي للأصلح من المسلمين. كذلك ورثوا من البداوة البلاغة والميل إلى الشعر. ومن الحياة القبلية جاءتهم النزعة إلى التخاصم والتفكك بحيث تشرذموا إلى فئات عدة. وقد بقيت منهم إلى يومنا هذا بقايا في أماكن نائية منها بلاد عمان الداخلية.

في حين أدان الخوارج الأمويين بأنهم من مرتكبي الكبائر التي تخلد في النار، دافع أهل الشام عن شرعية حكامهم. ونشأ عن مسألة شرعية حكم الأمويين جماعة أخرى هي المرجئة. هؤلاء قبلوا الأمر الواقع وهادنوا بني أمية تاركين الحكم لله، إذ قالوا: إن الأمويين مسلمون وهم الحكام فعلاً، وصالح المسلمين يفرض طاعتهم. لقد توافقت عقيدة المرجئة في المعاصي مع آرائهم السياسية المعتدلة، فإنهم فرقوا بين الكبائر والصغائر وقالوا إن الكبيرة، شرط أن لا تشمل الشرك، لاتقصي المؤمن إلى الأبد عن الجنة.

أما الشيعة فإنهم استمروا في إنكار شرعية حكم الأمويين الذين، في نظرهم، اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين: علي وذريته، وقالوا إن النبي عهد بالخلافة إلى علي من بعده وذلك بعد حجة الوداع حين أمسك بيد علي وقال: مَن كنت مولاه فعلي مولاه. إن مأساة الحسين، الابن الأصغر لعلي وفاطمة، في كربلاء في خلافة يزيد بن معاوية، عمّقت العداء

بين العلويين والأمويين وأضافت إلى الولاء لآل البيت الجذوة العاطفية التي أثارتها مأساة كربلاء.

كان القرن الأموي عصر السيادة العربية، فقد كانت القبائل العربية العمود الفقري للقوة الأموية. فمن هذه القبائل كانت الجيوش التي فتحت الفتوحات المنتشرة من حدود الصين إلى جنوبي فرنسا. وحكم ولاة عرب الولايات القريبة والبعيدة. كما انتصرت لغة العرب وقد حلت نهائياً مكان اللغات المحلية في البلاد الوقعة في قلب هذه الامبراطورية المترامية الأطراف.

غير أن انتصار العرب حمل في طياته بذور ضعفهم. فمع اتساع الدولة دخلت شعوب متعددة الجنسيات في الإسلام وبذلك اكتسبت حقوق وامتيازات الحاكمين. هؤلاء المسلمون من غير العرب، أي الموالي، نقموا على السيطرة العربية، وبتزايد عددهم كوّنوا تحدياً لتلك السيطرة. لقد شارك الموالي في ثورة الشيعة في الكوفة في سنة ٦٨٦/٦٦ التي قادها المختار وهو عربي من قبيلة ثقيف. ومع أن الثورة أُخمدت فإن الموالي خرجوا كقوة سياسية[١].

ومما زاد في ضعضعة السيطرة العربية النزاعات بين القبائل العربية ذاتها. وقد حدثت أولى هذه النزاعات في أوائل العصر الأموي بعد وفاة يزيد بن معاوية، وكانت حول من يخلفه. فقبائل عرب الشمال بزعامة قيس ساندوا عبد الله بن الزبير الذي بويع في الحجاز. بينما قبيلة كلب على رأس عرب الجنوب وقفوا إلى جانب الأمويين وفي القتال الذي وقع في مرج راهط بالقرب من دمشق انتصر أتباع الأمويين، ولكن الصدع بين الفريقين من العرب لم يلتئم.

(١) الطبري، تاريخ، الجزء الثاني ص٥٩٩ - ٧٥٠.

ولما زال الحكم الأموي لم يفز آل البيت بالخلافة بل فاز بها العباسيون الذين استغلوا الولاء لعلي وذريته.

ونمت الشيعة في زمن العباسيين، فإلى جانب كونها تيار عدم رضى كانت تنفجر بين الحين والآخر انتفاضات على الخلافة العباسية. ففي زمن المنصور الخليفة العباسي الثاني ثار في الحجاز أحد ذرية علي، وهو محمد النفس الزكية، وتبعه عدد كبير من رجال القبائل وسكان المدن وقاتلوا معه القوات التي أرسلها الخليفة لإخضاعه. وبعد سقوطه في موقعة قرب المدينة ثار أخوه إبراهيم في البصرة وحقق انتصارات في جنوبي العراق والأهواز قبل أن يُهزم في الكوفة. أما أخوهما الثالث يحيى فقد ثار في زمن الرشيد وانتقل إلى بلاد الديلم الجبلية جنوب بحر قزوين حيث لقي ترحيباً لما كان للشيعة من جذور في تلك النواحي[1].

في زمن المأمون اندلعت ثورة كبرى في الكوفة تزعمها أبو السرايا باسم أحد العلويين الذي يدعى ابن طباطبا. فالمأمون، إقراراً منه بقوة الشيعة، وبما أنه كان يميل إلى رأيهم في الخلافة، أعلن في سنة ٨١٦/٢٠١ علي الرضى بن موسى بن جعفر الصادق ولياً لعهده وأمر بإبدال اللون الأسود وهو شعار العباسيين بالأخضر الشعار العلوي. وكان المأمون آنئذ في خراسان. ولما علم أن العباسيين في العراق رفضوا قراره هذا واقسموا الولاء لعمه إبراهيم بن المهدي أسرع راجعاً إلى بغداد. وفي الطريق، في طوس، توفي فجأة علي الرضى الذي كان يرافقه[2].

لم تهدأ الثورات العلوية. لقد أسس الحسن بن زيد دولة في طبرستان

(١) ابن الطقطقي الفخري، ص٣٥ - ٣٦، ١٩٥ - ١٩٨، ٢٣١ - ٢٣٢؛ المسعودي، التنبيه والأشراف ص٣٤١.
(٢) اليعقوبي، تاريخ، الجزء الثاني، ص٥٤٤ - ٥٥١.

بعد هزيمته جيوش الخليفة في سنة ٨٦٤/٢٥٠. وأصبحت هذه الدولة ملاذاً لذرية علي ولبني هاشم الذين أموها من الحجاز والشام والعراق. واستمر حكم الزيديين في طبرستان إلى سنة ٩٢٨/٣١٦.

في مجتمع حيث الدين سيطر على الحياة نشأت فرق دينية جرى من خلالها تعبير عن السخط السياسي والاجتماعي. وقد تعددت هذه الفرق في أحضان الشيعة كما نرى في كتاب « فرق الشيعة » للنوبختي، وأصبحت هذه الفرق ملاذ المحرومين.

إن الجماعات المعارضة للسلطة التفت حول أحد أفراد آل البيت، ومن خلال التشيع عبرت عن آلامها وأمانيها. فالآلام عكست الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والحضارة الناجمة عن قيام امبراطورية عالمية. أما الرأي الذي أعتنقه بعض المستشرقين في وقت ما بأن التشيع حركة فارسية منبثقة من عداء الفرس للعرب فقد ظهر خطؤه وطرح جانباً. فإن الشيعة نشأت في بيئة عربية، في المدينة بين صحابة الرسول وكان أوائل المنتمين إلى الشيعة قبائل عربية، أكثرهم من اليمنية الذين استوطنوا الكوفة وجوارها. إن القبائل التي قاتلت إلى جانب علي في حربه مع معاوية دعمت بعد وفاته، شرعية آل البيت وإعادة الخلافة إليهم. وثورة المختار التي شارك فيها الموالي استمدت قوتها الرئيسية من القبائل العربية في الكوفة.

لقد انضم إلى الشيعة بعض الداخلين في الإسلام من الفرس والآراميين آملين بذلك تحسين مكانتهم. ولم يكن ضيقهم بسيطرة العرب إلّا أحد عوامل السخط. أما الخطر الأكبر على النظام القائم فكان مصدره الأسباب الاجتماعية والاقتصادية للسخط وهذه شملت العرب والعجم. وقد رأينا هذه الأسباب تعمل عملها منذ زمن الخلفاء الراشدين حين أثرى بعض

أشراف مكة ثراء كبيراً. فالثراء تدفق من الفتوحات التي قامت على أكتاف القبائل، وهذه ساءها أن تستغل فتوحاتها لصالح فئة، ورأت أن الثراء يجب أن يكون، بموجب تقاليد البادية وتقاليد الإسلام ملك الجماعة كلها.

إن أسباب الاضطراب الاجتماعي تفاقمت مع الزمن فالازدهار الاقتصادي زاد من التباعد بين الغني والفقير. كان الوضع قابلاً للانفجار في جنوبي العراق حيث العبيد والفلاحون القادمون من الريف يستخدمون في الملكيات الشاسعة في تجفيف المستنقعات لاستخراج الملح وإعداد الأرض للزراعة.

وقد أدى استغلالهم وبؤسهم إلى انفجار ثورة كبرى دامت خمس عشرة سنة، من ٢٥٥ – ٢٧٠/٨٦٩ – ٨٨٣، ونجم عنها دمار شمل المنطقة كلها. لقد حارب العبيد بشجاعة وعزم بقيادة رجل ادعى أنه علوي. وكانت أعدادهم تتكاثر بمن انضم إليهم من العبيد الهاربين من المدن والفلاحين من القرى المجاورة، وقاتلوا القوات المرسلة من بغداد الواحدة بعد الأخرى وانتصروا عليها، وزادوا في عددهم وعدتهم بما غنموه من السلاح والمال والرجال، واستولوا على مدن هامة هي الأبلّة والأهواز والبصرة وواسط ونشروا الخراب في الريف.

غير أن هذه الثورة لم ينجم عنها آثار اجتماعية دائمة. فإنها لم تكن سوى انتفاضة محلية قام بها جماعة رازحة تحت الظلم حاولت عن طريق الثورة التخلص من شقائها. وقد وعدهم زعيمهم بأنهم سيحلون مكان أسيادهم وينعمون ويقتنون العبيد[١]. ولم يكن هناك أي اتجاه لتغيير المجتمع كما

(١) الطبري، تاريخ، الجزء الثالث ص ١٧٤٢ – ١٧٥١، ٢١٣٠؛

Theodor Noldeke, Sketches from Eastern history, pp 149-175.

اتضح ذلك لزعيم القرامطة عندما حاول أن ينسّق بين حركته وثورة الزنج. إن تحقيق التغيير في الوضع الاجتماعي كان رسالة الحركة الاسماعيلية التي قامت في أحضان الشيعة.

إن الشعوب التي دخلت في الإسلام أدخلت معها بعض معتقداتها، منها فكرة «الرجعة»[١] التي ظهرت لأول مرة في ثورة المختار في الكوفة. لقد ثار المختار باسم محمد بن الحنفية، وهو ابن علي من زوجته الحنفية. ولما مات محمد قال المختار واتباعه إنه لم يمت ولكنه يقيم في جبال الحجاز وسوف يعود ليملأ الأرض عدلاً.

اعتنقت الاسماعيلية فكرة رجعة الإمام، وهو المهدي المنتظر، الذي سيملأ الأرض عدلاً وحقاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

لقد أنعشت هذه الفكرة الكثيرين، خاصة المحرومين الذي وجدوا العزاء في التطلع إلى هادٍ من آل البيت له صفات لا يتمتع بها سائر البشر، وهكذا يمكن أن يهيىء لهم حياة أفضل في هذا العالم ويهديهم إلى النعيم في الآخرة.

عندما ظهرت الاسماعيلية لأول مرة في جنوبي العراق، في النصف الثاني من القرن الثالث/التاسع، كانت مرتبطة بحركة القرامطة.

إن العراق الجنوبي كان أرضاً خصبة لقيام الفرق المنشقة. فقد كان وضع الكثرة من سكانه مضطرباً، وكان بينهم الفلاحون الرازحون تحت الاستغلال، والقبائل المقتلعة من جذورها، والموالي المتعددة الجنسيات والحضارات.

إن زعيم القرامطة، حمدان بن الأشعث، المسمى قرمط، والذي منه

(١) رجوع الإمام بعد غيبته.

أخذ القرامطة اسمهم، كان فلاحاً خبر شقاء الفلاحين في السواد، الأرض الخصبة في جنوبي العراق.

وكان الداعي الاسماعيلي حسين الأهوازي يتنقل بين عسكر مكرم في الأهواز والبصرة وسلمية بالقرب من حماه. وفي إحدى تنقلاته التقى بحمدان قريباً من الكوفة، ولما رأى فيه دلائل تقبّل آرائه أسرّ إليه الغرض من سفره وهو الدعوة إلى الإمام الذي لم يذكر اسمه. رافق حمدانُ الحسينَ إلى قريته حيث أخذ الداعي العهد على أهل القرية المجتمعين في منزل حمدان.

كثر الداخلون في الدعوة من الفلاحين وأعطوا عن رضى ما فُرض عليهم. وأقام حمدان في كل قرية رجلًا من الثقات جمع عنده أموال قريته وكان ينفق عليهم ما يكفيهم حتى لم يبق بينهم فقير ولا محتاج. كان الفلاحون يعملون بجد ويأتون بثمار عملهم إلى المال المشترك. حتى إن الصبيان جاءوا بأجرة حراستهم الطيور في الحقول، والنساء أحضرن ما كسبن من غزلهن، وبلغ عدد الداخلين في الدعوة من الكثرة بحيث أن قائد جيوش الخليفة التي هزمت القرامطة سنة ٢٨٧ / ٩٠٠ امتنع عن معاقبتهم بشدة حرصاً على السواد من الخراب فقد كانوا فلاحيه وعماله[1].

انضمت أصناف ثلاثة من الناس إلى حركة القرامطة: الفلاحون وقبائل الصحراء، وفي المدن الصناع والحرفيون والعوام.

انضمت القبائل البدوية في شمال شرقي الجزيرة العربية وفي بادية السماوة في العراق وفي بادية الشام إلى صفوف القرامطة. فالحركة فتحت

(١) المقريزي، المقفى، تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار، ص٩٨ – ٩٩؛ ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة ص١٧.

منفذاً لضيقهم وأتاحت الغزوات فرصاً للغنيمة. إن الصحراء كانت دائماً تدفع بسكانها إلى البلاد المتحضرة، بعضهم كان يأتي عن طريق التغلغل الهادىء والبعض الآخر في موجات من البشر. وكانت حركة القرامطة في القرن الرابع الهجري مثلًا لضغط البادية على الحضر.

كان للقرامطة مركزان، احدهما في بادية الشام والآخر في البحرين[1]. لكل منهما قيادة منفصلة عن الأخرى. نشر القرامطة الدمار في الشام من الجنوب إلى الشمال. حاصروا دمشق سنة ٢٩٠/٩٠٣ وهزموا واليها والقوة التي أرسلت لرفع الحصار عن المدينة قبل أن يهزمهم جيش أرسله الطولونيون من مصر. وبعد سقوط قائدهم في الموقعة خارج دمشق ساروا بقيادة أخيه على سوريا الوسطى ووصلوا إلى خارج حلب حيث انتصروا على قوة أرسلت لقتالهم من بغداد. ولكنهم هُزِموا شر هزيمة بالقرب من حماه على يد جيش الخلافة. غير أن هذا لم يكن نهايتهم، فهم قبائل يلوذون إلى الصحراء إذا اشتدت الدولة في طلبهم ثم يعودون إلى الظهور فيفرضون الأتاوة على الحكام الذين يسرعون لتلبية طلبهم كي تسلم مدنهم من النهب.

أما قرامطة البحرين فقد هاجموا البصرة والكوفة واستباحوا الريف. لكنهم ركنوا إلى الهدوء في العقد الأول من القرن الرابع/العاشر عندما تولى الوزارة في سنة ٣٠١/٩١٣ علي بن عيسى الذي سار في معاملتهم سيرة حكيمة، فقد أشار على الخليفة المقتدر أن يراسل زعيم القرامطة في البحرين، أبا سعيد، وقد كتب له باسم الخليفة رسالة ينصحه ويؤنبه ويدعو القرامطة إلى الطاعة. توفي أبو سعيد قبل أن تصله الرسالة فتسلمها أخوه

(١) كان اسم البحرين يطلق قبل الإسلام وفي العصور الإسلامية الأولى على الشاطىء الشرقي لشبه الجزيرة العربية الذي يعرف اليوم باسم الاحسا ويشمل واحات القطيف وهجر. ثم اقتصر اسم البحرين على مجموعة الجزر وأكبرها أوال.

أبو طاهر الذي خلفه وردّ عليها رداً ظهرت فيه روح المسالمة. إذ قال إنهم لم يخرجوا عن الطاعة لكن أشرار الناس اساؤوا إليهم، واضطرهم القهر إلى مغادرة بيوتهم واللجوء إلى الصحراء. وأرفق الرد بعمل يدل على الرغبة في التقارب فأفرج عن الأسرى الذين في يد القرامطة. وقد قابل علي بن عيسى هذا الرد بجواب يتسم باللين ولم يقطع اتصالاته معهم، وهكذا نجح في أن يبقي القرامطة في حالة سلام مع الدولة طيلة مدة ولايته. وقد لامه البعض واتهموه بالميل إلى القرامطة، ولم يقدروا حكمة سياسته إلّا عندما عاد القرامطة إلى الحرب بعد أن تغيرت سياسة الدولة[1].

وصل خبر صرف علي بن عيسى عن الوزارة إلى أبي طاهر على جناح الطير، أرسله أتباعه في بغداد فجاء رده سريعاً إذ هاجم القرامطة البصرة، ولما دخلوها قالوا لأهلها: ويلكم ما أرك سُلَيطنكم في ابعاد ذلك الشيخ عن نفسه وليعلمن ما يلقى بعده[2].

استأنف القرامطة هجومهم فغزوا البصرة والكوفة وقطعوا الطريق على قوافل الحج وهزموا في اشتباكات متكررة الجيوش التي أرسلها الخليفة لقتالهم. واجتاحوا البلاد حتى وصلوا إلى مسافة يوم من بغداد، وأنقذ المدينة قطع الجسر على نهر زبارا. وواصل القرامطة سيرهم إلى ديار ربيعة في الشمال. إن كلمة قالها المقتدر غاضباً لعجز جيشه البالغ نيفاً وثمانين ألفاً من ألفين وسبعمائة لتدل على شجاعة هؤلاء القوم وتصميمهم. وكان القرامطة تغلغلوا في جيش الخليفة. وقد استنزفت هذه الحروب مال الدولة. فقد كان في بيت المال خمسة عشر مليون دينار عندما تولى المقتدر

(١) ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة، ص ٣٧؛ مسكويه، تجارب الأمم، الجزء الأول ص ٣٤، ١٠٩؛ ابن الجوزي، المنتظم، الجزء السادس، ص ١٢١ – ١٢٢، ١٣٠.
(٢) عريب، صلة تاريخ الطبري، ص١١٣.

الخلافة سنة ٢٩٦/٩٠٨. ولما جاء في آخر عهده يطلب معونة مالية من والدته قال لها لم يعد لديه درهم ولا دينار[1].

إن القرامطة رغم حروبهم المدمرة وما ألحقوا بالناس من المعاناة فإن حركتهم كانت تهدف إلى الإصلاح والعدل الاجتماعي. وفي الدولة التي أقاموها في البحرين وضعوا مبادئهم موضع التطبيق.

ولما زار المقدسي البحرين في القرن الرابع/العاشر وجدها عامرة آهلة. وهي مستقر القرامطة من آل أبي سعيد، وقال: «ثَمَّ نظر وعدل»[2].

وفي القرن الذي تلاه مرّ الفيلسوف والشاعر ناصري خسرو بالبحرين ودوّن مشاهداته في كتاب عن رحلته فقال: لا تفرض ضرائب هناك ولا تجبى من أحد. إن الجماعة يساعد بعضها البعض. وإذا افتقر أحدهم أو اضطر إلى الدين فإن القروض تقدم إليه إلى حين إصلاح حاله ولا يسترجع الدائن سوى المال الذي أعطاه. والوافدون على الاحسا من الغرباء يلقون المعونة على تحصيل معاشهم. وكل قادم يحسن صنعة يتسلم عند وصوله مبلغاً من المال لشراء أدوات ومواد لصناعته وبذلك يؤمن رزقه. ثم يعيد المبلغ المعطى له حين يتيسر له ذلك.

والحكومة أيضاً تقدم العون، فإذا خرب بيت أو طاحون ولم يكن لصاحبه المال لإعادة بنائه، يرسل الحكام بعض عبيدهم لإصلاحه، ولا يطلب من المالك شيء مقابل هذا العمل. وفي الطواحين التي تملكها الدولة يطحن الناس حنطتهم دون أن يدفعوا أجرة لذلك. فإن الحكومة تقوم

(١) ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة، ص٤٥ – ٥٠؛ الطبري، تاريخ، الجزء الثالث، ص٢٢٨١ عريب، صلة تاريخ الطبري، ص١٧٧، ١٨٤.
(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٣ – ٩٤.

بصيانة الطواحين ودفع أجور العمال. ويحكم الدولة ذرية مؤسسها أبي سعيد الجنابي، وكانوا وقت زيارة ناصري خسرو ستة امراء يعاونهم وزراء. وهم يتشاورون فيما بينهم ويتخذون قراراتهم بالإجماع ثم يعلنونها. وإذا جلس أحد الأمراء للناس فإنه يجيب الذين يخاطبونه بلطف وتواضع. أما ديانتهم فإن أهل الاحساء لا يقومون بشعائر الصلاة ولا يصومون ولكنهم يقرون بنبوة محمد[١].

إن ظهور القرامطة وإقامة دولتهم في البحرين لم يكونا المظهر الوحيد للاضطراب في الدولة العباسية. ففي أرجاء الامبراطورية كانت الفروقات الاجتماعية تزداد حدةً بتدفق ثراء جديد يحمل بذور شقاق اجتماعي. فقد برزت طبقة من المتمولين لديها موارد مالية ضخمة وتمتلك شبكة من المصارف. وكان أفرادها من أكابر التجار وكبار موظفي الدولة. ونجم عن نمو الصناعة واتساع التجارة أن تجمع العمّال في المدن حيث بدأوا ينظمون أنفسهم ويشعرون بأن لهم مصالح مشتركة.

وفي الريف استغل الفلاحين المتمولون ذاتهم فهم ملاك الأراضي الواسعة إذ كان لديهم المال لإنشاء الترع للري. وفي بعض الأحيان كان الفلاحون يجبرون على بيع أراضيهم كما حصل في الموصل في أيام الأمير الحمداني ناصر الدولة الذي بلغت مضايقاته الفلاحين حداً اضطرهم أن يبيعوا أرضهم التي اشتراها بأبخس الأثمان[٢].

واتخذ الاستغلال شكلًا آخر هو تلزيم الوزراء وغيرهم من كبار الموظفين مساحات كبيرة في الريف مقابل عائد قليل إلى بيت المال. وقد انفجر سكان بغداد غاضبين في سنة ٣٠٨/٩٢٠ حين قاموا على الخليفة

(١) Nasiri Khosrau, Sefer Nameh, pp 226-228.

(٢) ابن حوقل، الجزء الأول، ص ٢١٥ – ٢٢٠؛ مسكويه، تجارب الأمم، الجزء الثاني، ص ٣٨٤. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤١، ٤٤، ٤٥.

الذي أجّر لحامد بن عباس غلات السواد فنتج عن ذلك ارتفاع فاحش في الأسعار وندرة في الغذاء. سارت الجماهير إلى المسجدين الرئيسيين في شرق المدينة وغربها وكسروا المنابر وكان اعتلاها الوعاظ وأعلنوا العصيان عو الخليفة[١].

تكررت حوادث العنف في بغداد، وكأنه لم يكفِ ما أصابها من نقص الغذاء بسبب خراب الريف، فقد تعرضت المدينة مراراً للنهب من قِبَل الجند الديلم والأتراك. ونتج عن ضعف السلطة المركزية، بالاضافة إلى الضيق الاقتصادي، أن تشكلت جماعات تُسمى (العيارون) الذين عبروا عن سخطهم بنهب الأغنياء. وقد بلغوا في بعض الأحيان من القوة بحيث فرضوا ضرائب على الأسواق وأقاموا لهم عريفاً في كل حي. وانضم إلى صفوفهم الفقراء من العلويين والعباسيين. اتسم هؤلاء اللصوص بقدر من الفروسية إذ أبوا السرقة من النساء أو التعرض لهن.

ولم تكن الطرقات العامة أكثر أمناً من شوارع المدينة. وقد برّر قطاع الطرق سرقاتهم بمقتضى العدل الاجتماعي. قال زعيم إحدى هذه العصابات التي كانت تقطع الطريق على قوافل التجارة إن هؤلاء التجار خانوا أماناتهم ومنعوا زكاة أموالهم فصارت أموالهم مستهلكة بها. واللصوص فقراء، فأخذ أموال التجار مباح لهم لأن عين المال مستهلكة بالزكاة، وهم يستحقون أخذ الزكاة بالفقر شاء أرباب الأموال أم كرهوا[٢].

إن ضعف الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة بين ايدي جنودهم من الأتراك والديلم أزال الرادع على تسلط الولاة والقادة في الولايات. وقد ذكر القاضي التنوخي قصة تاجر سُلب كل ما لديه عندما قطعت الطريق على

(١) حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض، الجزء الأول، ص٢٠٢ – ٢٠٣.

(٢) التنوخي، الفرج بعد الشدة، الجزء الرابع، ص٢٣٢.

قافلة كان يسير معها بالقرب من بغداد. وكان اللص في تلك الناحية معروفاً بالمروءة والظرف فأخبره التاجر بما حلّ به. قال اللص إن السلطان أسقط أرزاقهم وأحوجهم إلى هذا الفعل وليس فيما يفعلون أمر أعظم مما يرتكبه السلطان، فابن شيرزاد في بغداد والبريدي في البصرة وواسط، والديلم في الأهواز يصادرون الناس ويفقرونهم، يأخذون الضياع والدور ويتجاوزون ذلك إلى الحرم والأولاد. فاحسب أننا نحن مثل هؤلاء وإن واحداً منهم صادرك. أجاب التاجر أن ظلم الظلمة لا يكون حجة ولا يكون القبيح سنّة، وسأل: هل يرضى التاجر أن يكون هذا جوابه عندما يقفان بين يدي الله عز وجل. عندئذ سأله اللص عن المتاع المسروق ولما صدقه القول أعاد إلى التاجر نصف متاعه وأبقى النصف الآخر[1].

روى الثعالبي صاحب يتيمة الدهر أبياتاً من الشعر رسمت بجلاء صورة النقمة المنتشرة. كان الثعالبي التقى بالشاعر في بخارى وسمع منه الأبيات وفيها يعاتب زوجته للومها له على ترك الصلاة. قال الشاعر:

تلوم على ترك الصلاة حليلتي ... فقلت اغربي عن ناظري أنت طالق

فوالله لا صليت لله مفلساً ... يصلي له الشيخ الجليل وفائقٌ

وصاحب جيش المشرقين الذي له ... سراديب مال حشوها متضايق

لماذا أصلي أين باعي ومنزلي ... وأين خيولي والحلى والمناطق

وأين عبيدي كالبدور وجوههم ... وأين جواريّ الحسان العواتق

أصلي ولا فترمن الأرض يحتوي ... عليه يميني إنني لمنافق[2]

بين حروب القرامطة التي استنزفت موارد الدولة وأنهكت قواها،

(١) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٢٣٨ - ٢٤٠.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر، القسم الرابع، ص٨١.

وضعف المتأخرين من الخلفاء العباسيين، وسوء استعمال السلطة من قِبَل الوزراء والولاة، فإنه لم يبق، قبيل منتصف القرن الرابع/العاشر للخلافة العباسية سوى الاسم. فالولايات البعيدة كانت، منذ زمن انسلخت عن السلطة المركزية وأصبحت خاضعة لأسر محلية. فأسس الأمير الأموي عبد الرحمن في سنة ١٣٩/٧٥٦ أسرة اقتطعت الأندلس من العباسيين الذين أزالوا أسرته في الشرق قبل ذلك بست سنوات. وفي المغرب أسس الأسرة الإدريسية في سنة ١٧٢/٧٨٨ أحد ذرية علي بعد فشل ثورة شيعية اشترك فيها في المدينة. وأقام بنو الأغلب حكمهم في أفريقيا (تونس) سنة ١٨٤/٨٠٠ استمر طيلة قرن إلى أن تغلب عليهم الفاطميون. أما مصر فقد استقل فيها الطولونيون سنة ٢٥٤/٨٦٨ وخلفهم في الحكم الأخشيديون وكلا الأسرتين امتدت سيطرتها إلى الشام والحجاز. وفي الشرق استولى على بلاد فارس والولايات الشرقية الطاهريون والصفاريون والسمانيون أثناء القرنين الثالث والرابع (التاسع والعاشر). لقد كافأ المأمون قائده طاهر بن الحسين الذي قاد قواته إلى النصر في حربه مع أخيه الأمين بأن أعطاه حكماً وراثياً في الشرق. وجاء المعتصم، خليفة المأمون، فأنشأ حرساً من الأتراك يوازن بهم قوة الطاهريين. ولم يمض وقت حتى أصبح الخلفاء سجناء حرسهم هذا.

ولما ازداد ضعف الخلفاء اقترب تسلط الأسر المحلية من مركز الخلافة. فأخضع البويهيون القسم الغربي من بلاد فارس. حتى العراق خرج عن سلطة الخليفة، فاستولى البريدي على جنوبه وحكم الحمدانيون الموصل والجزيرة.

في سنة ٣٢٤/٩٣٥ اكتمل تفكك الخلافة العباسية وحان الوقت لقيام القوة الجديدة المتمثلة بالفاطميين الذين بزغ نجمهم في الغرب.

الفصل الثالث

بداية الفاطميين

يرجع الخلفاء الفاطميون نسبهم إلى علي وفاطمة. ويتفق الفاطميون الاسماعليون مع غيرهم من الشيعة في تسلسل الإمامة من الحسين بن علي إلى ابنه علي زين العابدين ومنه إلى محمد الباقر وبعده جعفر الصادق المتوفي في سنة ١٤٨ / ٧٦٥.

ظهر الخلاف في صفوف الشيعة حول من يخلف جعفر الصادق في الإمامة. وكان الصادق نصّ على ابن اسماعيل الملقب بالوفي ليخلفه. ولكن اسماعيل توفي في حياة أبيه الذي لم يسمّ خلفاً له.

بعد وفاة جعفر الصادق انحازت الكثرة من الشيعة إلى ابنه موسى، ومنه تسلسل الائمة إلى محمد بن حسن العسكري الإمام الثاني عشر الذي غاب سنة ٢٦٠ / ٨٧٤. وتنتظر الشيعة الاثنا عشرية رجوعه.

أما الاسماعيلية فانهم يتمسكون بإمامة اسماعيل ويزعمون أنه نصّ على ابنه محمد إماماً من بعده وان جعفر الصادق رضي عن هذا التعيين.

غادر محمد بن اسماعيل، الإمام السابع[١]، المدينة متوجهاً إلى الشرق. وكان اشتد طلب العباسيين للعلويين المتطلعين إلى الخلافة مما اضطره

(١) يعتبر الشيعة الاثنا عشرية أن الامامة انتقلت من علي إلى ابنه الأكبر الحسن ومنه إلى الحسين. فجعفر الصادق هو الإمام السادس وليس الخامس كما في تسلسل الاسماعيلية.

وذريته إلى الاستتار بينما تابع دعاتهم عملهم في الخفاء.

في دور الستر كانت أماكن إقامة الأئمة مجهولة؛ حتى اسماؤهم أُخفيت الاّ عن أقرب أتباعهم إليهم. وبسبب السرية التي أحاطت تحركاتهم تضاربت الأقوال حول مكان وجودهم، وهذا الاضطراب انطبق على اسمائهم إذ اتخذ الأئمة أسماء مستعارة لتضليل عملاء العباسيين وأحياناً كان الداعي يتظاهر بأنه الإمام معرضاً حياته للخطر ليحمي سيده. ولم يذكر اسم الإمام للداخلين في الدعوة بل كان الداعي يأخذ العهد على المستجيب باسم إمام الزمان دون تسميته.

تختلف الروايات حول عدد الأئمة في دور الستر. إن الرواية التي نالت قبولاً واسعاً ووردت في مصادر موثوقة ترجع إلى زمن متقدم، جعلت الأئمة ثلاثة بين محمد بن اسماعيل وعبيد الله المهدي مؤسس الأسرة الفاطمية. غير أن هذه المصادر أبقت أسماء هؤلاء الثلاثة مكتومة عملاً بالاعتقاد الذي يوجب أن لا يكشف ما أمر الله بستره. فعند الكلام عن نسب الفاطميين يرد ذكر أسماء الأئمة من علي إلى محمد بن اسماعيل وبعده الأئمة المستورون دون تسميتهم ويتبع هؤلاء عبيد الله المهدي.

في غياب أسماء الأئمة المستورين أدخل أعداء الفاطميين أسماء زعموا أنها لأسلاف الفاطميين أحد هؤلاء السلف المزعومين عبد الله بن ميمون القداح الذي نسبوا إليه مؤامرة كبرى لهدم الإسلام. إن هذا الزعم مختلق، والمؤامرة لفقت للتشنيع على الفاطميين. فإن عبد الله ووالده ميمون كانا خادمين وفيين للإمام جعفر الصادق وابنه اسماعيل. كان عبد الله من رواة الحديث وقد ورد ذكره بين الرواة في مؤلفات للسنة والشيعة حيث لا تشكيك في صحة عقيدته وإن كان يعد من ضعاف الرواة[١].

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال، الجزء الثاني، ص ٨١.

لقد تعرض تاريخ الفاطميين للتشويه بسبب ضياع أو اخفاء المصادر الاسماعيلية – الفاطمية المعاصرة. وقد بدأت بعض هذه المصادر تظهر وتنتشر في الثلاثينات من هذا القرن.

فبانتهاء الدولة الفاطمية في سنة ٥٦٧ / ١١٧١ تلت ردة على كل ما كانت تمثله من آراء ومعتقدات. فأتلفت المكتبات الكبرى التي جمعها الفاطميون وتبددت محتوياتها. وضاعت مؤلفات المؤرخين الذين عاشوا في مصر الفاطمية ولم يبق منها سوى نبذ حوتها مؤلفات كتبت في عصور لاحقة، ووضعت كتب الغرض منها تجريح الفاطميين وتشويه سمعتهم فقد طُعِنوا في معتقداتهم وفي صحة نسبهم.

إن حكاية نسب الفاطميين القدّاحي ظهرت لأول مرة عند ابن رزام الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع / العاشر، وعنه نقل أخو محسن أحد الأشراف في دمشق في كتاب طعن في الفاطميين ألفه حوالى سنة ٣٧٢ / ٩٨٣. إن رواية أخي محسن عن ابن رزام التي نسبت الخلفاء الفاطميين إلى ميمون القداح وصوّرت الاسماعيلية بأنها حركة هدامة أسسها عبد الله بن ميمون القداح لتقويض الإسلام، هذه الرواية هي مصدر الفرية التي تناقلها المؤرخون فيما بعد دون تمحيص.

غير أن بعض المؤرخين الذين نقلوا رواية ابن رزام تنصلوا من العهدة في تصديقها. فابن النديم قال إنه أورد كلام ابن رزام بلفظه، وأضاف: «وأنا أبرأ من العهدة في الصدق عنه والكذب فيه»(١).

وابن حماد المؤرخ المغربي والذي لم يكن متعاطفاً مع الفاطميين قال: اختلف الناس في نسب عبيد الله إلى الحسين بن علي، فمن مسلّمين بما ادعاه ومقرّين بما حكاه ومن دافعين ومانعين ما انتحله. فالذي ادعاه هو أنه من

(١) ابن النديم، الفهرست. ص ٢٦٤.

ذرية علي، «والذي ادعاه الناس لا برهان عليه فلا حاجة لي إليه»(١).

أما مؤرخ الأيوبيين، ابن واصل، وتحيزه ضد الفاطميين واضح، فإنه أحال مسؤولية ما ذكره عن نسبهم «على أقوال المؤرخين»(٢).

وعن نسب الفاطميين ترددت حكاية هي من نسج الخيال. وهي أن الشريف عبد الله بن طباطبا. وكان بين الأشراف الذين خرجوا للقاء المعز عند قدومه إلى مصر، سأل المعز: إلى من ينتسب مولانا. فأجابه أن الرد سيأتيهم في مجلس يعقد في الغد. وفي اليوم التالي، في مجلس عام عقد في القصر، قال المعز، مستلاً سيفه: هذا نسبي: ثم نثر ذهبا كثيراً وقال: هذا حسبي. فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا. ان ابن طباطبا هذا توفي سنة ٣٤٨ / ٩٥٩، وكان قدوم المعز إلى مصر في سنة ٣٦٢ / ٩٧٢(٣).

لقد اعتمد صحة نسب الفاطميين العلوي المؤرخون الثلاثة الكبار. ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي. وكلهم يعزو الطعن في نسبهم إلى ضعف خلفاء بني العباس وعجزهم عن مقاومة الخلفاء الفاطميين الذين انتزعوا منهم مصر والشام والحجاز فأشاعوا تجريح نسبهم للغض من قدرهم.

يردد ابن الأثير أبياتاً من الشعر للشريف الرضي نقيب الأشراف في بغداد يتغنى فيها بابن عمه الخليفة الفاطمي في مصر. يقول الرضي:

ما مقامي على الهوان وعندي   مقولٌ صارم وانف حمي
البس الذل في بلاد الاعادي   وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي   إذا ضامني البعيد القصي

(١) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ٦.
(٢) ابن واصل، مفرج المكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الأول، ص ٢١١.
(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، الجزء الأول، ص ٢٦٠.

لف عرقي بعرقه سيدا الناس جميعاً محمد وعلي
إن ذلي بذلك الحي عز وأوامي بذلك الربع ري

لقد أغضبت هذه الأبيات الخليفة العباسي القادر فألحّ على والد الرضي أن يجبر ابنه على إنكارها، فكان أن تبرأ الرضي من الشعر لكنه أبى أن يوقع وثيقة تنفي النسب العلوي للفاطميين وذلك بالرغم من أمر الخليفة وضغط والده عليه[1].

في سنة ٤٠٣ / ١٠١١ كتب في بغداد محضر قدح في نسب الفاطميين أعلن فيه العباسيون للمرة الأولى انكارهم على الفاطميين انتسابهم إلى علي وفاطمة. إن ما حواه المحضر من الإقذاع في القدح لدليل على عجز خصوم الفاطميين الذين استعاضوا عن فقدان القوة باللجوء إلى السباب. في هذا الوقت كان قد مضى قرن ونيف على قيام الدولة الفاطمية التي امتدت من تونس إلى ديار بكر وشملت مكة والمدينة واليمن. وإلى جانب هذا الملك الواسع كان الفاطميون على رأس حركة دينية انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي. بينا كانت الخلافة العباسية قد انكمشت إلى داخل حدود العراق وفقد الخلفاء العباسيون كل سلطة.

بقي هذا المحضر مع رواية ابن رزام المصدر لما كتب في تجريح نسب الفاطميين.

إن المستشرقين من جيل سابق، وفي غياب المصادر الإسماعيلية التي لم تكن قد نشرت بعد، مالوا إلى قبول رواية أعداء الفاطميين. غير أن البارون دي ساسي أبا الدراسات العربية في أوربا قبل صحة استناد

(١) ابن الأثير، الجزء الثامن، ص ٢٤ – ٢٦.

الفاطميين في حقهم في الخلافة إلى انتسابهم إلى علي وفاطمة وعزا الشكوك التي أثيرت حول صحة هذا النسب إلى ضعف العباسيين وعجزهم أمام منافسين أقوياء[1].

أما المصادر الفاطمية فأقدمها يرجع إلى حوالى منتصف القرن الرابع / العاشر. فالقاضي النعمان ألّف كتاب افتتاح الدعوة في سنة ٣٤٦ / ٩٥٧. وكان النعمان دخل في خدمة عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين. وبقي في خدمة خلفائه في شمالي افريقية، ورافق المعز الى مصر. والنعمان هو صاحب المؤلّف الأساسي في الفقه الاسماعيلي ومؤسس أسرة من القضاة البارزين.

ومصدر آخر مقرب من الفاطميين هو جعفر الحاجب خادم المهدي الذي نشأ مع سيده منذ الصغر. يقول جعفر: تربيت معه أخدمه، فأدبني أحسن أدب. روى مذكراته محمد اليماني، خادم في البلاط، كما سمعها من جعفر نفسه ودونها في أيام العزيز بالله وبأمر من الخليفة[2].

وينسب إلى أحمد النيسابوري كتاب «استتار الإمام». والنيسابوري عاصر الخليفة المعز وكان من كبار الاسماعيلية. وفي رواية النيسابوري تظهر لأول مرة أسماء الأئمة المستورين[3].

كان محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق آخر الاسبوع الأول من الأئمة. وبابنه عبد الله الأكبر بدأ الاسبوع الثاني. عبد الله الملقب بالرضي نصّ على ابنه أحمد التقي خلفاً له. وأحمد نقل الإمامة من بعده إلى ابنه حسين

(١) S. de Sacy, Exposé de la Religion des Druzes, Vol I, Introduction, pp 66, n. 1, 247-252.

(٢) سيرة الحاجب جعفر. مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، سنة ١٩٣٦، ص ١٠٧ – ١٣٣.

(٣) أحمد بن محمد النيسابوري، استتار الإمام عبد الله بن محمد وتفرق الدعاة في الجزائر لطلبه، مجلة كلية الآداب، سنة ١٩٣٦، ص ٩٣ – ١٠٧.

الزكي وبه انتهى دور الستر. وبعبيد الله المهدي بدأ دور الظهور.

عبد الله الرضي، بعد تنقلاته في بلاد فارس والعراق، استقر في سلمية على حدود الصحراء شرقي حماه. وكانت سلمية مركزاً للتجارة مزدهراً يسكنها جماعة من أثرياء الهاشميين. وعُرِف الإمام الاسماعيلي كتاجر غني أحد الأشراف الهاشميين في المدينة.

في دور الستر كانت سلمية مركز الدعوة الاسماعيلية، فيها أقام الأئمة ومنها بثوا دعاتهم إلى جميع البلدان.

ومن الدعاة في كافة البلاد كانت الأموال والذخائر تحمل إلى المهدي في سلمية. كانت تصل سرًّا على جمال تفرغ حمولتها خارج المدينة في مكان يوصله نفق تحت الأرض بخزائن المهدي في سرداب تحت قصره. وقيل إن المهدي أكثر غنى من الخليفة نفسه وأنه سيد الشرق والغرب. وفي دور الستر انتشرت الدعوة في اليمن. وكان كبير الدعاة أبو الفرج ين حوشب، وقد لُقِّب بمنصور اليمن لما لاقته الدعوة من نجاح. ومن اليمن بعث ابن حوشب ابا عبد الله الشيعي إلى المغرب يمهد الطريق لقدوم المهدي.

في هذه الأثناء اشتد الخطر على المهدي وأهله لما كثر طلب العباسيين له، فرحل من سلمية مع والده القائم.

تختلف المصادر الاسماعيلية حول صلة المهدي بالإمام السابق له وبخلفه في الإمامة. فبعضهم يجعله إماماً مستودعاً للإمام الحقيقي أي محمد القائم. غير أن النيسابوري يقول إن المهدي هو ابن الحسين ثالث الأئمة المستورين وأنه أبو القائم الذي أصبح خليفة. وأن الحسين، قبل وفاته، عيّن أخاه سعيد الخير وصيًّا على ابنه المهدي الذي كان لا يزال طفلاً. وفيما بعد سلّم سعيد الخير الوديعة إلى صاحبها[١].

(١) في كتب مذهب الدروز أن المهدي كان وعاءً للدعوة الحقيقية، وأن الشيء المستودع فيه أخذه منه القائم.

وفي رواية جعفر الحاجب أن المهدي تزوج ابنة عمه والدة القائم في حياة الإمام الذي لم يذكر اسمه. والإشارة إلى الإمام ربما تعني الإمام المستودع عم المهدي الذي تزوج المهدي ابنته.

في سنة ٢٨٩ / ٩٠٢ شنّ القرامطة حربهم المدمرة على سورية. ووصل الأمر من بغداد إلى عامل سلمية أن يلقي القبض على المهدي الذي اتهم بصلته بالقرامطة. فبعث أتباع المهدي في بغداد رسالة على جناح الطير يحذرونه فيها، رحل على أثرها من سلمية، ومعه ولده محمد القائم وكان صبياً صغيراً، وبعض الحاشية بينهم جعفر الحاجب الذي روى أخبار الرحلة. ولما وصل القرامطة إلى سلمية ولم يجدوا المهدي فيها صبوا نقمتهم الرهيبة على أهل المدينة.

هذه الرحلة انتهت بالمهدي في افريقية حيث أنشأ الدولة الفاطمية، لكنه قال لمرافقيه إنهم في طريقهم إلى اليمن.

توجهوا إلى دمشق وغادروها مسرعين بعد أن علموا أن رسول الخليفة قادم على أثرهم. ساروا قاصدين طبرية فوجدوا الداعي في تلك الناحية بانتظارهم في الطريق، فأخبرهم أن الرسول إلى عامل دمشق في طلبهم وصل في اليوم الذي خرجوا فيه وأوصاهم أن لا ينزلوا في طبرية. فواصلوا سيرهم إلى الرملة حيث نزلوا عند عاملها. «وكان مأخوذاً عليه» أي كان ممن دخلوا في الدعوة. من الرملة تابعوا السفر إلى مصر وكان في استقبالهم الداعي المقيم هناك. وفي أعقابهم وصل رسول بغداد وكان لحق بهم في الرملة. في مصر أطلع المهدي رفاقه أنهم سائرون إلى المغرب. هنا انفصل فيروز الداعي الذي كان رافق المهدي من سلمية وذهب إلى اليمن حيث دبّر ثورة على ابن حوشب.

تجدد الإشارة إلى أنه كان للدعوة الاسماعيلية – الفاطمية دعاة

ومستجيبون في كل مكان: في دمشق وطبرية والرملة ومصر. وفي بغداد كانوا على صلة مع المقربين إلى الخليفة.

من مصر سار المهدي في زي تاجر برفقة قافلة متجهة إلى المغرب وفي الطريق سطا اللصوص على القافلة وفقد المهدي من جملة ما ضاع له الكتب التي تحوي علوم الأئمة آبائه. وقد استعيدت هذه الكتب بعد سنين في أولى غزوات القائم إلى مصر.

لاقوا مزيداً من المتاعب قبل نهاية المطاف، وقد عبروا طرابلس وتونس وفي أثرهم الرسل يتعقبونهم. وفي سجلماسة انكشف أمرهم وقبض على المهدي وولده.

كان أبو عبد الله الشيعي استمال القبائل إلى الدعوة فسار إلى سجلماسة، ولما اقترب منها هرب واليها، فدخلها أبو عبد الله وأخرج المهدي وولده من السجن وقال لمن معه: هذا هو مولاي ومولاكم.

من سجلماسة ساروا إلى رقادة، قرب القيروان، حيث دُعي للمهدي بالخلافة في ربيع الثاني سنة ٢٩٧ / ٩٠٩. وكانت البلاد معدّة لاستقبال الإمام بما مهّد له أبو عبد الله الشيعي الذي أرسله داعي اليمن إلى المغرب. وكان سبق أبا عبد الله داعيان قيل إن جعفر الصادق بعثهما وكان أبو عبد الله التقى أثناء الحج في مكة الحجاج المغاربة من قبيلة كتامة ورافقهم عند عودتهم قائلاً إنه يعلم الصبيان وأنه في طريقه إلى مصر. وفي الرحلة كان يحدثهم، وكان لكلامه وقع بالغ الأثر، وقد «سلبهم عقولهم بسحر بيانه»[1].

(١) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، ص ١٢٤ – ١٢٥.

فرغبوا إليه أن يصحبهم إلى بلادهم ويعلم صبيانهم. وكان يسألهم عن بلادهم وقبائلهم وعن طاعتهم إلى سلطان افريقية. ولما وصلوا إلى بلاد كتامة اجتهد أبو عبد الله في تعليم الأولاد، وكسب ثقة واحترام شيوخ القبيلة. ثم أظهر لهم حقيقة مجيئه وهي الدعوة للإمام من آل البيت. فدخلت كتامة وقبائل كثيرة في دعوة أبي عبد الله التي سموها التشريق نسبة إلى الداعي لها. الرجل من المشرق. فصيّر لهم أبو عبد الله ديواناً وألزمهم الجندية[1].

وكانت شمالي افريقية أرضاً صالحة لنشر المذاهب والفرق المنشقة. فهي بعيدة من مركز الخلافة. وسكانها من البربر في حالة اضطراب وقلق، فهم على استعداد للإصغاء إلى الثائرين على السلطة القائمة. وكان الإباضية، وهم فئة من الخوارج، قد انتشروا بينهم. فمبدأ الخوارج في المساواة بين الناس والعداء للأمويين كان الدافع لثورة البربر التي قادها ميسرة والتي بدأت في طنجة سنة ١٢٢ / ٧٤٠. وفي تاهرت انشئت دولة للخوارج هي الدولة الرستميّة.

وكان للعلويين أيضاً دولة هي الدولة الشريفية أو الادريسية في المغرب، أنشأها ادريس بن عبد الله الذي لجأ إلى المغرب على أثر فشل ثورة شيعية اشترك فيها في المدينة سنة ١٦٩ – ٧٨٥.

وكان في بلاد كتامة قوم من الشيعة، وهؤلاء أرادوا أن يقيم أبو عبد الله بينهم. لعلّ هؤلاء الشيعة هم الباطنيون الذين استجابوا للدعاة الذين أرسلهم الإمام جعفر الصادق[2].

أثناء السفر إلى المغرب كان أبو عبد الله الشيعي استفسر من رفاقه عن

(١) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، الجزء الأول، ص ١٢٧ – ١٢٨.
(٢) ابن خلدون، تاريخ، الجزء الرابع، ص ٣١.

بلادهم وأهلها وإذا كانوا يدينون بالولاء إلى صاحب افريقية (تونس) فأجابوا أن لا ولاء له عليهم وأن مسافة عشرة أيام تفصلهم عنه.

كان يحكم افريقية منذ سنة ١٨٤ / ٨٠٠ بنو الأغلب، آخرهم زيادة الله الذي انغمس في اللهو ساهياً عن شؤون البلاد. وكان بعض وزرائه من الشيعة الذين راقهم أن ينتصر أبو عبد الله[١]. ولما اقترب أبو عبد الله لاذ زيادة الله بالفرار.

إن عبيد الله المهدي، بعد مبايعته بالخلافة، باشر الأمور بنفسه مما لم يرق لأبي عبد الله الشيعي فأشار على الخليفة أن يترك له الأمور ويكون وادعاً في قصره. وحرضه أخوه أبو العباس، وكان ضعيف العقل، على العصيان. فقال لجماعة من كتامة ليس هذا المهدي الذي كنا ننتظره واتفقوا على قتل عبيد الله. ولما علم المهدي بالمؤامرة أمر بقتل أبي عبد الله وأخيه.

كان عبيد الله المهدي يتسم بالصفات التي يحتاج إليها مؤسس دولة. لقد كان حازماً وقت الشدة صارماً على الذين خرجوا عن الطاعة. وفي الوقت ذاته عمل على إرضاء مختلف فئات الشعب وبذلك هيأ قاعدة واسعة لحكمه. فعين شيوخ كتامة ولاة على الأقاليم الافريقية. وهكذا أبقى تحت سيطرته قبيلة كتامة وهي العمود الفقري للدولة. وكان عطوفاً على الشعب يجلس كل يوم لسماع حاجاتهم. وكان يشرف على سير القضاء بنفسه.

وعامل بكرم بقايا الحكام السابقين من بني الأغلب وأتباعهم، وأدخل بعضهم في خدمته. وكان متسامحاً في الدين حكيماً في أنه لم يتدخل في

(١) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني، ص ١٦١؛ ابن الأثير، الكامل، الجزء الثامن، ص ١٣ – ١٤؛ ابن عذاري، الجزء الأول ص ١٤١.

معتقدات أهل البلاد. وقد أمر دعاته أن يتجنبوا إرغام الناس على التشيّع.

بدأ عبيد الله المهدي حكم أسرة أنجبت في القرن الأول من حكمها ستة خلفاء تميزوا بقدرة وكفاءة عالية، قاموا بأعمال جليلة تحدوهم رؤيا باهرة هي إقامة، تحت رعايتهم بصفتهم من ذرية النبي، دولة تشمل العالم وتحقق الخير للناس أجمعين.

الفصل الرابع

الخلافة الفاطمية: الدولة

بعد الاستيلاء على شمالي افريقية بدأ دور توطيد سلطة الدولة على البلاد. وكان هذا أكثر صعوبة من الدور السابق الذي تمّ فيه وصول الفاطميين إلى الحكم بعد إزالة الولاة المحليين.

فمنذ البداية واجهت عبيد الله المهدي ثورات قبلية أسند إخضاعها إلى أبي القاسم محمد الذي أصبح فيما بعد الخليفة القائم. ولعل أفضل دليل على ما أولاه المهدي من اهتمام بقضية أمن الدولة والأسرة الفاطمية أنه بنى مدينة كانت بمثابة حصن سميت المهدية، أسست سنة ٣٠٠/٩١٢ وتم بناؤها سنة ٣٠٨ / ٩٢٠.

كان موقع المدينة في شبه جزيرة الحمى على الشاطىء التونسي مواتياً للدفاع، فلم يكن يتصل بالبر إلاّ من الجهة الغربية حيث أقيمت بروج وتحصينات دعمت الموقع الحصين بالطبيعة. وفي داخل المدينة حفرت اهراء للحنطة في الصخر وخزانات للمياه وأنشئت دار الصناعة لتلبي حاجات الاسطول الذي أصبح قوة يحسب حسابها في شرقي البحر الأبيض المتوسط. ويروى أن المهدي قال لما تمّ بناء المهدية: «اليوم أمنت على الفاطميات»[1].

(١) المقريزي. اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء ص ١٠٢؛ ابن حوقل، صورة الارض، الجزء الأول ص ٧١.

في سنة ٣٠٠ أعلن المهدي ابنه القائم خلفاً له. ونقل إليه ما يختص بالخليفة من الواجبات والامتيازات. «كان أبو القاسم يركب بالمظلة أيام أبيه وباسمه كانت تنفذ الكتب والعهود، واليه كانت ترفع المسائل وعليه تفد الوفود»[1].

إن الحروب وإخماد الثورات شغلت القائم قبل توليه الخلافة وبعد أن أصبح خليفة. فكثيراً ما كان في الميدان على رأس قوات أخمدت ثورات في طرابلس شرقاً وفي المغرب. كما قاد ثلاث غزوات إلى مصر، الأولى في سنة ٣٠١ / ٩٠٣، والثانية سنة ٣٠٧ / ٩١٩، والثالثة سنة ٣٢٢ / ٩٣٤ وفي أيامه فتح كثير من موانئ الروم في صقلية[2].

كان القائم ممن شيدوا المدن شأنه في ذلك شأن أبيه المهدي وابنه المنصور. فبعد عودته من غزوة في المغرب أعاد بناء المسيلة وحصنها وأطلق عليها اسمه وكبرت المحمدية وأصبحت مدينة هامة ومزدهرة. وأمر القائم أن تدخر فيها المؤن لتستخدم في أوقات الأزمات[3].

ومن أخطر ما واجه القائم من الأزمات، والتي كادت تودي بالخلافة الفاطمية، ثورة الخارجي أبي يزيد بن مقلد بن كيداد من قبيلة زناته الذي نزل من جبال الأوراس على رأس الاباضية، الفرقة التي كانت دوماً ثائرة على السلطة القائمة. واستولى أبو يزيد على المدن والحصون وعاث في الريف. وانضم إليه كثيرون طمعاً فيما جلبته غزواته من غنائم[4].

(١) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد ص ١٤.
(٢) ابن عذاري المراكشي، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، ص ٢٠٩.
(٣) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، ص ١٢ – ١٥؛ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، الجزء الأول ص ١٦٨ – ٢٠٩.
(٤) ابن عذاري، الجزء الأول ص ٢١٦ – ٢١٨؛ ابن الأثير، الكامل، الجزء الثاني ٤٢٦ – ٤٣٠.

توفي القائم في سنة ٣٣٤ / ٩٤٥ م السنة الثانية لثورة أبي يزيد. وواصل ابنـه المنصور الحرب. وفيها أدت المحمدية الدور الذي رآه لها القائم، فإنها قامت بتموين القوات المقاتلة في منطقة، بالقرب من جبال كتامة، حيث لا يوجد مدينة سواها.

في سنة ٣٣٦ / ٩٤٧ تم الانتصار على أبي يزيد بعد معارك طاحنة تشع من خلالها شجاعة المنصور على صفحات التاريخ. فقد قاتل المنصور بحماس وعزيمة أملاها الإحساس بأن له رسالة. وفي صلاة رفعها المنصور وهو مجاهد لأبي يزيد تعبير عن هذه الرسالة: « اللهم إنك تعلم أني سلالة نبيك وابن رسولك. اللهم إني بذلت مهجتي ونفسي في سبيلك مجاهداً لعدوك طالباً لثأر نبيك وابتغاء مرضاتك حتى تُعبد في الأرض حق عبادتك ويحكم فيها بحكمك، أنك أهل المنّ والطول »[1].

وأمر المنصور بإعادة بناء صبرا بالقرب من القيروان في المكان الذي انهزم فيه أبو يزيد وسماها المنصورية واستوطنها.

كان المنصور حاكماً حكيماً إلى جانب كونه مقاتلاً شجاعاً. فقد صفح عن الثائرين وأطلق جميع المخلدين في السجون. وواظب جاهداً على القيام بواجبات منصبه وبذلك ترك لخليفته دولة آمنة ومستقرة.

وكان ابنه وخليفته المعز يقدس ذكراه كما نرى مما قاله للقاضي النعمان، فقد وصفه بأنه « تاج آل محمد ﷺ وزينتهم وجمالهم وواحدهم علماً

---

(١) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، ص ٢٢ - ٢٣؛ وكتب المنصور من ميدان الحرب إلى أبيه يبثه الشوق ويقول:

أجوب القفـــار وأطوي الرمـــال   واحمل نفسي عـــلى كـــل هـول
أريـــد بـــذاك رضـــاء الالـــه   وإعزاز دولـــــــة آل الرسول

سيرة الأستاذ جوذر ص ٥٠

وورعاً وزهداً ومجالاً ونزاهة وإقداماً ». وقال: « ما تمتع من الدنيا بما يتمتع به من يملك مائة دينار فما دونها وقاسى من الحروب والتعب والنصب ما على الله ثوابه، ونحن اليوم ننقلب في النعم ونمسي ونصبح في الدعة والأمن واستقامة الأمور لنا »[1].

في خلافة المعز تم فتح شمال افريقية، فأخضع المنشقون والثائرون في جبال الأوراس. وبانتصارات القائد جوهر الذي اشتهر فيما بعد بفتحه لمصر، وصلت الدولة الفاطمية إلى شاطىء البحر المحيط، ودخل المغرب الأقصى كله، ما عدا طنجة وسبته، في السيادة الفاطمية بعد سقوط فاس في سنة ٣٤٩/ ٩٦٠. وتقدم المعز إلى نوابه بالإحسان الى البربر، فشملهم إحسانه وعظم أمره.

ولم تستأثر الحروب وحدها بنشاط الفاطميين في شمال افريقية. ففي زمن السلم ازدهرت البلاد، فنمت الزراعة ونشطت التجارة مع بلدان البحر الأبيض المتوسط وانهمرت الهبات والتبرعات من المستجيبين للدعوة في كافة الأنحاء.

وقد أشرك الخليفة الشعب في هذا المال كما جرى بمناسبة ختان أولاده. فقد أمر المعز أن تنشر في العاصمة ومدن الأقاليم، في الريف والبدو، في أرجاء المملكة وفي جزيرة صقلية، وهي آنئذ تابعة للفاطميين، الدعوة للناس أجمعين، الرفيع والوضيع، الدني والشريف، ليحضروا أولادهم للختان في مهرجان عام طيلة شهر ربيع الأول سنة ٣٥١/ ٩٦٢. وأرسلت مقادير كبيرة من الذهب إلى الأقاليم وأحمال من الثياب وهدايا غيرها لتوزع على الأولاد وذويهم. فحُمل إلى صقلية خمسون حملاً من الدنانير في كل حمل عشرة آلاف دينار، ومثل ذلك إلى كل عامل من عمال المملكة

---

(١) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، الجزء الحادي والعشرون.

ليفرق على أهل عمله. وكان المعز يجلس في السرادقات في ساحة القصر ينظر إلى الصبيـان يمرون بين يديه مع أمهاتهم وآبائهم وعبيدهم، لا فرق بين العبد والحر والشريف والمشروف. «ودخلت المسرة على أهل كل بيت منهم». ومما يظهر عطف المعز على الرعية قوله: «لقد ساءني من رأيته يمر بي من أهل الفقر والمسكنة وإن كانوا قليلاً في كثير لأنهم رعيتنا وممن نحب أن يكونوا أغنياء فيظهر نعمة الله ع.ج عليهم بنا»[1].

وباستتباب الحكم في شمال افريقية أمكن للمعز أن يتطلع إلى المشرق لكي يحقق حلم الفاطميين في توحيد العالم الإسلامي في ظل آل البيت. ففي سنة ٣٥٨ / ٩٦٩ بعث جوهراً إلى مصر على رأس جيش عظيم وأغدق له المال. وكان سبق سفر جوهر حملة دعاية. ففي مصر كما في غيرها من البلدان كان للفاطميين دعاة فنشروا مذهبهم واستمالوا الناس إلى دعوتهم.

وكانت مصر تمر بأزمة سياسية واقتصادية سبقتها فترة من الرخاء واستقرار الحكم في عهد الطولونيين والسنين الأولى للاخشيديين وهما أسرتان استقلتا بالحكم وإن أقرتا اسمياً بالسيادة العباسية. ولكن الحروب مع القرامطة انهكت البلاد إذ جردت الحملات من مصر لقتالهم.

وفي العقـدين السابقين لدخول الفاطميين إلى مصر مرّت بالبلاد سنون عجاف سببها انخفاض مياه النيل. فارتفع السعر وتعذر وجود الأقوات. وفي سنة ٣٥٢ / ٩٦٣ بدأت تسع سنين متتالية من الشح والغلاء رافقها اضطراب وفتن عطلت الأعمال. فنهبت القرى والغلات والأسواق، وماج سكان مصر القديمة واقتتلت جماعات من الجيش بعضها مع بعض[2].

---

(١) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، الجزء السابع والعشرون.

(٢) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ١١ - ١٤؛ يحيى بن سعيد الانطاكي. تاريخ ص ١١٤.

في هذه الحال كتب جماعة من وجوه الجند والأعيان إلى المعز يطلبون انفاذ العسكر ليسلموا له مصر.

هذا الوضع المضطرب عبّر عنه البيان الذي تلاه جوهر عند دخوله إلى مصر، وفيه يذكر ما أصاب الناس من الذل وسوء الحال، وعزم الخليفة الفاطمي على إزالة الضيم عنهم وإصلاح حالهم. فإن أمير المؤمنين المعز لدين الله أراد باخراج هذه الجيوش الإمامية إعزازهم وحمايتهم والجهاد عنهم. ومن عهد الخليفة لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ونشر العدل وبسط الحق ورفع الظلم والمساواة في الحق. ووعد بتأمين الطرقات وإقامة الحج الذي كان تعطل للخوف المستولي على الناس من فقدان الأمـن. وفي البيان طمأنة لجميع الناس على حرية معتقداتهم وأداء فروضهم على عادتهم[1].

دخل جوهر الفسطاط في شعبان سنة ٣٥٨ / يوليو سنة ٩٦٩. وفي الغد وضع حجر الأساس لمدينة القاهرة لتكون مقراً لجنوده فإنه منعهم من الإقامة في الفسطاط. وبعد سنة، في ٢٤ جادى الأولى سنة ٣٥٩ / ٤ ابريل سنة ٩٧٠ وضع حجر الأساس للجامع الأزهر، الذي كان في زمن الفاطميين مركزاً لنشر دعوتهم وإعداد دعاتهم، وقد بقي إلى اليوم أقدم جامعة في العالم.

حكم جوهر مصر مدة أربع سنوات بينما بقي المعز في المغرب، وكان عادلاً في حكمه محسناً إلى الناس[2]. فوطد الأمن بعد الفوضى وأنعش الريف ونظم إدارة الأموال وأعاد الازدهار إلى البلاد وأدخل الحجاز في الدولة الفاطمية، لكنه لما حاول ضم سورية اصطدم بالقرامطة.

---

(١) ابن حماد، أخبار ملوك بن عبيد، ص ٤١ - ٤٤.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، الجزء الأول، ص ١١٨ - ١٢٠.

حضر المعز إلى مصر في شعبان سنة ٣٦٢ / ٩٧٣ ودخل الاسكندرية حيث خرج أعيان المدينة للقائه. فتحدث إليهم طويلاً ولم يخاطبهم كفاتح بل كلمهم كلام من يحمل رسالة قائلاً: « إن قصده القصد المبارك من إقامة الجهاد والحق وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة وأن يعمل ما أمره به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1].

جعل المعز عاصمته القاهرة، المدينة التي بناها جوهر إلى شمال شرقي الفسطاط التي كان بناها عمرو بن العاص عند فتح مصر سنة ٢٢ / ٦٤٣. وأصبحت القاهرة اولى مدن العالم الإسلامي واستمرت كذلك زهاء قرنين من الزمن كانت الدولة الفاطمية في معظم تلك الفترة قوية ومزدهرة وكانت القاهرة مركز علم وحضارة زاهرة.

كان الفاطميون دوماً ينظرون إلى وجودهم في المغرب بأنه موطىء قدم يمكنهم من فتح مصر، ولهذا الغرض جردت الحملات الثلاث في أيام الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي. وكان الاستيلاء على مصر ذاتها المدخل إلى بسط سيطرة الفاطميين على سورية. ومن سورية تصبح الطريق ممهدة إلى بغداد والقضاء على الخلافة العباسية.

ومن الطريف أن المعز، وهو في الطريق إلى بسكرة في الجزائر، بعث إلى جوذر أحد موظفي القصر المقربين، بخمسة دنانير ضربت بمصر باسم المعز وتمنى لجوذر أن يمد الله بعمره « حتى يحج معنا ونعطيه مما يضرب لنا ببغداد، وقد أكمل الله لنا الآمال »[2].

وردد المعز تطلعه إلى الاستيلاء على بغداد إلى رسول ملك الروم الذي كان يأتيه إلى المغرب، ولما جاءه إلى مصر قال له المعز: « أتذكر إذ أتيتني

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، ص ٧٢.

(٢) سيرة الاستاذ جوذر، ص ١١١.

رسولاً وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن علي وأنا بمصر مالكاً لها. قال نعم. قال وأنا أقول لك: لتدخلن علي ببغداد وأنا خليفة »[1].

وإنا لنجد صدى هذا التطلع في شعر ابن هاني الأندلسي شاعر البلاط الفاطمي. قال ابن هاني مخاطباً المعز:

فإلى العراق وذر لمن قدّمته   مصرا فهذا ملك مصر قد صفا

ويرى ابن هاني نفسه واقفاً أمام المعز في بغداد فيقول:

وخطبت بالزوراء أخرى مثلها   ووقفت بين يديك هذا الموقفا

اعتبر الفاطميون أن لهم وحدهم الحق في الخلافة والإمامة بصفتهم حملة رسالة اتصلت بهم عن النبي، وأن الله اختارهم للحكم في الأرض. إن يقينهم بحقهم الآلهي يظهر جلياً في رسالة بعث بها المعز إلى ملك الروم. وكان الباعث على الرسالة غزو الروم لجزيرة اقريطش في سنة ٣٥٠ / ٩٦١ وطلب أهل الجزيرة العون من المعز. كانت الجزيرة تابعة للعباسيين، لكنه لما لم يكن يرجى العون من تلك الجهة فقد تطلعوا إلى الخليفة الفاطمي في شمالي افريقية.

وكان بين المعز والروم هدنة لخمس سنوات ولم تكن مدتها قد انقضت بعد. فهدد المعز بالغاء الهدنة إذا لم يقلع الملك عن حرب أهل اقريطش وحذره أن لا يظن بأنه سيترك وشأنه في الجزيرة لأن دعوة أهلها لغير الفاطميين. ومضى قائلاً: « فاقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا بما خولنا الله منها وأقامنا له فيها أطاعنا منها من أطاعنا وعصانا من عصى وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك... إن ذلك لله

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ. الجزء الثامن، ص ٣٦٣ – ٣٦٥؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوط جامعة القاهرة.

الذي له ما في السموات والأرض هو الذي اصطفانا ومكنا وأعطانا »[١].

إن الجهاد في عقيدة الفاطميين من أركان الدين. وقد وجد الفاطميون في سورية حيث توالت غزوات الروم ميداناً واسعاً للجهاد.

كانت سورية في منتصف القرن الرابع / العاشر بلاداً مجزأة. فالحمدانيون في حلب، وأشهرهم سيف الدولة الذي خلّده المتنبي في شعره لقتاله الروم. غير أن حروب سيف الدولة كانت في الحقيقة غارات إلى بلاد الروم لم تسفر عن مكاسب دائمة، بل نتج عنها هجوم مضاد أخضع حلب وانطاكية إلى دويلات تابعة للروم. وكان في دمشق بقايا الاخشيديين. وقد قضى الفاطميون على حكمهم في مصر، فتحالفوا مع القرامطة الذين أصبحوا أعداء الفاطميين. وفي سورية الوسطى والجنوبية كانت القبائل في اضطراب دائم. وهكذا فلم يكن في سورية قوة قادرة على صد غارات الروم.

ولم يكن هناك ما يرجى من الخليفة العباسي في بغداد. ففي سنة ٣٦١ / ٩٧١ تقدمت عساكر الروم إلى ديار بكر وديار ربيعة فقتلوا وسبوا وخربوا البلاد، فسار جماعة من أهل تلك المناطق إلى بغداد واستنفروا الناس في الجوامع والأسواق وحكوا ما حلّ بهم من دمار، محذرين أن الطريق إلى بغداد أصبحت مفتوحة أمام جيش الروم. فتجمع معهم خلق من أهل بغداد وساروا إلى دار الخليفة واسمعوه ما كره لعجزه عما أوجبه الله على الأئمة. ولم يكن للمطيع حول ولا قوة. أما الحاكم الحقيقي، عز الدولة بختيار البويهي فكان غائباً في رحلة صيد[٢].

(١) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، الجزء الحادي والعشرون.
(٢) مسكويه، تجارب الأمم. الجزء الثاني، ص ٣٠٣ - ٣٠٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، ص ٦١٨.

ولما كان هذا هو الحال فإن الروم اجتاحوا سورية بلا رادع فاستولى نقفور فوقاس في الحملة التي قادها سنة ٣٥٨ / ٩٦٨ على ثماني عشرة مدينة وبلدة في شمالي البلاد ووسطها وعلى الساحل، ودمّر وأحرق عدداً لا يحصى من القرى وخرب الريف وقتل وسبى ما لا يحيط بعدده إلاّ الله. « حتى كانت غزواته قد صارت كالنزهة له ولأصحابه لأنه لم يكن يتصدى لهم أحد ». ولم يشك أحد أن سورية كلها ومعها ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر تحصل في يديه، كما قال يحيى بن سعيد الانطاكي الذي عاش في السنين التي تلت مباشرة هذه الأحداث[١]. وجاء مثل هذا الكلام في رواية ابن الأثير لغزوات نقفور، إذ قال إن المسلمين هابوه ولم يشكوا في أنه يملك جميع الشام والجزيرة وديار بكر لخلو الجميع من مانع. وعزا ابن الأثير ما أصاب البلاد لقصور الحكام، فقال: « وتمّ له ما أراد باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض. فدوّخ البلاد »[٢] أما ابن حوقل فكان أشد قسوة في إدانته الحكام[٣].

انتفخ نقفور غروراً لما أحرزه من انتصارات، فبعث إلى المطيع رسالة ملأى بعبارات التحقير والتهديد للخليفة العباسي. رأى ملك الروم نفسه وقد أخضع العالم الإسلامي كله من مصر إلى خراسان، وقد استولى على القدس وبغداد، وسار بجيوشه الظافرة إلى مكة. إن المطيع وإن عجز عن الحرب فردّه على نقفور اتسم بالنبل والوقار[٤].

استغل الفاطميون هذه الحملات للدلالة على أنهم وحدهم قادرون على صد الروم. ومما أيّد مصداقية هذا الادعاء الانتصار الذي أحرزه

(١) يحيى بن سعيد الانطاكي، تاريخ: ١٢٧ - ١٢٨.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، ص ٥٩٦، ٥٩٧، ٦٠٧.
(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، الجزء الأول، ص ١٨٠.
(٤) J. Schlumberger, Un Empereur Byzantin au Dixième Siècle, Nicéphore Phocas, pp 326-431.

الفاطميون في ذلك الحين على الروم في جزيرة صقلية[1].

لما اشتد أمر الروم في البلاد الشامية كان من جملة ما أعدّه الفاطميون لقتالهم إنشاء اسطول قوي. فمنذ قدوم المعز إلى مصر بدأ العمل في بناء المراكب الحربية، واستمر خلفاؤه يولون الاسطول اهتمامهم فبنيت مراكب من شتى الأحجام ولكافة الأغراض الحربية في دور الصناعة في مدينة مصر والاسكندرية ودمياط. ووزعت الاقطاعات على قادة الاسطول. وتلقى الرجال مرتبات شهرية منتظمة وجرايات.

وكان هناك إدارة خاصة بالبحرية تدعى ديوان الجهاد أو ديوان العمائر موكلة ببناء السفن ورعاية القائمين عليها. وبلغ من اهتمام الخليفة بالأسطول أنه كان يحضر ليشاهد إقلاع المراكب وعودتها من الغزوات، وذلك من المنظرة التي بنيت لهذا الغرض على النيل قريباً من دار الصناعة بالمقس خارج القاهرة[2].

استولى الفاطميون على جنوبي سورية بعيد دخولهم إلى مصر. وفي سنة ٣٦٠ / ٩٧١ جمع جعفر بن فلاح، نائب جوهر في دمشق، جيشاً من أعمال دمشق وطبرية وفلسطين وأمر معاونه فتوحاً أن يسير على رأس هذا الجيش لاستعادة انطاكية التي كانت سقطت في أيدي الروم قبل سنتين. حاصر فتوح انطاكية في الشتاء، وكانت تصله تباعاً، وهو مقيم على الحصار، تعزيزات بعثها إليه ابن فلاح. في هذه الأثناء وصل إلى دمشق خبر مسير القرامطة إلى سورية. وكانوا تحالفوا مع العباسيين في بغداد والحمدانيين في حلب مما اضطر ابن فلاح أن يستدعي فتوحاً والعسكر فانصرفوا عن أنطاكية.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، ص ٥٤٣، ٥٥٦ - ٥٥٨.

(٢) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني، ص ٣٦٨، والجزء الثالث، ص ٣١٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى. الجزء الثالث، ص ٤٩٦.

لقد كثرت البلبلة حول علاقة الفاطميين بالقرامطة. فأعداء الفاطميين اعتبروهم والقرامطة سواء بسواء، واستعملوا كلمة قرمطي بمعنى يحمل الاستنكار. غير أنه يجب أن لا ينظر إلى القرامطة وكأنهم حركة موحدة، بل كلمة قرمطي أطلقت على جماعات منشقة ظهرت هنا وهناك ولم تكن بالضرورة متصلة بعضها ببعض.

رأينا فيما مرّ أن حمدان قرمط الذي عنه أخذت الحركة اسمها، دخل الدعوة على يد داعٍ من سلمية، مقر الإمام المستور، وقد يكون الداعي هو الإمام نفسه الذي كان ينتقل متخفياً إلى أحد مراكز الدعوة في جنوبي العراق.

في سنة ٢٨٦ / ٨٩٩، وقبل رحيل عبيد الله المهدي إلى المغرب، حدث انشقاق في الدعوة حين نبذ حمدان قرمط ورفيقه عبدان ولاءهما للإمام ربما بسبب خلاف حول العقيدة. وبقي على ولائه للمهدي زكرويه وأولاده وهم دعاة في العراق أيضاً، ولكن ظهر بعد قليل أنهم يعملون لأغراضهم الخاصة، فشنوا حملات مدمرة على سورية إلى أن أوقع بهم جيش الخليفة العباسي هزيمة تشتتوا بعدها في الصحراء.

أما قرامطة البحرين، وإن مالوا إلى جانب عبدان في الخلاف مع الإمام في سلمية، فإنهم لم يقطعوا صلتهم بالفاطميين. لقد كان الخلاف بينهم حول شخصية الإمام. فعبيد الله وخلفاؤه ذهبوا إلى القول بإمام ظاهر وقائم على رأس الدعوة بينما بقي قرامطة البحرين على ولائهم للإمام الغائب والمنتظر ظهوره قريباً. وقد أقاموا خزينة الإمام وخصّوها بجزء من عائداتهم.

هناك دلائل تشير إلى علاقات بين الفاطميين في شمالي افريقيا والقرامطة في البحرين. إلاّ أن هذه العلاقات لم تصل إلى حد التوافق في

تحركات كلا الفريقين، كما اعتقد بعض المستشرقين مثل دي غويه. فلم يكن هناك صلة بين الحملات التي شنها القرامطة على العباسيين وحروب الفاطميين في المغرب. فلما جرد الفاطميون حملاتهم على مصر في العقد الأول من القرن الرابع لم يحرك القرامطة ساكناً، إذ كان هذا هو العقد الذي تولى فيه الوزارة في بغداد علي بن عيسى فأحسن معاملتهم وبذلك التزموا السكينة. وحين عاد القرامطة إلى الحرب كان الفاطميون منهمكين بتوطيد فتوحاتهم وتأمين سيطرتهم في المغرب.

اشترك الفاطميون والقرامطة إلى حين في العداء للعباسيين. فبينما كان أبو الساج يحارب القرامطة في سنة ٣١٥ / ٩٢٧ كان أحد أتباع المهدي في بغداد يكاتب أبا طاهر. ولما أحضر أمام الوزير بتهمة تسريب الأخبار إلى الزعيم القرمطي اعترف بجرأة وأعلن ولاءه للمهدي في المغرب. ولما هاجم أبو طاهر جنوبي العراق في سنة ٣١٦ كان أحد قادته داعية للمهدي.

ولما وقع خلاف بعد موت أبي طاهر في سنة ٣٣٢ / ٩٤٣ حول الزعامة بين أنصار أخيه أحمد وابنه سابور وطلب سابور وجماعته العون من القائم الخليفة الفاطمي الثاني، حكم القائم بتثبيت أحمد في الزعامة على أن يخلفه سابور[1].

غير أنه ما كان لبعض أعمال القرامطة الرهيبة إلاّ أن تكون بغيضة لدى الفاطميين الذين تطلعوا إلى الفوز برضى المسلمين بزعامتهم والذين عُرفوا بتسامحهم الديني. ولقد أثار هجوم أبي طاهر على مكة في سنة ٣١٧ / ٩٢٩ سخط المهدي فبعث إليه رسالة ينكر عليه فعله قائلاً: « قد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والزندقة والالحاد بفعالك

(١) مسكويه، تجارب الأمم، الجزء الأول، ص ١٨١، ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة ص ٥٣. ابن خلدون، تاريخ ١ الجزء الرابع، ص ٩٠.

الشنيعة هذه ». وأمره أن يعيد الحجر الأسود إلى مكانه وإلى الحجاج ما نهب منهم، ويقول: « وإن لم تفعل ما آمرك به لا يكن بيني وبينك إلاّ السيف والبراءة منك يا عدو الله والناس أجمعين »[1]. ولم يذعن أبو طاهر لأمر المهدي بإعادة الحجر الأسود الذي اقتلعه القرامطة من الكعبة، وبقي عندهم إلى سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ حين أعاده ابن سنبر أحد أفراد الفئة الحاكمة في البحرين. ولما وضعه في مكانه قال: « أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئته »[2].

قبل أن ينتقل الفاطميون من شمال افريقية إلى مصر كانت العلاقات بينهم وبين القرامطة قد ساءت. وهذا واضح من رسالة جوهر إلى أهل مصر يعدهم فيها بانقاذهم من بغي القرامطة وفسادهم في الأرض. وأملت الحاجة للدفاع ضد القرامطة اختيار جوهر لموقع القاهرة، فإنه قصد باختطاط القاهرة حيث هي أن تصير حصناً بين القرامطة وبين مدينة مصر. وزاد في تحصينات القاهرة بحفر خندق إلى الشمال من حيث ينتظر قدوم القرامطة[3].

كان القرامطة عقبة كبرى في طريق بسط الفاطميين سيطرتهم على سورية. وكانوا لسنين مضت قبل استيلاء الفاطميين على جنوبي سورية في سنة ٣٥٩ / ٩٧٠ يتعاملون مع العباسيين والبويهيين والحمدانيين.

وفي سنة ٣٥٣ / ٩٦٤ لما كان القرامطة يستعدون لغزو فلسطين استهدوا من سيف الدولة حديداً لصنع الأسلحة، فقلع أبواب الرقة وهي من حديد وأخذ الحديد من ديار مضر حتى أنه أخذ سنجات الباعة

(١) ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة، ص ٥٤ – ٥٥.
(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفاء.
(٣) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني. ص ١٧٩.

والبقالين وحمله في الفرات إلى هيث ومنها أرسل في البرية[١].

وفي حملتهم على سورية في سنة ٣٦٠ / ٩٧١ طلب القرامطة العون من عز الدين بختيار البويهي في بغداد فأمدهم بالمال والرجال والسلاح. فهزموا جعفر بن فلاح عامل الفاطميين في دمشق ورفعوا السواد شعار العباسيين. ثم تابعوا سيرهم جنوباً واستولوا على الرملة وساروا قاصدين مصر ولكنهم صُدوا عند عين شمس خارج القاهرة.

لما قدم المعز إلى القاهرة كتب إلى الحسن الأعصم، قائد حملات القرامطة، رسالة يثني فيها على أسلافه ويوبخه على تنكره لما كانوا عليه من ولاء ويدعوه للعودة لسلوك طريقهم[٢]. فردّ القرمطي رداً متعجرفاً وظهر على أثره على أبواب القاهرة. وهناك انفصل عنه حسان بن الجراح وقبيلته بنو طي الذين استمالهم المعز بالمال فانهزم الأعصم وتراجع القرامطة إلى الصحراء وعاد الفاطميون إلى دمشق.

حاول العزيز بالله، وقد خلف أباه المعز، أن يستميل البويهيين الشيعة أصحاب السلطة الفعلية في العراق. فبعث في سنة ٣٦٩ / ٩٧٩ رسولاً إلى بغداد ومعه كتاب إلى الأمير البويهي عضد الدولة أبي شجاع أعرب فيه عن سروره لما نقله إليه رسول عضد الدولة من الولاء والمحبة لأمير المؤمنين ولآبائه الهادين المهديين. فكتب إليه عضد الدولة كتاباً يعترف فيه بفضل أهل البيت ويقر للعزيز أنه من أهل تلك النبعة الطاهرة ويخاطبه بالحضرة الشريفة وأنه في طاعته. لقد تعجب المؤرخ ابن تغري بردي من تصرف عضد الدولة وله أمر الخليفة العباسي، فقال: « وما أظن عضد الدولة كتب

(١) مسكويه، تجارب الأمم، الجزء الثاني، ص ٢٠٣.
(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ص ٢٥١ – ٢٦٥.

له ذلك إلاّ عجزاً عن مقاومته، فإنه قرأ كتابه في حضرة الخليفة الطائع، وأجاب بذلك أيضاً بعلمه، فهذا من العجب »[١].

غير أن هذه المراسلات لم تسفر عن شيء ملموس. وربما ظن الفاطميون أن التشيع المشترك بينهم وبين البويهيين، قد يحدو بهؤلاء للانضمام إلى صفهم. إلاّ أن البويهيين، مثلهم في ذلك مثل الحمدانيين الشيعة والقرامطة، كانوا أكثر حرصاً على مصالحهم الخاصة منهم على عقيدة مشتركة، فالقرامطة الذين كانوا في بادىء الأمر من الاسماعيلية انقلبوا على الفاطميين. ففي سنة ٣٦٠ / ٩٧٠ أقام القرامطة الدعوة للخليفة العباسي المطيع في كل فتح فتحوه وسوّدوا أعلامهم، وقالوا: « لو فطنا لما فطن له ابن بويه الديلمي لاستقامت أمورنا، وذلك أنه ترك المذاهب جانباً وطلب الغلبة والملك فأطاعه الناس »[٢].

لقد أولى الفاطميون أكبر قدر من الاهتمام لتوطيد حكمهم في سورية. فإن بلاد الشام بوابة العراق وفي السيطرة عليها تصبح الطريق مفتوحة إلى بغداد ومنها شرقاً إلى خراسان وما يليها. هذا إلى جانب أن سورية ميدان الجهاد ضد الروم. فقد كان من أهداف بعثة العزيز إلى عضد الدولة توحيد الإسلام في مواجهة قوة الروم. ففي رسالته أعاد الخليفة الفاطمي إلى الأذهان ما حلّ بالعواصم وما لاقته سورية من الدمار ودعا الأمير البويهي أن يتأهب للجهاد في سبيل الله.

واصل الروم حملاتهم على سورية، فحملة يانيس الشمشقيف في سنة ٣٦٥ / ٩٧٥ كررت غزوات سلفه نقفور. سار يانيس على منبج وأفامية وحمص وبعلبك دون أن يلاقي مقاومة تذكر. ولم يدخل دمشق لأن

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، ص ١٢٤ – ١٢٥.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الجزء السادس، ص ٢٢٤.

صاحبها افتكين حمل إتاوة انقذت المدينة. فسار عنها إلى الجليل ونزل إلى قيسرية ومنها اتجه شمالاً على الساحل فأخضع المدن الساحلية حتى وصل إلى طرابلس فحاصرها. ولقي الحصار الذي دام أربعين يوماً مقاومة عنيدة من الحامية الفاطمية المتمركزة هناك. فاستبسال الحامية وتحصينات المدينة المنيعة اضطر يانيس أن يرفع الحصار ويرحل. إن تراجعه أمام طرابلس أفسد عليه خطته لغزو فلسطين فقد كتب يانيس أنه لولا فشله أمام طرابلس لكان دخل القدس وصلى في الأماكن المقدسة[١].

واجه الفاطميون في سورية متاعب من مصادر متعددة. من القبائل المتسمة بالفوضى وخاصة بنو طي، ومن القرامطة الذين كانوا يعودون إلى الظهور بين حين وآخر ومن ولاة وقادة خارجين عن الطاعة.

وفي دمشق نفر السكان من حكم الفاطميين بسبب شغب القوات المغربية وسوء تصرف المسؤولين، وسادت الفوضى. واتفق أن وصل إلى أبواب دمشق أفتكين التركي الذي غادر بغداد ومعه أتباعه بعد قتال بين الأتراك والديلم. فخرج إليه أعيان دمشق وطلبوا إليه أن يتولى الحكم في مدينتهم.

أرسل الفاطميون جيشاً يقوده جوهر لحصار دمشق. ولما استنجد أفتكين بالقرامطة رحل جوهر عن دمشق حتى لا يبقى بين عدوين، أحدهما داخل المدينة والثاني القرامطة القادمون من الشرق. فتبعه افتكين والقرامطة وهزموه أمام الرملة ثم حاصروه في عسقلان. وبعد أن اتفق جوهر وأفتكين خرج جوهر ماشياً من باب المدينة تحت سيف افتكين ورمح زعيم القرامطة.

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢ - ١٤.

J. Finlay, History of the Byzantine Empire, pp 331-3; S. Runciman, A History of the Crusades, Vol. I, pp 31-33.

خرج العزيز بنفسه إلى الحرب في سنة ٣٦٨ / ٩٧٨، وفي الموقعة خارج الرملة حقق نصراً باهراً في قتال مرير قاد الخليفة خلاله القلب من جيشه وشنّ الهجوم الذي شتت قوات العدو. وحارب أفتكين بشجاعة نالت إعجاب العزيز. ولما أُتي به أسيراً بعد الموقعة أحسن الخليفة إليه وأكرمه. وسار أفتكين مع العزيز إلى مصر وأصبح من المقربين إلى الخليفة. إن هذا التسامح والسمو في المعاملة حتى مع العدو كان من الصفات التي عُرف بها العزيز بالله[١].

أما زعيم القرامطة فانهزم باتجاه الاحساء فلحق به رسل الخليفة بالقرب من طبرية حاملين وعداً بثلاثين ألف دينار تدفع للقرامطة كل سنة لقاء خضوعهم وولائهم. بعد ذلك لم يعد القرامطة إلى القتال.

يظهر أن القرامطة أقروا بالسيادة للعزيز بالله، فقد جاء في كتاب عمدة العارفين للأشرفاني انه بعد وفاة أبي يعقوب بن سعيد في سنة ٣٦٨ تولى أمر القرامطة ستة رجال يعملون معاً ولا يختلفون وتلقبوا بالسادة وكانوا تحت طاعة العزيز. ويقول الأشرفاني: في سيرة مولانا العزيز ما يدل أن السادة في الاحساء كانوا من دعاته.

بعد الانتصار في الرملة أعيدت السيادة الفاطمية على دمشق. وامتدت دولة الفاطميين في خلافة العزيز من المحيط الأطلسي عبر شمالي افريقية ومصر إلى سورية الوسطى، وشملت الحجاز واليمن، أما شمالي سورية فبقي محمية بيزنطية.

توفي العزيز بالله سنة ٣٨٦ / ٩٩٦ في معسكره في بلبيس وهو في طريقه إلى سورية لمتابعة الجهاد ضد الروم.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، ص ٦٥٦ - ٦٦١؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦ - ٢١.

وفي سنة ٤٠٦ / ١٠١٥ في خلافة الحاكم بأمر الله دخلت حلب في حكم الفاطميين، وبذلك تم للفاطميين السيطرة على سورية ما عدا انطاكية، وامتدت سلطتهم إلى غربي العراق.

وفي بغداد نفسها أعلن البساسيري، وهو قائد تركي، في سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨ الولاء للخليفة الفاطمي وكان الفاطميون أمدوه بالعون، فعاد بمؤازرتهم له بالخيل والمال والسلاح إلى بغداد بعد أن طرده منها السلاجقة. وألزم البساسيري الخليفة العباسي القائم أن يكتب كتاباً على نفسه ويشهد عليه العدول أن لا حق لبني العباس ولا له من جملتهم، في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام. وبعث البساسيري الكتاب مع جملة من تحف قصر الخليفة إلى المستنصر بالله في القاهرة الذي أعد القصر الغربي ليكون منزلاً للخليفة القائم صاحب بغداد[1].

وهنا نعيد إلى الاذهان المحضر الذي كتب في بغداد قبل نصف قرن وفيه قدح بالفاطميين، في نسبهم وفي عقيدتهم. ان كلتا الوثيقتين من نمط واحد.

دامت حركة البساسيري سنة واحدة دخل بعدها السلطان السلجوقي طغرلبك إلى بغداد وأعاد إليها الخليفة القائم الذي كان انتقل إلى الحديثة. وحلّ السلاجقة مكان البويهيين كأصحاب السلطة الفعلية تاركين للخليفة السيادة الاسمية.

كانت مغامرة البساسيري عملية بالغة التكاليف على الفاطميين. كتب ابن ميسّر (المتوفى في سنة ٦٧٧ / ١٢٧٨) أن حادثة البساسيري كانت سبباً

(١) سيرة المؤيد في الدين الشيرازي، ص ٩٦ - ٩٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء التاسع، ص ٦٤١ - ٦٤٦؛ ابن ميسّر، أخبار مصر، ص ٧ - ١١؛ المقريزي، الخطط، الجزء الثاني، ص ٣٠٣، ٣٣٢.

في خراب مصر وضعف الدولة المصرية بما سيّر إليها من الأموال.

بعد ذلك بقليل فقد الفاطميون سورية الداخلية واقتصر حكمهم على المدن الساحلية من عسقلان إلى طرابلس.

امتدت خلافة المستنصر من سنة ٤٢٧ إلى سنة ٤٨٧ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤. كان الخليفة الفاطمي حتى ذلك الحين الحاكم الفعلي في الدولة. أما الآن فقد انتقلت السلطة إلى أيدي الآخرين. وكان لوالدة المستنصر أثر سيء على سير الأمور. ولم يعد للوزير سلطة أمام عصيان الجنود. واقتتل الجنود من مختلف الجنسيات: السودان والبربر والترك والديلم. واختلت أحوال الدولة وضاع الأمن، وانتشرت الفوضى إلى حد جعل الفلاحين يحجمون عن زراعة الأرض. هذا إلى قصور النيل في بعض السنين فانعدم القوت واستولى الجوع على الناس.

لقد انقذ مصر من الانهيار قائد الجيوش بدر الجمالي الذي استدعاه المستنصر من عكا في سنة ٤٦٦ / ١٠٧٣، حكم بدر الجمالي مصر طيلة عشرين عاماً إلى حين وفاته في سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ أنجز خلالها السيطرة على الجنود واصلاح الادارة، وضبط الأموال وأعاد السلام والأمن ووضع البلاد على طريق الانتعاش.

بعد وفاة المستنصر وقع انقسام حول من يخلفه. كان المستنصر نصّ على ابنه الأكبر خليفة له، لكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي رفع إلى الخلافة أخاه الأصغر المستعلي. فثار نزار وبعد هزيمته قتِل. ومن ذلك الحين إلى نهاية الأسرة الفاطمية في سنة ٥٦٧ / ١١٧١ مزّق الدولة الصراع على السلطة. وخلفاء هذه الفترة، وأكثرهم كان دون سن البلوغ عند توليتهم، كانوا بلا حول، على نقيض تام مع أسلافهم من القرن الفاطمي الأول.

كانت الدولة الفاطمية في أوجها امبراطورية عزيزة الجانب محكمة

الادارة. وكان الخلفاء الستة الأول، من عبيد الله المهدي إلى الحاكم بأمر الله من الاقيال، وقد امتد حكمهم من سنة ٢٩٧ الى ٤١١/٩٠٩-١٠٢١.

كان المعز، على ما يبدو من شتى الروايات، ومنها ما كان معادياً للفاطميين، حاكماً مثالياً. كان عالماً فاضلاً، جواداً وشجاعاً. منصفاً للرعية وعطوفاً عليها، مولياً ادارة الدولة نشاطاً لا يعرف الكلل. وعن عدله قال مؤرخ لا يتعاطف مع الفاطميين ومذهبهم: لقد نشر العدالة والحق إلى حد أن روايات عجيبة لا تزال تروى عن آثار ذلك ونتائجه[1].

ومن أقوال المعز في العدالة: «أن القضاء ميزان عدل الله في أرضه وقسطه بين عباده، فمن عدل به عن جهته أو أحاله عن سبيله فقد باء بغضب من الله ولعنة أوليائه، فأمر القضاء عظيم ومحمله ثقيل». وقال إنه عهد إلى من ولاه «القضاء والحكومة أن يساوي بين القوي والضعيف ويعدل بين الشريف والمشروف في قوله وفعله ولفظه ولحظه وتقريبه وإبعاده ومجلسه»[2].

وهناك حادثة صغيرة تتبيّن منها بعض صفات المعز. فبعد قدومه إلى مصر وقع بيده إلى صاحب بيت المال أن يبتاع في كل يوم حاجات القصر من الفاكهة وحوائج المطبخ «بسعر الناس ولا تعرف الرسول لئلا تقع محاباة ولا مسامحة»[3].

يروي مصدر معاصر كيف كان المعز يقضي يومه فيقول: كان يجلس في مجلسه إلى منتصف النهار منشغلاً في وجوه ما يأمر به ويحكمه من أمر المملكة. وكان يتحدث إلى خاصة أوليائه في العلم والحكمة. وبعد الغداء

(١) Juvayni, The History of the World Conqueror, Vol. 2, pp 652-3

(٢) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، الجزء الرابع عشر.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ص ١٨٨.

كان يستريح قليلاً، ثم يعود بعد صلاة العصر، إلى العمل حتى المساء. وكان يقضي جزءاً كبيراً من الليل بين الكتب يقرأ ويكتب. وبين الحين والآخر كان يخرج راكباً إلى الريف للنزهة. في تلك الأوقات كان يحيط به الناس، عارضين عليه طلباتهم وحاجاتهم[1].

وفيما رواه المقريزي نطل على حياة المعز الخاصة. كان المعز لا يزال في المغرب. وفي يوم شاتٍ استدعى عدة من شيوخ كتامة، فدخلوا عليه في مجلس وبين يديه كتب ودواة وحوله أبواب مفتحة تفضي إلى خزائن كتب. قال لهم المعز: إنه أصبح في ذلك اليوم من الشتاء والبرد فقال لأم الأمراء «وانها الآن بحيث تسمع كلامي»، أترى أخواننا يظنون أننا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب في الديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر كما يفعل أرباب الدنيا. ثم رأى أن يحضرهم ليشاهدوا حاله إذا خلا بنفسه دونهم. وكان لما دخلوا عليه منشغلاً بكتب ترد عليه من المشرق والمغرب فيجيب عليها بخطه، وهي رسائل الدعاة المنتشرين في أنحاء الأرض يبثون الدعوة الفاطمية. فملاذ الدنيا ليست مما يشغله، بل هو منشغل بما يصون أرواحهم ويعمر بلادهم ويذل أعداءهم. ثم نصحهم أن يفعلوا في خلواتهم مثل ما يفعل، وقال: «ولا تظهروا التكبر والتجبر ينتزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم. وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل إليّ كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل» ومن نصائحه لهم أن لا يميلوا إلى التكثير من النساء، بل يكتفي الرجل بزوجة واحدة. «فحسب الرجل الواحد الواحدة»[2].

(١) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، الجزء الحادي والعشرون.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ص ١٣٧-١٣٨.

إن إشارة المعز إلى زوجته بما يسترعي الانتباه. فقد ورد ذكرها كرفيقة للخليفة يبحث معها الشؤون العامة وكشريكة في مجالسه وإن كان ذلك من وراء حجاب.

أما ثقافة المعز فقد كان عالماً في علوم الائمة آبائه أي في المذهب الشيعي – الفاطمي. ومن الكتب التي تنسب إليه كتاب «تأويل الشريعة». كما أنه كان المصدر للكتب التي ألّفها القاضي النعمان في الفقه الفاطمي وفي العقيدة. ومن ثقافته إتقان فن الخط أسوة بأبيه المنصور، وكان لكل منهما مصحف رائع الجمال من عمل يده: خطاً وتذهيباً وتجليداً(١).

إن العزيز بالله جمع بين الكفاءة في إدارة الدولة وبين انسانية متناهية وتسامح رحب. أحبه شعبه ودان له بالعرفان للسلام والازدهار الذي تحقق في خلافته.

في القرن الفاطمي الأول أمسك الخلفاء بزمام السلطة. كان الخليفة على رأس الحكم الذي شمل الإدارة (أصحاب القلم) والجيش (أصحاب السيف) والتنظيم المذهبي أي الدعوة. والدعوة من الخصائص المميزة للدولة الفاطمية وركن من أركانها الأساسية.

وحتى نهاية خلافة الحاكم بأمر الله قامت إدارة مدنية بتصريف أمور الدولة بكفاءة عالية. لقد أدخل المعز والعزيز الانضباط إلى نظام الادارة وأخضعت الشؤون المالية إلى رقابة صارمة، وكانت العدالة والنزاهة تحكم تقدير الضرائب وجبايتها.

ويظهر أن الاستقامة في الادارة انعكست على التجارة في الأسواق، فقد ذكر ناصري خسرو الذي قدم إلى مصر في أواسط القرن

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ص ٢٠٢.

الخامس / الحادي عشر أن الأسعار محددة وأن التاجر إذا غشّ يشهّر به في الأسواق وهو على جمل يقرع جرساً وينادي ان هذا جزاء غشه.

احتل ديوان الانشاء المقام الأول في الإدارة. فكان موضع اهتمام الفاطميين الذين رفعوا من شأن موظفيه وكفاءتهم ووضعوا على رأسه رجلاً جديراً بأكبر قدر من الاحترام، يستشيره الخليفة في أكثر أموره ولا يُحجب عنه متى قصد المثول بين يديه. وكانت أمور الجيش ترجع إلى ديوان الجيش وهو تابع للإدارة المدنية. ومن الدواوين الهامة ديوان التحقيق الذي تولى التحقيق في كافة دوائر الدولة(١).

وأسندت إلى قاضي القضاة رئاسة القضاء. وجرت الأحكام بمقتضى المذهب الفاطمي – الاسماعيلي الذي لم يختلف عن الشريعة الاّ في بعض التفاصيل. وقد خدم الفاطميين عدة أجيال من القضاة البارزين من سلالة القاضي النعمان.

بعد خلافة الحاكم ازداد نفوذ السلطة العسكرية. كان الوزير، وهو على رأس الإدارة بعد الخليفة، من أرباب القلم. إن أول من شغل هذا المنصب من أصحاب السيف بدر الجمالي. ومنذ ذلك الوقت أصبح أمير الجيوش الحاكم الفعلي. وكان يدعى في بعض الأحيان وزيراً، وأخيراً تلقب بالسلطان. لكن الإدارة المدنية استمرت قائمة وقادرة على تسيير الأمور، فإليها كانت ترجع الشؤون المالية كلها بما في ذلك دفع رواتب الجنود وتنظيم وتوزيع الاقطاعات.

(١) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني ص ٢٤١ – ٢٤٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء الأول، ص ٩٦؛ الجزء الثالث ص ٤٩٠، ٤٩٣؛ الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ٥٨١ – ٦١٣.

إن نظام الحكم الذي أقامه الفاطميون أصبح تراثاً باقياً أخذه عنهم الأيوبيون ومنهم انتقل إلى المماليك.

كان من نتائج الإدارة المستقرة ونظام مالي سليم أن ساد الرخاء، فكثرت الواردات من الضرائب والرسوم على البضائع ومن مصانع النسيج التي كانت تمتلكها الدولة، وازدهرت الصناعة ونمت التجارة وأنبتت الأرض محاصيل متنوعة.

أولى الفاطميون اهتماماً كبيراً لتطوير التجارة وتوسيعها. فالتجارة كانت إلى جانب فوائدها المادية إحدى وسائل نشر الدعوة الفاطمية. كان الفاطميون يسيطرون على شواطىء البحر الأحمر الغربية والشرقية وعلى اليمن حيث اشتهر السكان بأسفار البحار منذ القدم. ولم تكن مصر فقط مستودعاً للبضائع الواردة من الشرق والتي بادلتها بما ورد عليها من الغرب، بل كان لها فائض للتصدير من مواردها، فتنمية الزراعة والصناعة أوجدت رخاء لم يسبق له مثيل.

كان للفاطميين وهم لا يزالون في افريقيا الشمالية علاقات تجارية مع البلدان الأوربية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. هذه العلاقات استمرت واتسعت وكثر ورود السفن من تلك البلدان إلى الموانىء المصرية. وكان للفاطميين أسطول كبير مسيطر على شرقي البحر الأبيض المتوسط. وأصبحت كل من الإسكندرية وطرابلس الشام مركزاً للتجارة الدولية.

وازدهرت الصناعة مستمدة نشاطاً من متطلبات البلاط الفاطمي وما كان عليه من العظمة والفخامة. كانت القاهرة ودمياط ودبيق وتنّس مراكز لصناعة النسيج وانتجت منسوجات فاخرة اشتهرت في أسواق الشرق والغرب وأصبح الدبيقي اسماً معروفاً في كافة أنحاء البحر الأبيض المتوسط لنوع ممتاز من النسيج. وكان في الإسكندرية مصنع للطراز وآخر

في القاهرة أدخلت منتوجاتها الثمينة من الحرير المطرز بالذهب ريعاً وفيراً إلى خزينة الدولة.

ومما يعطينا فكرة عن الإنتاج الكبير لصناعة النسيج ما ذكرته المصادر المعاصرة عن أنواع وكميات الأقمشة والمفارش والستائر في قصور الخلفاء ودور الوزراء. وفي سخاء الخليفة وسعة عطائه دليل آخر على وفرة انتاج هذه الصناعة. لقد كان الخلفاء يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع خدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير كسوات الصيف والشتاء من العمامة إلى السراويل من فاخر الثياب[1].

وراجت صناعات أخرى مثل الزجاج والبلور والفخار والخزف، وكان من شفافية الخزف أن حامل الزهرية يرى يده من خلالها.

وشجع الرخاء الفنون، وفي بعض ما وصلنا من الأواني نماذج رائعة من الإبداع الفني. وتطور الرسم إلى فن رفيع كما يظهر من وصف الرسوم التي ازدان بها المسجد الذي بنته تغريد أم العزيز.

ولم يُستنكر رسم الآدميين. وقد اشتهر بهذا النوع من الرسم فنانان، أحدهما دُعي إلى مصر من العراق. وكنا لنعرف أكثر عن الرسم والرسامين لو أن كتاب « طبقات المصورين » وصل إلينا.

ووجدت الصور بكثرة، منها للآدميين ومنها للحيوان والطير، على صواني الذهب والفضة وعلى الكؤوس والأطباق وغيرها من الاواني في القصور. ونطلع على ازدهار الفنون والصناعات في لوائح مقتنيات الخلفاء والأميرات وكبار الموظفين من الأثاث والتحف. وإننا ننظر في صفحات

---

(١) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني، ص ٢٥٥، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨.

كتاب وضعه أحد القيمين على قصر الخليفة إلى الذخائر العجيبة التي حواها قصر المستنصر[1].

زار مصر في سنة ٤٣٩/١٠٤٧ الفيلسوف والشاعر الفارسي ناصري خسرو وترك لنا صورة مشرقة لما رأى. وقد يرجع حماسه، إلى حدّ ما، إلى كونه اسماعيلياً يدين بالولاء للخليفة الفاطمي. ومع هذا فإن في وصفه رنّة صدق، فالانحطاط لم يكن بدأ بعد. وجد ناصري خسرو بلاداً تتمتع بالرخاء وشعباً راضياً. ورأى من وفرة الغنى ما لو حاول وصفه لما صدقه الناس في فارس، كما قال. والحكم عادل وعطوف على الشعب والناس يشعرون بالأمن والطمأنينة. وختم قائلاً: ليس هناك من بلاد تفوق مصر رخاءً وأمناً.

ودفع الفاطميون حركة فكرية مميزة فكان من معتنقي مذهبهم أو المتعاطفين معهم أبو حاتم الرازي وحميد الدين الكرماني والفارابي في الفلسفة، وعلي بن يونس في علم الفلك، وابن الهيثم في الفيزياء والبصريات، وماسويه وعلي بن رضوان في الطب، وإخوان الصفاء أصحاب الموسوعة في الفلسفة والعلوم. وأنشأ الفاطميون دار العلم التي أمّها العلماء والباحثون في شتى العلوم والنظريات. إن الحافز الذي وفّروه للتأمل الفلسفي وروح البحث الحر كان ذا أثر عظيم في أهل الفكر من بلاد فارس إلى الأندلس.

(١) ابن الزبير، كتاب الذخائر والتحف.

الفصل الخامس

الخلافة الفاطمية: الدعوة

وصل الفاطميون إلى الحكم عن طريق دعوة ناشطة ومحكمة التنظيم وقد استمروا على صلة وثيقة بها بعد توليهم الخلافة وأمدوها بمزيد من الدعم المستمد من مركزهم على رأس دولة قوية.

أرسل الفاطميون، وهم بعد في سلمية في دور الستر، دعاتهم إلى كافة البلدان: إلى الشرق واليمن والمغرب. ولما قامت الدولة الفاطمية في شمالي افريقيا أصبحت عاصمتهم المهدية محط أنظار أتباعهم في كل مكان.

وجد الدعاة في الولايات الشرقية من الامبراطورية العباسية تربة قابلة لرسالتهم. فبمنتصف القرن الرابع / العاشر كان الدعاة الفاطميون قد توغلوا إلى أقصى الأقطار شرقاً في العالم الإسلامي: خراسان وبلاد ما وراء النهر[1]. ونشرت شبكة من الدعاة العقائد الاسماعيلية بين السكان الذين كان للشيعة جذور راسخة عندهم.

وفي الوقت ذاته نشطت حركة الدعاة في شمالي غربي بلاد فارس وفي الولايات الواقعة جنوبي بحر قزوين، ودخل أمير الري أحمد بن علي في الدعوة على يد أحد الدعاة البارزين هو أبو حاتم الرازي الذي أرسل الدعاة إلى طبرستان واصفهان واذربيجان وجرجان.

(١) نهر جيجون.

وأدخل الداعي في سجستان في الدعوة أبا يعقوب الصفار مؤسس الأسرة الصفارية الذي بعد أن أخضع بعض أنحاء خراسان وكرمان وفارس والاهواز سار قاصداً بغداد لإسقاط الخلافة العباسية.

وفي خراسان اعتنق الدعوة الحسين بن علي المروزي أمير مرو الروذ وجوارها حيث حذا السكان حذو أميرهم باعتناق الاسماعيلية. وأسند الحسين قبل وفاته الدعوة إلى محمد بن أحمد النخشبي (النسفي) وهو من الدعاة والمفكرين البارزين.

كان الحسين أشار على النخشبي أن ينتقل إلى ما وراء النهر. وهناك لاقى نجاحاً في بلدته نسف ثم في العاصمة بخارى حيث أقنع الأعيان في بلاط الأمير الساماني نصر بن أحمد وغيرهم من ذوي النفوذ في المدينة. وعن طريقهم وصل إلى الأمير الذي اعتنق المذهب الاسماعيلي. وبعث نصر أمير خراسان إلى عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي يقول إنه مستعد إذا أمره أن يسير إليه ومعه خمسون ألفاً والوقوف بسيفه بين يديه وامتثال أمره.

إن اعتناق الأمير للمذهب الاسماعيلي أغضب العلماء الذين اتفقوا مع الحرس التركي على قتله. لكن الأمير نجا عندما اكتشفت المؤامرة. غير أنه اضطر إلى التخلي عن الحكم لابنه نوح. ولما تسلم الأمير نوح السلطة شنّ حملة إبادة على الاسماعيلية قُتِل أثناءها النخشبي.

لكن الدعوة لم تُبد، بل ركنت إلى النشاط السري، وبعد بضع سنين، في حكم منصور بن نوح عاد الدعاة إلى نشر الدعوة. وكانت الكثرة من المستجيبين من أبناء وأحفاد الذين كانوا قتلوا في سبيل عقيدتهم[1].

في أيام منصور، كما في أيام نصر، كان أكثر الأشراف ورجال البلاط

(١) نظام الملك، Siyasat Nama، ص ٢٢٧ - ٢٣٣.

وكبار الموظفين من القرامطة. وانفجرت ثورة في فرغانة وطالقان، وكان قائد قوات منصور حذره من مؤامرة تدبر للإطاحة به. ولما أخمِدت الثورة قيل إنه لم يبق من الباطنية أحد في خراسان وما وراء النهر لكن، كما في السابق، لم تندثر الحركة. فبعد قرن من الزمن لاقت دعوة ناصري خسرو للمذهب الاسماعيلي نجاحاً في بدخشان البلاد الجبلية عند أعالي نهر جيحون. وكان أمير بدخشان علي بن أسد اسماعيلياً. وقد اثنى عليه ناصري خسرو ثناء حاراً وأهدى إليه، في سنة ٤٦٢ / ١٠٧٠، كتابه «جامع الحكمتين».

في خراسان وما وراء النهر تطلع الدعاة إلى اعتناق الحكام للمذهب الاسماعيلي - الفاطمي، وعن طريقهم يتم الوصول إلى دخول رعيتهم في الدعوة. أما في مناطق أخرى فقد وجهت الدعوة مباشرة إلى الشعب: إلى الفلاحين والبدو في جنوبي العراق، وإلى القبائل الجبلية في اليمن، وفي شمالي افريقيا إلى القبائل في الجبال وفي السهول.

ولما كان الدعاة هم الممثلين للدعوة القريبين من الناس والحكام كان لا بد أن يعكسوا بمزاياهم الخلقية صورة لدعوتهم خليقة بالاحترام. وقد وصفهم المؤرخ رشيد الدين فضل الله بأنهم حكماء، عقلاء، ذوو فهم جيد مع فصاحة اللسان وعذوبة الكلام. وأنهم أُمِروا أن ينهجوا في حياتهم سبيل نقاوة الروح وطهارة الجسد والخلق الذي لا عيب فيه.

وذكر أن الإمام جعفر الصادق أوصى بعض أصحابه في الكوفة فقال: «كونوا لنا دعاة صامتين». وفسّر ذلك بقوله: «وتعاملون الناس بالصدق والعدل، وتؤدون الأمانة، وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، ولا يطلّع الناس منكم إلاّ على خير»[1].

(١) القاضي النعمان، دعائم الإسلام، الجزء الأول، ص ٧١.

كان من الدعاة فلاسفة وعلماء ورجال فكر بارزون. وكانت الدعوة الفاطمية في الشرق كما في الغرب وثيقة الصلة بالعلم واقتناء الكتب وتأسيس دور العلم. وسنذكر فيما بعد مكتبة الفاطميين ودار العلم في القاهرة. وفي الطرف الآخر من العالم الإسلامي، في بخارى، جمع السامانيون، الذين اعتنقوا المذهب الاسماعيلي لفترة من الزمن، دار كتب عظيمة ذات بيوت كثيرة رتبت فيها الكتب حسب مواضيعها، لكل منها فهرس بما تحويه. وكان ابن سينا من بين رواد هذه المكتبة، وقد قال إنه نظر في فهرست كتب الأوائل فرأى من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط وما لم يره هو من قبل ولا رآه فيما بعد[1].

كان بين الدعاة في الشرق النخشبي وتلميذه أبو يعقوب السجزي وكلاهما من كبار المفكرين. دافع السجزي في كتابه « النصرة » عن آراء أستاذه في كتاب « المحصول » الذي انتقده أبو حاتم الرازي في كتاب « الاصلاح ». لقد ضاع كتاب « المحصول » وكتاب « النصرة » لكن الآراء التي عبّر عنها النخشبي والسجزي حفظت في كتاب « الرياض » للكرماني الذي صحح الآراء المتضاربة مشيراً إلى أن الخلاف مسّ جوهر العقيدة. إن هذا الخلاف في الرأي بين الدعاة يظهر مدى الحرية الفكرية داخل الدعوة. وقد ألّف أبو حاتم الرازي عدداً من الكتب الهامة أحدها كتاب « الزينة » أهداه إلى القائم الخليفة الفاطمي الثاني.

ولم يحصر هؤلاء الدعاة والمفكرون أبحاثهم وجدلهم داخل حلقات الاسماعيلية بل جادلوا وناظروا أصحاب مذاهب وعقائد أخرى. واشتهرت مناظرة جرت في الري، في بلاط الأمير، بين أبي حاتم الرازي

(١) ابن أبي اصيبعة، طبقات الأطباء، الجزء الثاني، ص ٤.

الداعي الاسماعيلي وأبي بكر الرازي العالم الشهير دافع فيها أبو حاتم عن الدين والنبوة معارضاً بذلك أراء أبي بكر اللادينية.

وناظر داع آخر كبير، هو المؤيد في الدين الشيرازي، العلماء في حضرة الأمير البويهي كاليجار حاكم شيراز، مدافعاً عن عقيدة التأويل. كما جرت له مناظرات بالرسائل مع بعض معارضي عقيدته. كان الشيرازي كغيره من كبار الدعاة، ذا ثقافة واسعة، مستوعباً الآراء الفلسفية والعلوم الدينية في عصره وكان هذا الشمول في الثقافة من متطلبات عمل الداعي إذ كان عليه أن يكسب المستجيبين عن طريق البرهان العقلي والاقناع[1].

ومما يدل على علو شأن المؤيد الشيرازي الرسائل المتبادلة بينه وبين أبي العلاء المعري الذي خاطب المؤيد بسيدنا الرئيس الأجل ممن ورث حكمة الأنبياء. وفي إحدى الرسائل يقول أبو العلاء عن الشيرازي: « ولو ناظر ارسطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه »[2].

سعى المذهب الفاطمي إلى تدعيم العقيدة الدينية بالفكر الفلسفي، وبذلك يحصل التوافق بين الفلسفة والوحي. ولقي هذا المذهب، بما تضمنه من تأملات فلسفية وبما شجعه من حرية في البحث، قبولاً لدى النفوس المتسائلة وكان من هؤلاء أبو العلاء فيلسوف المعرة.

إن أشهر الدعاة حميد الدين الكرماني كان داعي الدعاة في العراقين في خلافة الحاكم بأمر الله. إن مؤلَّف الكرماني الأكبر، « راحة العقل » كتاب نظم فيه العقيدة الفاطمية تنظيماً فلسفياً دقيقاً وهو المرجع الأساسي للفلسفة الالّهية الاسماعيلية كما أن كتاب النعمان « دعائم الإسلام » هو

(١) سيرة المؤيد في الدين الشيرازي، ص ١٦ – ٦٠.

(٢) D. S. Margoliouth, Abu-Ala al-Ma'rri's Correspondence on Vegetarianism, Journal of the Royal Asiatic Society, 1902, p 327..

الكتاب المرجع في الفقه الاسماعيلي.

وفيا ذكره الكرماني من الكتب الواجب قراءتها قبل قراءة «راحة العقل» نرى التدرج في دراسة المذهب الفاطمي بحيث لايُقبل المريد على كتب الباطن إلا بعد دراسة علوم الظاهر. ومن كتب الباطن التي ذكرها الكرماني «كتاب تأويل الشريعة» من كلام مولانا الإمام المعز لدين الله[١].

كان الخلفاء الفاطميون أنفسهم علماء. والعلم من متطلبات مقامهم فهم أئمة الدعوة الاسماعيلية والقيمون عليها. كان الخليفة يشرف بنفسه على التربية الروحية لخلفه يرشده إلى القراءة في مذهب التأويل ويتابع تقدمه، ويبحث معه أمور العقيدة. وقد ذكر المعز كيف كان المهدي يغذي المنصور بالحكمة وأنه هو تلقى الغذاء عينه من القائم[٢].

كانت الكتب من أهم مقتنيات الخليفة. فعبيد الله المهدي أخذ معه لما رحل إلى المغرب الكتب التي حوت علوم الأئمة آبائه. وكانت هذه الكتب فُقدت أثناء السفر ثم وجدت حين سار القائم في حملته الأولى إلى مصر. وكان من سرور المهدي باستعادتها أن قال: «لو لم تكن هذه الغزوة إلاّ لردّ هذه الكتب لكان ذلك فتحاً عظيماً، وسرّ باسترجاعها سروراً عجيباً».

وكانت الكتب أنفس الذخائر عند المنصور[٣].

اقتنى المعز وهو لايزال في شمالي افريقية مكتبة كبيرة، وكان ملماً بمحتوياتها، يقضي وقتاً طويلاً بين الكتب، ساهراً الليل في بعض الأحيان، غارقاً فيا يقرأ[٤]. هذه المكتبة أحضرها المعز معه لما قدم إلى مصر. وقد

(١) الكرماني، راحة العقل، ص ٢٣.
(٢) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، الجزء الرابع والعشرون.
(٣) سيرة الأستاذ جوذر، ص ٥٣.
(٤) المجالس والمسايرات، الجزء السابع والعشرون.

أضاف العزيز إلى محتوياتها، وأغناها الحاكم كثيراً. فحوت المكتبة الفاطمية ما عُرف من العلوم في ذلك الزمان، علوم الأوائل والعلوم الإسلامية.

كان الخليفة – الإمام ينبوع العلم في مذهب التأويل. وكان واجبه الأول أن ينشر الدعوة عن طريق التعليم. وكان الدعاة يقدمون من الأقطار البعيدة ليستقوا المعرفة من معينها. وكانوا يستفسرون من الخليفة ما خفي عليهم فهمه وهو يوضح لهم غوامض العقيدة.

تنسب إلى المعز عدة كتب في العقيدة الاسماعيلية. أنه إن لم يكن هو واضع هذه الكتب فعلاً فهو دون شك مصدر المواد التي حوتها. فعن هذه الناحية من حياة المعز توجد معلومات وافية في مصدر معاصر هو سجل لمحادثات جرت في مجالس المعز وحوادث وأخبار متصلة به جمعها القاضي النعمان في «كتاب المجالس والمسايرات» الذي لم ينشر بعد.

أمر المعز القاضي النعمان أن يقرأ كتب الأئمة ويكتب في علوم الدعوة. ويقول النعمان إن المعز لدين الله إذا أراده أن يكتب في موضوع لخصه له وجمعه وفتح له معانيه وبسط له جملته. ولما أمره بتأليف كتاب «دعائم الإسلام» أصّل له أصوله وفرّع له فروعه وأخبره بصحيح الروايات عن الأئمة عن رسول الله. وكان النعمان يعرض ما يكتبه على المعز شيئاً فشيئاً وكان الخليفة يصحح ما يحتاج إلى تصحيح ويقر الصحيح[١].

وقد رفع النعمان إلى الخليفة كتاباً مختصراً في أقوال الأئمة كان قد جمعه تلبية لطلب بعض القضاة والحكام والطلبة. قرأ المعز الكتاب ووقع ملاحظاته عليه بخطه. فقد أعجبه فيه صحة الرواية وجودة الاختصار. إلا أنه اعترض على كلمات يصعب فهمها على كثيرين وأشار على النعمان أن يشرحها

(١) المجالس والمسايرات، الجزء التاسع عشر.

بما يقربها من أفهام الجميع. وكان النعمان سمى مؤلّفه «كتاب الدينار» إذ قام على من يريد استنساخه بدينار أو أقل. رأى المعز أن هذه التسمية لاتليق بمحتويات الكتاب وقد تحط من قدره عند الموسرين فيرون أنهم يصلون إليه ببذل اليسير من حطام دنياهم، بينما ما فيه من علم أولياء الله يجب على كافة الخلق طلبه بأرواحهم فضلاً عن أموالهم. واقترح على النعمان أن يسميه «كتاب الاختصار لصحيح الآثار عن الأئمة الأطهار»(1).

قام بنشر الدعوة تنظيم متسلسل المراتب على رأسه داعي الدعاة ويسمّى أحياناً الباب. كان داعي الدعاة يلي قاضي القضاة في المرتبة. وكثيراً ما اجتمعت الوظيفتان في شخص واحد. وداعي الدعاة مرجع يحضر إليه فقهاء الدولة للاستشارة والإرشاد فهو الثقة في علوم الأئمة.

إن واجبات ومسؤوليات هذه الوظيفة مفصلة في سجل تعيين داعي الدعاة يرجع إلى منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. إن التأكيد على أن يكون الدخول في الدعوة حراً بعيداً عن كل إكراه من سمات الفاطميين الذين عرِفوا بتسامحهم تجاه معتقدات الآخرين. فالخليفة يوصي كبير دعاته أن يأخذ العهد على كل مستجيب راغب، ويجادل المخالفين باللطف والسداد ويقبل منهم من يأتيه طوعاً وانقياداً، ومما قاله: «ولاتكره أحداً على متابعتك والدخول في بيعتك وإن حملتك على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة». ولداعي الدعاة قراءة مجالس الحكمة على المؤمنين والمؤمنات في قصور الخلافة وفي الجامع الأزهر. وعليه أن يحرص على أسرار الحكمة، فيوصيه إمامه: «وصن أسرار الحِكَمِ إلاّ عن أهلها ولاتبذلها إلاّ لمستحقها، ولاتكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله». والقرآن هو الدليل الهادي، فيقول الخليفة لداعيته: «واتخذ كتاب الله مصباحاً تقتبس أنواره، ودليلاً تقتفي آثاره، واتلُهُ متبصراً

(1) المجالس والمسايرات، الجزء السابع عشر.

وردده متذكراً وتأمله متفكراً»، ويوصيه أن يتمسك بظاهره وتأويله ومُثُله. ومن رعاية الداعي للمؤمنين أن يجمع شملهم ويزيدهم من الفوائد على حسب قواهم من القبول ويدرجهم بالعلم، ويلين لهم جانبه ويحنو عليهم، وإذا أشكل عليه أمر فينهيه إلى حضرة الامامة. ومن واجبات الداعي أن يتسلم ما يحمله المؤمنون له من الزكاة والاخماس والقربات وينقله إلى أمير المؤمنين. وعلى الداعي أن يستنيب عنه في أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ويعهد إليهم كما عهد إليه، ويستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته(1).

ومن ناحية التوزيع الجغرافي نظمت الدعوة في اثنتي عشرة جزيرة، أي إقليم، يقوم على كل منها أحد كبار الدعاة يقال له حجة ومعه عدد من الدعاة تابعين له ومنتظمين في ترتيب تصاعدي يبدأ بالمكاسر ويليه المأذون وبعده دعاة من رتب متدرجة إلى المراتب العليا في علم التأويل.

بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر أصبحت القاهرة مركز الدعوة. فيها يقيم داعي الدعاة وفيها أنشئت المؤسسات لتدريب الدعاة.

كان العلم الحجر الأساس في نشر الدعوة الفاطمية. فهي، وقد رفضت الاكراه طريقة لاعتناق العقيدة اعتمدت على قدرة الدعاة في الاقناع والتأثير عن طريق العقل. فأنشأت الدولة المؤسسات وعينت فيها المدرسين لإعداد الدعاة وتزويدهم بالمعرفة اللازمة لأداء رسالتهم. وفي زمن العزيز بالله، ولأول مرة في مصر، نظمت الدولة الدروس وأجرت الأرزاق على المدرسين. وكانت دار العلم التي أنشأها الحاكم بأمر الله أول جامعة.

كان من أولى واجبات داعي الدعاة قراءة مجالس الحكمة على المؤمنين. وكانت المجالس، وهي مجموعة محاضرات، على مستويات تتفق مع

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء العاشر، ص ٤٣٤ - ٤٣٩.

درجة المستمعين في العلم والمعرفة. كان كتاب «دعائم الإسلام» يقرأ على المبتدئين يتبعه محاضرات هي بمثابة مدخل إلى علم الباطن. والمتقدمون في العلم يدرسون أصول الباطن في كتاب «أساس التأويل»، وكلا الكتابين، «الدعائم» و«الأساس» من تأليف القاضي النعمان، فالأول أساس الظاهر، والثاني أساس الباطن. وقد حذر النعمان من مغبة التعرض للعلم دون مراعاة التربية المرتكزة على التدرج من مرتبة في العلم إلى ما يليها وبذلك تصبح النفس مستعدة لقبول الحقائق والانتفاع بها. أما العلم على غير نظام فإنه يودي إلى الهلاك(١).

كانت المجالس تقرأ في القصر في أيام معينة على الرجال وعلى النساء. يقرأها داعي الدعاة بعد أن يرفعها إلى الخليفة فيوقع عليها بعلامته. كان الداعي يجلس للرجال على كرسي الدعوة بالإيوان الكبير، وللنساء بمجلس الداعي وكان من أعظم المباني وأوسعها. فإذا فرغ من تلاوة المجلس على المؤمنين والمؤمنات حضروا إليه لتقبيل يديه فيمسح بالكتاب على رؤوسهم في موضع علامة الخليفة.

ومما تجدر الإشارة إليه الأهمية التي أولاها الفاطميون لتعليم المرأة. فكان داعي الدعاة يقرأ المجالس على النساء في الجامع الأزهر كما كان يقرأ المجالس في القصر على نساء البلاط وحاشيتهم.

في هذه الاجتماعات كان المؤمنون يقدمون النجوى إلى الداعي عيناً وورقاً وكان يحصل من ذلك مال جليل يدفع إلى بيت المال.

بدأت قراءة المجالس والفاطميون كانوا لا يزالون في شمالي افريقية. ومع أن مجموعات للمجالس كانت موجودة في القسم الأخير من القرن الرابع / العاشر، فإن أقدم مجموعة وصلت إلينا، المجالس المستنصرية،

(١) القاضي النعمان، تأويل دعائم الإسلام، الجزء الأول، ص ٧٧.

ترجع إلى منتصف القرن الخامس. وفي خلافة المستنصر أيضاً وضع المؤيد في الدين الشيرازي مجموعته الكبيرة التي لم يتم نشرها بعد.

وفي رسائل الحكمة (كتب الدروز المذهبية) التي كتبت في الثلث الأول من القرن الخامس ذكر للمجالس في عدة مواضع. وجاء في كتاب عمدة العارفين للأشرفاني أن المعز والعزيز والحاكم أفاضوا المجالس الباطنية والحقائق التوحيدية.

لم يعتنق المذهب الاسماعيلي سوى قلة من سكان شمالي افريقية ومصر في ظل الحكم الفاطمي. فغالبية سكان شمالي افريقية كانوا من أتباع المذهب المالكي بينما ساد المذهب الشافعي في مصر. والفاطميون، الذين عرفوا بالتسامح الديني، نادراً ما تدخلوا في معتقدات رعاياهم. لقد شمل تسامحهم مسلمين من غير مذهبهم وأهل الذمة. وبهذا الصدد يقول القلقشندي: كان من سيرهم في رعيتهم استمالة قلوب مخالفيهم. وكانوا يتألّفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك(١).

لم يختلف الفاطميون في ممارسة شعائر الدين إلاّ قليلاً عن السنة. أقاموا الصلاة في مواعيدها وكثيراً ما كان الخليفة يلقي خطبة الجمعة. وحافظوا على الصيام في رمضان واستقبلوا عيدي الفطر والنحر بحفاوة بالغة وكثرة الإطعام والسخاء في العطايا. وواظبوا على الزكاة والصدقة وأضافوا النجوى وهي التقدمة التي حملها أتباعهم من الاسماعيلية.

جرى النظر في الأحكام بموجب الفقه الشيعي – الاسماعيلي. والفقه الشيعي كالفقه السني مستمد من الكتاب والسنة غير أنهم أخذوا الأحاديث

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء الثالث، ص ٥٢٤.

المروية عن أهل البيت. كان قاضي القضاة في الغالب اسماعيلياً، لكن المعز لما استقر بمصر أقرّ القاضي السني أبا طاهر الذهلي في وظيفته وجعل معه القاضي النعمان ليفقهه في المذهب الاسماعيلي. ومن وجوه الخلاف مع الفقه السني تقسيم الأنصبة في الميراث، فقد أمر المعز القضاة أن يورثوا البنت جميع الميراث إذا لم يكن لها أخ أو أخت[1]. ومنع الفاطميون زواج المتعة وهو جائز عند الشيعة. كذلك لم يتخذ الفاطميون رؤية الهلال لمعرفة ابتداء شهر الصوم بل صار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم[2].

كان المذهب الاسماعيلي مذهب الدولة. وكانت الجماعات الاسماعيلية خارج حدود الدولة الفاطمية على صلة دائمة بمركز الدعوة تتلقى التوجيه والإرشاد. ومع هذا فقد ظهرت انحرافات وعقائد وممارسات خاطئة في بعض الأنحاء البعيدة عن مقر الدعوة.

في السند أجاز أحد الدعاة بعض المحرمات، وبينما كان المعز يدبر إقالته ورد الخبر بموته. وعين مكانه الداعي حلم بن شيبان الذي كتب إلى الخليفة يستوضح أموراً أحدثت بلبلة بين صفوف الجماعة، منها مسألة تسلسل الإمامة والخلافة. فبينما قالت الواقفية أن محمد بن اسماعيل كان آخر الأئمة، قال غيرهم إنه عهد إلى عبد الله بن ميمون القداح بخلافته وهذا عيّن من يخلفه وهكذا كان كل يسمي خليفته إلى أن بلغ العدد سبعة. فأوضح المعز أن الدعاة في دور الستر أشاروا إلى الأئمة بأسماء مستعارة كان لمعانيها دلالة تناسب الإمام. فقالوا إن الإمام من أولاد محمد بن اسماعيل هو عبد الله وقد قالوا الحق فهو عبدُ الله. أو أنه ولد ميمون القداح وذلك قول صدق أيضاً فهو ميمون المبارك السعيد قادح زند الحق وموري نور الحكمة[3].

(١) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ٥٨٧ – ٥٨٨.
(٢) المقريزي، الخطط، الجزء الرابع، ص ١٥٦.
(٣) النعمان، المجالس والمسايرات، الجزء الحادي والعشرون.

وفي زمن لاحق بعض من سمع هذا الكلام ولم يفهم معناه انحرف وجرّ غيره إلى الخطأ.

ومن الدعاة من خلط مذهب الفلاسفة بالدعوة فلا هو فهم كلام الفلسفة كما ذكره أهلها ولا هو أبان عن دين الله، وجاء من التخليط بما يدعو إلى الكفر. ويقول المعز: إن هذا وأمثاله داخله علة لايبريه منها إلاّ العلاج الطويل.

وكان المعز واسع الصدر يصحح بصبر وأناة أخطاء القادمين عليه، وأفكارهم وعقائدهم المشوشة. جاءه رجل من قبَل بعض الدعاة بكتاب مشوش. قال المعز: لكنني لطفت في تقويمه.

وكان بين الذين يدعون الولاء للفاطميين غلاة نسبوا إلى الأئمة معرفة الغيب وخوارق أخرى. وبعضهم ألّف كتباً تنفي الشريعة ونسبوها إلى الأئمة. وقد تبرأ المعز من هؤلاء المبتدعين وشركهم، وحذر المؤمنين من باطلهم وكفرهم.

ليس مستبعداً أن بعض الذين دخلوا الدعوة فعلوا ذلك وغايتهم تقويضها من الداخل. ولم يحذر المعز وحده من هذه الأعمال الهدامة ومقترفيها بل فعل ذلك قبله أبوه المنصور وجده القائم[1].

غير أن مسار الحركة جرى إجمالاً تبعاً للتعاليم التي بُثّت من مركز الدعوة حيث كانت الوفود تصل من الأقطار النائية في رافد لاينقطع، أولاً إلى تونس وبعدها إلى مصر، حاملة إلى الخلفاء الفاطميين هدايا المؤمنين ورسائل ولائهم.

لقد رسم لنا القاضي النعمان صورة للمعز وهو يستقبل الوفود القادمة

(١) المجالس والمسايرات، الجزء ١٩ و٢١ و٢٦.

من أقاصي البلاد ووجهه يشع بشراً لما يسمعه منهم عن سير الدعوة. فقد انتشرت الدعوة في كافة الأرجاء وفي هذا الانتشار الواسع مصداق لقول المعز في كتابه إلى الأعصم القرمطي: «فما من جزيرة في الأرض ولا اقليم إلاّ ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا يدلون علينا وينشرون علمنا بتصاريف اللغات واختلاف الألسن»(١).

تطلع المعز إلى ما وراء دار الإسلام لنشر الدعوة. ففي سنة ٣٤٦ / ٩٥٧ بعث إليه ملك الروم رسولاً حاملاً هدايا كثيرة ثمينة وكتاباً يسأل فيه هدنة مؤبدة ويطلب من الخليفة أن يبعث رسولاً إلى القسطنطينية. أجاب المعز أن الموادعة تجوز لمدة معلومة على ما يراه إمام المسلمين صلاحاً لهم وللدين ولو كانت مؤبدة لبطل الجهاد المفروض على العباد. أما إرسال رسول إلى القسطنطينية فإنه لايرىٰ حاجة إلى ذلك إلاّ إذا كان هناك داع لأمر يتعلق بالدين، عندئذ سيراسله ويوفد إليه رسولاً. فإن المعز كان يقصد إلى اقناع ملك الروم أن يعتنق الإسلام(٢).

نشطت الدعوة الفاطمية نشاطاً زاخراً في القرنين الرابع والخامس / العاشر والحادي عشر. فانتشرت من المحيط الأطلسي إلى ما وراء النهر في أواسط آسيا، وأقبل عليها الناس من مختلف الطبقات: فلاحون في الأرياف وعمال في المدن وقبائل في الصحراء ومفكرون قلقون.

كانت الدعوة أداة هامة في خطة الفاطميين لإزالة العباسيين فيحلون مكانهم. وكان دعاتهم يعملون في العراق من الكوفة إلى الموصل وداخل بغداد ذاتها. وانتشرت الجماعات الموالية للفاطميين على طريق التجارة على الشواطىء الجنوبية لبلاد فارس. فقد ذكر ابن حوقل الذي كتب في سنة ٣٦٧ / ٩٧٨ أن في جهات مكران قوم زعموا أنهم من العرب وهم في

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء ص ٢٥١ – ٢٦٥.
(٢) المجالس والمسايرات، الجزء السابع عشر.

دعوة أهل المغرب، ببلادهم أموال مجموعة وذخائر نفيسة مدخرة لإمام الزمان وصاحبه(١).

وتمكنت الدعوة من إقامة دولة مستقلة في كل من الهند واليمن. كانت اليمن مركزاً للدعوة الفاطمية منذ بدايتها واستمرت في نشرها إلى آخر الدولة الفاطمية. فقد أرسل ابن حوشب إلى اليمن في دور الستر عندما كان الإمام في سلمية. ومن اليمن أرسل ابن حوشب أبا عبد الله الشيعي إلى المغرب وابن الهيثم إلى الهند(٢).

فيما يتعلق بالدعوة في اليمن لدينا مصدر هام من زمن المستنصر التي امتدت خلافته طيلة القسم الأكبر من القرن الخامس. والمصدر «السجلات المستنصرية»، هو مجموعة الرسائل المتبادلة بين الخليفة وحكام اليمن.

في سنة ٤٢٩ / ١٠٣٧ رفع علي الصليحي، أحد زعماء القبائل، رايته فوق قمة مسار من جبال حراز. وكان الصليحي دخل الدعوة الفاطمية على يد أحد الدعاة في اليمن. ولما دخلت سنة ٤٥٥ / ١٠٦٣ كان الصليحي قد أخضع اليمن كله، جباله وسهوله، وأعلن باسم المستنصر الدعوة في كافة أنحاء ملكه. وأحضر إلى عاصمته صنعاء الحكام الذين تغلب عليهم وولّى غيرهم في المدن والحصون.

بعد وفاة علي في سنة ٤٥٩ / ١٠٦٦ خلفه ابنه المكرَّم. ولما تنحى المكرم من الحكم بعد فترة وجيزة تولت زوجته أروى حكم البلاد ورئاسة الدعوة.

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، الجزء الثاني ص ٣١٠.
(٢) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص ٤٥، ٤٧.

تحوي السجلات المستنصرية معلومات بالغة الأهمية عن سيدتين عظيمتين هما أروى ووالدة زوجها أسماء اللتان احتلتا مقاماً رفيعاً في الدولة وفي الدعوة وكانتا موضع احترام الخليفة. فمن بين رسائل الخليفة اثنتان موجهتان إلى أسماء، وفي رسالة إلى زوجها يثني الخليفة على أسماء لسعيها في مصالح الدين واهتمامها بالصالحات ومعونة الفقير والتحنن على الكبير من المؤمنين والصغير. كذلك كتب الخليفة إلى المكرم مبجلاً مزايا والدته. وكتب إلى أروى داعياً إياها أن تسير في خطى أسماء التي أخرجها الخليفة «من زمرة ربات الحجول إلى سياسة الدولة وتقديم الرجال، لما لمع لنا نور إيمانها ونيتها وإيقانها، وأنها بالزهد معروفة، وبالتقى موصوفة، فاستحقت ما خولناها، ورعت أحوال المؤمنين رعاية وفت على رعاية الدعاة وسلكت في تربيتهم مسلكاً «قارب مسلك الهداة».

وفاقت أروى ما بلغته أسماء من رفعة المقام. وكانت أسماء تولت تأديبها وتهذيبها قبل زواجها إلى المكرّم ابن عمها.

في تاريخ اليمن لعمارة الحكمي صورة مشرقة للملكة أروى، وعمارة نفسه يمني عاش في زمن قريب من الأحداث التي يرويها. كانت أروى كاملة المحاسن، جمالاً وخُلُقاً وعلماً، ذات ثقافة واسعة، حفظت الأخبار والأشعار والتواريخ، ولم يكن أحسن من تعليقاتها لفظاً ومعنى بين سطور ما تقرأه من الكتب. هذا إلى جانب تبحرها بعلوم الدعوة.

أسند إليها المستنصر أمر الدعوة وسياسة الدولة. وفي سجل موجه إلى كافة السلاطين الصليحيين والزواميين والمشايخ الحجازيين وطوائف المؤمنين يوصيهم المستنصر بطاعة الملكة التي استكفاها أمير المؤمنين في تدبير أمره فأقامها مقام من يقول فيُسمع ويأمر وينهي فلا يراجع وحرّم عليهم كافة مخالفتها والرد لأمرها والقعود عن مناصرتها.

وفي نزاع حصل بين اثنين من كبار زعماء اليمن فوّض أمير المؤمنين للملكة أروى أمر فصل هذه القضية لما ارتضاه من سداد رأيها.

بلغت أروى قمة التدرج في الدعوة الاسماعيلية – الفاطمية فكانت حجة الإمام وهي المرتبة التي تلي داعي الدعاة مباشرة، وبهذه الصفة أسندت إليها الدعوة في اليمن وفيما يليها من الأقطار، في عمان وفي الهند كما يوضح ذلك السجل الصادر في ذي العقدة من سنة ٤٨١ / ١٠٨٩. وفي السجل نفسه يقرّ الخليفة اختيار أروى لداعيين، أحدهما يخلف الداعي المتوفى الذي كان مسؤولاً عن الدعوة في الهند والثاني ليحل محل الداعي في عمان الذي تخلى عن الدعوة وطلب التجارة.

ترجع العلاقات بين اليمن والهند إلى قبل الإسلام حين نشطت التجارة بين جانبي المحيط الهندي. ولما جاء الفتح الإسلامي في العقد الأول من القرن الثامن الميلادي نتج عن التقارب الذي حققه بين بلدان غربي آسيا انعاش كبير للتجارة من جديد. وبعد الفتح بقليل استوطنت جماعات من المسلمين السند.

وأعطى فتح الفاطميين لمصر دفعاً جديداً للتجارة. فقد استخدم الفاطميون العلاقات التجارية إلى جانب الدعوة، لبسط سيطرتهم والوصول إلى غايتهم في زعامة العالم الإسلامي. ولقد سار الدعاة الفاطميون والتجار يداً بيد بحيث أن كلمة بهرة ومعناها تاجر في لغة سكان غوجرات في غربي الهند هي الاسم الذي عرف به الاسماعيليون في تلك المنطقة.

نشر الدعوة في الهند دعاة من اليمن، وقامت في السند دولة اسماعيلية عاصمتها الملتان وحاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يستميل محمود الغزنوي إلى الدعوة. لكن الغزنوي حاصر الملتان سنة ٣٩٦ / ١٠٠٦ وفرض الجزية

على السكان القرامطة، أي الاسماعيلية، وهم في نظر محمود هراطقة وملحدون. عاد محمود إلى مهاجمة الملتان ثانية في سنة ٤٠١ / ١٠١٠ وأوقع بالقرامطة عقاباً قاسياً. وسجن الحاكم أبا الفتوح داود في قلعة غور في غزنة حيث توفي.

استمر الحكم الغزنوي للسند في أيام أبناء وأحفاد محمود. ولما ضعف الغزنويون استقل السند تحت حكم اسرة سمره. وقد جرت مراسلات بين بهاء الدين أحد كبار دعاة مذهب الدروز وبين حكام من هذه الأسرة.

بقيت الدعوة إلى حين وفاة المستنصر في سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ تابعة للإمام – الخليفة ولداعي الدعاة في القاهرة. ولكن النزاع على الخلافة بين نزار والمستعلي ترك أثره على الدعوة. فقتل نزاريون في سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ الآمر خليفة المستعلي، واختفى ابن الآمر الطفل واسمه الطيّب. وقد يكون أخفي في اليمن. وانقسمت الدعوة. فالنزارية، وتدعى الدعوة الجديدة، نشرها حسن بن الصباح في بلاد العجم والهند وسورية. ويعرف أتباعها باسم الخوجا. ونقلت الدعوة القديمة، الطيبية، مقرها إلى اليمن، ومن هناك استمر نشاطها في الهند، ويدعى أتباعها البهرة.

الفصل السادس

الحاكم بأمر الله

لقد أفردنا للحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي السادس، فصلاً خاصاً وذلك للمقام الذي يحتله في مذهب الدروز. ولد في سنة ٣٧٥ / ٩٨٥ وخلف والده العزيز بالله في ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ / ٩٩٦ وكان يبلغ من العمر احدى عشرة سنة وخمسة أشهر.

وأخبر الحاكم فيما بعد صديقه المؤرخ المسبّحي أنه لما مرض العزيز في بلبيس فيما كان يعد حملة ضد الروم في سورية، دعا ولده إلى جانبه فضمه إلى صدره وأعرب عن قلقه عليه، ثم قال له: إمضِ يا سيدي فالعب فأنا في عافية[1]. ومات العزيز في ذلك اليوم. وفي اليوم التالي توجه الفتى في موكب حافل إلى القاهرة وبويع خليفة.

كان الحاكم آخر الخلفاء الفاطميين العظام. وخلال حكمه من سنة ٣٨٦ - ٤١١ / ٩٩٦ - ١٠٢١ تم للفاطميين السيطرة التامة على سورية وتمتعت البلاد بفترة من الازدهار. ونجح الفاطميون في صد حملات الروم على سورية بقيادة الامبراطور باسيل الثاني. وفي سنة ٣٨٧ / ٩٩٧ هُزم اسطول كان الروم ارسلوه إلى صور لمساعدة أحد الثائرين. وفي سنة

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، ص ١٢٤.

٣٩١ / ١٠٠١ عقدت هدنة لمدة عشر سنوات بين الحاكم وباسيل وطدت السيادة الفاطمية على سورية(١).

كانت حلب حتى ذلك الحين خارج سيطرة الفاطميين غير أن نزاعاً على السلطة في حلب أسفر عن تسليم المدينة والقلعة إلى الوالي الذي أوفده الحاكم. وبخضوع حلب سنة ٤٠٦ / ١٠١٥ باتت سورية كلها باستثناء انطاكية وجيب في جوارها تحت الحكم الفاطمي.

وكان أمير الموصل قرواش بن المقلد العقيلي قد خطب في سنة ٤٠١ / ١٠١٠ للحاكم بأمر الله بأعماله كلها: الموصل والانبار والمدائن والكوفة وغيرها(٢).

ونشط دعاة الحاكم في العراق وبلغت دعوته إلى أبواب بغداد. وكان للحاكم أنصار داخل عاصمة العباسيين. وخلال شغب بين السنة والشيعة سنة ٣٩٨ / ١٠٠٧ هتف سكان حي الكرخ الشيعي: «حاكم يا منصور»(٣).

ومما لا شك فيه أن الحاكم شاطر أسلافه الرغبة في ضم العراق، وهو الطريق إلى الشرق، لتحقيق رؤياهم في امبراطورية عالمية، فذلك يتفق مع رؤيا الحاكم وإيمانه الشديد برسالته الاصلاحية. ويعكس رؤياه في إعادة وحدة الإسلام البيت التالي:

واسقي جيادي من فرات ودجلة   واجمع شمل الدين بعد التفرق(٤)

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص ٥١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء التاسع ص ١٢٠ – ١٢١. يحيى بن سعيد الانطاكي، تاريخ، ص ٢٤٦ – ٢٥٣.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء التاسع، ص ٢٢٣.
(٣) ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الجزء السابع، ص ٢٣٧ – ٢٣٨.
(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. الجزء الرابع، ص ١٩٦.

كان الحاكم شخصية نادرة المثال، عظيم الهيبة، يوحي بالخشية والرهبة. ولقد كان مثالياً عمل على تحقيق اصلاحات شاملة دينية وأخلاقية واجتماعية. وكان في اندفاعه للاصلاح عنيفاً على من يحاول مخالفة مساعيه واتصفت بعض تصرفاته بالغرابة والغموض. وتميّز طبعه بالتطرف. كرم لاحدَّ له وعدالة صارمة، وقد تخلى عن مظاهر الملك بما فيها من روعة وبهاء وطرح المقتنيات الدنيوية جانباً.

إن الكتابة عن الحاكم مهمة شاقة. فبالإضافة إلى ما قيل عن تطرفه فإن انحياز معظم المصادر ضد الفاطميين انعكس في صورة مشوهة للخليفة وعهده. وإذا محصّت الروايات واستخلص منها ما هو قابل للتصديق مما هو محض افتراء، مع الأخذ بعين الاعتبار رغبة الحاكم الملحة في الاصلاح والحاجة الشديدة في تلك الظروف لفرض الأمن والهدوء، أمكن رسم صورة أقرب إلى الحقيقة(١).

كان الحاكم قوي العزيمة حازم السياسة أمسك مقاليد الحكم بيده ومارس السلطة بعدالة ليس فيها لين. وكانت الأحوال إذ ذاك تتطلب أسلوباً قاسياً لمعالجة الاضطرابات الداخلية. فالتمرد الذي قاده أبو ركوة أشاع الفوضى في مقاطعات الدلتا وأمكن إخماده بصعوبة. وتذبذب بنو الجراح رؤساء قبيلة طي بين الفاطميين والروم ونهبوا المدن والريف وقوافل الحجاج. وفي سنة ٤٠٣ / ١٠١٢ دعا مفرج بن دغفل الجراح شريف مكة العلوي إلى الرملة وأعلنه خليفة. فأرسل الحاكم جيشاً اضطر بني الجراح إلى الاستسلام. أما الشريف ففر إلى مكة ثم سعى إلى نيل العفو وعفي عنه(٢).

(١) كتب المستشرق الالماني August Müller بنزاهة وانصاف عن الحاكم بأمر الله في كتابه Der Islam in Morgen und Abend-land الجزء الأول ص ٦٢٩ – ٦٣٣.
(٢) M. Canard, Jarrahids, E.I. 2

وكانت هناك متاعب اقتصادية. ففي سنوات انخفاض فيضان النيل كانت المجاعة تحوم فوق البلاد. كما كان هناك مساوىء أخلاقية من فساد وفجور واستغلال وجشع مما أثار غضب الحاكم وأدى إلى اتخاذه التدابير الصارمة.

كان الحاكم بأمر الله الخليفة والوزير في آن يشرف بنفسه على شؤون الحكم ويعمل على تطهير الإدارة والقضاء من الرشوة والفساد[1] وراقب عن كثب شؤون القضاء. فكان يتطلب من شاغلي المناصب القضائية الاستقامة التامة. وحينما عيّن حسين بن علي بن النعمان في منصب قاضي القضاة سنة ٣٨٩ / ٩٩٩ أمر له بضعف الصلات والأرزاق والاقطاعات التي كانت لسلفه وشرط عليه أن لايتعرض لدرهم من مال الرعية أي المال المودع في ديوان القاضي. غير أن القاضي حاول أن يستحوذ على مبلغ عشرين ألف دينار أودعها رجل لديه لينفق منها على ابنه. وبعد وقت قليل ولم يكن أنفق من هذا المال إلاّ أقله أبلغ القاضي الابن أن المبلغ قد استهلك. فاشتكى الشاب إلى الخليفة الذي استدعى القاضي وسأله عن المال. ولما نفى أن يكون بقي شيء من المودع لديه، أمر الحاكم باحضار سجل القاضي وراجعه فوجد أن جزءًا ضئيلاً من المبلغ قد أُنفق. فذكّر القاضي بالنعم التي أسبغها عليه وبالأمر الذي وجهه إليه بأن لا يمس ما يخص الناس. وقد عزل القاضي وسجن ثم قتل[2].

وكان قاضي القضاة عادة اسماعيلياً وينتمي غالباً إلى أسرة القضاة المنحدرة من النعمان الذي قدم مع المعز لدين الله من شمالي افريقية. وفي سنة ٤٠٥ / ١٠١٥ أقر الحاكم في منصب قاضي القضاة أحمد بن أبي العوّام وهو

(١) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٢٦.
(٢) ابن حجر العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر، ص ٢٠٨-٢١٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء العاشر ص٣٨٥-٣٨٨.

فقيه حنبلي. ولما قيل للخليفة: ليس هو على مذهبك ولا على مذهب من سلف من آبائك، أجاب: هو ثقة مأمون، مصري عارف بالقضاء وبأهل البلد، وما في المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره. وعين الحاكم أربعة قضاة اسماعيليين لمعاونته[1].

ومنعاً من أن تزاول الشرطة مهمتها بشكل اعتباطي نصّب الحاكم في الشرطة في مصر وسائر المدن شاهدين من الشهود العادلة وأمر أن لايقام على مرتكب جريمة حدّ إلا بعد أن يصح عندهما أنه مستوجب لذلك. وكتب يحيى بن سعيد الانطاكي وهو معاصر للحاكم: «وأظهر من العدل ما لم يسمع بمثله»[2].

وبلغ من اهتمام الحاكم بتطبيق القانون أنه كان يشرف على الحسبة بنفسه. وتتعلق الحسبة بالأخلاق العامة. ومهمتها تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمحتسب لايكون إلاّ من وجوه العدول وأعيانهم وله نواب في العاصمة والأقاليم. ومن واجبات المحتسب السهر على السلوك والاشراف على تأدية الفروض الدينية. كما كان يتفقد المعاملات في السوق، فيتحقق من الموازين والمقاييس ويكافح الغش ويضبط الأسعار ويعاقب المتجاوزين. ومن مهمته أيضاً أن يتحقق من أن معلمي المدارس لايعاقبون تلامذتهم بقسوة وأن أصحاب الدواب يعاملونها برفق.

كان الحاكم بأمر الله عطوفاً على الرعية، قريباً من الناس، وكثيراً ما كان يرى في وسطهم مختلطاً بهم، ولا أحد يحجب الناس ولا يمنعهم عنه. وكان يقف بينهم طويلاً لسماع شكاويهم ويأخذ رقاعهم ويقضي حوائجهم. وبقدر عطفه على الرعية كان شديداً مع أهل السوء. وأما الذين أسند

(١) ابن حجر العسقلاني، رفع الاصر عن قضاة مصر، ص ١٠٢.
(٢) يحيى بن سعيد الانطاكي، تاريخ، ص ٣٠٧.

إليهم مناصب عالية وأساءوا استعمال السلطة فإن عقابهم كان سريعاً وحاسماً.

كان الخليفة يطوف الأسواق في الليل والنهار فيرى المساوىء الاجتماعية والأخلاقية ومدى الحاجة إلى الاصلاح. فصدرت سجلات عدة لمكافحة الرذيلة. وتكررت القوانين التي نهت عن الخمر وحرّمت صنعه ونقله وبيعه. والسجل المنهى فيه عن الخمر والمؤرخ في ذي القعدة من سنة ٤٠٠ / ١٠١٠ موجود بين رسائل الحكمة ويصف المسكر بأنه مجمع السيئات. وأُغلقت بيوت اللهو ومنع استعمال الآلات الموسيقية وحرّم بيع الجواري المغنيات، كما منعت نزهات المتعة في النيل عندما كان يختلط الرجال بالنساء في مجون وخلاعة. وأمرت النساء بأن يلزمن منازلهن.

ويبدو منع بعض أنواع الطعام مثل الملوخية والسمك الذي لا قشر له من الأمور الغريبة. أما منع ذبح البقر فكانت الغاية منه حفظ الماشية لحراثة الأرض.

وفي سعيه لتحقيق العدالة الاجتماعية أمر الحاكم باسقاط عدة رسوم ومكوس عادت الفائدة من إبطالها على عامة الناس. وأعيدت إلى أصحابها الممتلكات والبضائع المصادرة دون وجه حق[1]. وحين أصبحت حلب تحت السيادة الفاطمية كتب الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠٦ / ١٠١٥ توقيعاً لأهل حلب بالغاء المكوس والمظالم والصفح عن الخراج «لتعلموا أن ضياء الدولة النبوية قد لمع وظهر وأن حندس الظلام قد انجاب ودثر». والتوقيع متوج بعلامة الحاكم: «الحمد لله رب العالمين». وكانت الوثيقة في حوزة ابن العديم مؤرخ حلب الذي أورد نص التوقيع[2].

(١) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني، ص ٢٢٧؛ يحيى بن سعيد الانطاكي، تاريخ، ص ٣٠٨.
(٢) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، الجزء الأول، ص ٢١٤.

كان الحاكم عنيفاً في مكافحة الاستغلال. ففي سنة ٣٩٨ / ١٠٠٨ انخفض فيضان النيل فقل الطعام واستجار الناس بالحاكم. فوقف الخليفة أمام بوابة قصره وقال إنه ذاهب إلى جامع راشدة، في خارج القاهرة، وعند عودته يجب أن تكون جميع الحبوب المخزونة موضوعة في الشارع أمام بيوت مخزنيها ومن يخالف تضرب عنقه وتحرق داره. ثم توجه وتأخر إلى آخر النهار. فلم يبق أحد من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من منزله وشوّنها في الطرقات. «فامتلأت عيون الناس وشبعت نفوسهم» وأمر الحاكم تجار الحبوب بتجهيز الكمية المطلوبة يومياً بالسعر الذي حدده والذي يوفر لهم ربحاً كافياً ومن لا يفعل يُختم على مخزونه إلى حين دخول الغلة الجديدة. فاستجابوا لقوله وأطاعوا أمره وانحلّ السعر وارتفع الضر[1].

لقد عمل الحاكم جهده لإغاثة الناس في أوقات الشدة وذلك بتحديد الأسعار ومراقبتها وبذل العطاء والصدقات. ويجمع المؤرخون على كرم الحاكم وجوده. فقد فاقت عطاياه وإحساناته كل حد، ولما اتصل به عن أمين الامناء بعض التوقف عن صرف ما أمره به، كتب إليه رقعة بخطه نسختها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله كما هو أهله ومستحقه

أصبحت لاأرجو ولا أتقي إلاّ آلهي وله الفضل
جدي نبي وإمامي أبي وديني الإخلاص والعدل

ما عندكم ينفد وما عند الله باق. والمال مال الله والخلق عيال الله ونحن أمناؤه في الأرض. أطلق أرزاق الناس ولاتقطعها والسلام»[2].

(١) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ١٧ - ١٨.
(٢) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٢٩.

ومن التدابير التي اتخذها الحاكم وتتسم بأهمية خاصة عتقه لعبيده وتوزيع أملاك الدولة. فكان من حين إلى آخر يهب الناس من العامة أراضي وممتلكات أخرى حتى لم يبق في نهاية عهده من أملاك الدولة سوى القليل. وفي سنة ٤٠٤ / ١٠١٣ أعتق سائر مماليكه بأسرهم من الذكور والإناث وحررهم جميعاً لوجه الله تعالى وملّكهم أمر نفوسهم والتصرف فيا يملكونه[١].

ومما يبرز الجانب الرقيق من طبيعته أن رجلاً فقيراً سرق قنديلاً من الفضة من الجامع العتيق. فرُفع للقاضي فرفعه إلى الحاكم الذي قال له: «ويلك سرقت فضة الجامع. فأجاب الرجل: إنما سرقت مال ربي وإني فقير ولي بنات جياع والإنفاق عليهن أفضل من تعليق هذا في الجامع». فدمعت عينا الخليفة وأمر القاضي بأن يجهّز البنات بثلاثة آلاف دينار ويزوجهن. وأعيد القنديل إلى الجامع[٢].

وأنفق الحاكم بسخائه المعروف على تشييد المساجد وترميمها وعلى القائمين عليها. وجدد الجامع الأزهر وهو أول جامع بني في القاهرة كما جدد الجامع العتيق الذي بناه عمرو بن العاص والمعروف بتاج الجوامع. وبنيت جوامع جديدة أشهرها الجامع الأنور والمعروف أيضاً بجامع الحاكم وكان بُدىء بتشييده في عهد العزيز.

وأمر الحاكم بعمل كشف على المساجد التي لاغلة لها والتي لاتقوم غلتها بما تحتاج إليه فزاد عددها على ثمانمائة مسجد. فأطلق لها من بيت المال مبالغ تدفع في كل شهر. وأوقف سبع قرى يصرف مدخولها على القرّاء والمؤذنين وفي وجوه دينية وخيرية أخرى.

(١) يحيى بن سعيد الانطاكي، تاريخ ص ٣٠٨، ٣١٠؛ المقريزي، الخطط، الجزء الرابع، ص ٧٤.

(٢) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ٦٠٧.

وفي رمضان سنة ٤٠٠ / ١٠١٠ أوقف الحاكم من أملاكه الخاصة في القاهرة والفسطاط قيساريات ودوراً ومنازل وحوانيت وساحات على دار العلم التي أنشأها وعلى الجامع الأزهر والجوامع التي بناها. وكتب الوثيقة قاضي القضاة[١].

إن التسامح الديني من ميزات الخلفاء الفاطميين لكن الحاكم بأمر الله في تعامله مع أهل الذمة تحوّل أحياناً عن تقاليد أسرته. وكان يأمل أن يؤدي اعتناق الذميين الإسلام إلى التعجيل في قيام دين عالمي. ولما وجد أن الذين تحولوا عن دينهم إمّا أجبروا على ذلك أو أنهم تظاهروا خوفاً أو رغبة في مكاسب دنيوية أذن لهم بالرجوع إلى دينهم.

أما تدمير الكنائس فله صلة بالحرب القائمة مع الروم ولاقى قبولاً خاصة في سورية التي عانت من غزوات الروم المتكررة. وكان الحاكم صديقاً للأنبا سلمون رئيس دير طورسينا وكثر التقاؤه به عندما كان الحاكم يخرج إلى تجواله الانفرادي في الصحراء جنوبي القاهرة. وكان يحادثه ويلبي التماساته بإعادة أملاك الكنيسة وإعادة بناء الأديرة والكنائس.

وتعتبر وثيقة عبرانية، تعود إلى القرن السادس / الثاني عشر، عهد الحاكم عصراً ذهبياً لعدله وحبه للصلاح.

وحاول الحاكم التوفيق بين السنة والشيعة لتوحيد المسلمين. وقد مال في وقت ما إلى المذهب المالكي وعيّن شيخين من شيوخ السنّة للجلوس في دار العلم وأمر أن يقرأ بها فضائل الصحابة. وفي رمضان ٣٩٩ / ١٠٠٩ قرىء سجل على سائر المنابر فيه استرضاء لأهل السنة. فسمح بتلاوة صلاة الضحى والتراويح في المساجد، وأن يتلى الأذان حسب النداء عند السنة والشيعة على السواء، وأن يصوم الصائمون ويفطروا على حسابهم، أي

(١) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني، ص ٢٧٣ – ٢٧٥؛ والجزء الرابع ص ٤٩ – ٥٠.

اعتاد أهل السنة على رؤية الهلال بينما يحدد الفاطميون بدء الشهر القمري بموجب حسابات فلكية. وأجل السجّل روح المصالحة هكذا: «لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده وإلى الله ربه معاده عنده كتابه وعليه حسابه»[1].

وسار الحاكم أبعد من ذلك في محاولة مصالحة السنّة. فقد حذف من الأذان، ولفترة قصيرة، التعبير الشيعي الخاص «حيّ على خير العمل» الذي يلي «حي على الصلاة، حي على الفلاح» المشترك بين الشيعة والسنّة. وذهب في موكبه إلى الجامع العتيق وأمَّ بنفسه المصلّين في صلاة الضحى التي ليست من الصلوات الخمس.

بقي نشر الدعوة الفاطمية ركناً من أركان الدولة والوسيلة إلى ما رجاه الفاطميون من تحقيق طموحهم في قيام دولة عالمية. وانتشر دعاة الحاكم، كما في زمن أسلافه، في مختلف البلدان. وقد أهدى أبو يعقوب السجستاني الداعي في خراسان أحد مؤلفاته «المبدأ والمعاد» إلى الإمام الحاكم بأمر الله. وصمدت الجماعة في الهند في وجه حملات السلطان محمود الغزنوي الذي حاول استئصال الاسماعيليين من السند. إن العلاقات بين هذه الجماعة والمقر الرئيسي في القاهرة تعكسها المراسلات التي تتضمنها كتب الدروز المذهبية بين الشيخ بهاء الدين والزعماء في السند. وازدهرت الجماعة في اليمن. وقبل نهاية القرن حلّت اليمن مكان القاهرة كمركز للدعوة وذلك عقب النزاع بين نزار والمستعلي من أجل الخلافة.

وفي سجل لا يزال محفوظاً وجهه الحاكم إلى داعيته في اليمن هارون بن محمد يوصيه أن يتبع في إرشاد المستجيبين كتاب الله وسنّة نبيّه والمأخوذ عن

(١) المقريزي، الخطط، الجزء الرابع، ص ١٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

الأئمة المهديين وأن تكون فتواه للمستفتين في الحلال والحرام من كتاب «دعائم الإسلام».

كان للدعاة عدة مراكز في سورية. ففي زمن العزيز كانت الرملة وعسقلان وعكا وصور ودمشق وجبل السماق مراكز يقيم فيها الدعاة. ومن المرجح أن الدعاة استمروا يقيمون في هذه المراكز في زمن الحاكم. وتذكر كتب الدروز الرملة وعسقلان وعكا بين مراكز الدعوة. وكان داعية الحاكم في جزيرة الشام أبو الفوارس أحمد بن يعقوب مؤلف رسالة في الإمامة. وظل جبل السمّاق، حيث وجدت الاسماعيلية ملاذاً لها في فترة استتار الأئمة، مكاناً رحباً للدعوة ومركزاً للمجتمع الدرزي الباكر. وكان كبير دعاة الحاكم في مقاطعة فارس موسى بن داود والد داعي الدعاة هبة الله الشيرازي. وفي سجل للحاكم يرد على موسى الذي كان كتب للخليفة أنه أقام ولديه مكانه، توبيخ للداعي لما ادعاه من توريث ولديه الدعوة؛ فهذا الأمر يعود إلى ما يراه الإمام في وقته وحينه[1].

وأعظم الدعاة حميد الدين الكرماني كان داعية الحاكم في العراقين وقد استدعاه الحاكم إلى القاهرة سنة ٤٠٧/١٠١٦ عندما برزت آراء عن ألوهية الحاكم أحدثت اضطراباً في أحوال الدعوة.

ألف الكرماني عدة رسائل في إمامة الحاكم، ردّ في إحداها، «الكافية» على تهجم إمام زيدي. وفي «الرسالة الواعظة» وبّخ الأخرم الفرغاني لقوله بألوهية الحاكم. وفي رسالة «مباسم البشارات» اقتبس فقرات من التوراة حيث أُوّلت التنبؤات بأنها تشير إلى مجيء الحاكم. وفي «المصابيح» أكّد على وجوب طاعة الإمام الحاكم بأمر الله لقيامه بكل ما يفترض على الإمام من الجهاد في سبيل الله وحفظ الجماعة وإقامة رسوم الشريعة وتأييدها؛

(١) حميد الدين الكرماني، مباسم البشارات، ص٢٢٢.

ويقول: إن دعوة الحاكم قائمة ودعاته في كل بقعة يدعون إلى طاعة الله بإمامته وإلى توحيد الله بواسطته. وعدله يجمع الخاص والعام فهو قائم ليلاً نهاراً لتقوية كلمة الحق وإغاثة المظلوم، ونهيه عن المنكر شاع خبره في الآفاق كما ذاع خبر زهده وورعه وسخائه في معونة ذوي الحاجات، هذا إلى جانب غزارة علمه بالكتاب والشريعة والعلوم الدينية[1].

ونشطت الدعوة واتسع نطاقها في عهد الحاكم وبمؤازرته وسارع الناس للانضمام إليها. ففي سنة ١٠٠٥/٣٩٥ كان قاضي القضاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان يجلس لقراءة مجالس الحكمة في أيام الآحاد للرجال وأيام الأربعاء للنساء وأيام الثلاثاء للأعيان. وقدم الناس من سائر النواحي والضياع وازدحموا على الدخول في الدعوة فمات في الازدحام عدة من الرجال والنساء[2].

وأنشأ الحاكم دار العلم وتدعى أيضاً دار الحكمة وأوقف عليها من ماله الخاص. وكان يرأسها داعي الدعاة ويجتمع إليه التلامذة من مذهبهم. غير أن دار العلم لم تكن فقط مركزاً لتثقيف الدعاة لنشر الدعوة الفاطمية. بل يمكن وصفها بأنها أقدم جامعة. فقد اجتمع فيها إلى جانب فقهاء الاسماعيلية علماء في سائر حقول المعرفة. فكان هناك القراء وأئمة اللغة والمحدّثون والفقهاء والأطباء وعلماء المنطق والرياضيات والفلكيون. وكان الخليفة ينفق عليهم بسخاء وكان للمكتبة خزان وللدار قوّام

(١) بعد مرور زمن على غياب الحاكم كتب داعي اليمن عماد الدين إدريس (المتوفى سنة
١٤٣٤/٨٣٨) في وصف الإمام الحاكم بأمر الله يقول: وكانت دولته أعز دولة، وصولته في المسجد
أعظم صولة، زاهرة أنواره، عالي مناره، حقائق علومه منشورة وآيات فضله بينة مشهورة،
ودولته قاهرة وأيام سعده ظاهرة، وحججه لكل عدو قاهرة وخيراته لأوليائه المتصلين به غامرة
ومعجزاته جمة باهرة.
عماد الدين إدريس، زهر المعاني، مخطوط الجامعة الأميركية في بيروت.

(٢) المقريزي، الخطط: الجزء الرابع، ص١٥٨.

وخدام وفراشون أجرى عليهم الأرزاق من ماله. وقد وهب الحاكم دار العلم من الكتب من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم يرَ مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك. وأمّ دار العلم فئات مختلفة من طلاب العلم بعضهم حضر لاستماع المحاضرات، وآخرون لنسخ المخطوطات، وغيرهم لقراءة الكتب والنظر فيها. وكانوا جميعهم يزوّدون بالورق والحبر والأقلام[1].

وفضلاً عن مكتبة دار العلم كان هناك المكتبة العظيمة في القصر وهي من مفاخر العهد الفاطمي. وتقول عنها المصادر إنها من عجائب الدنيا. ويقول المؤرخون إنها كانت تحوي مئات ألوف المجلدات. وجاء في المقريزي نقلاً عن أبي طي (عاش من سنة ٥٥٥ - ١١٦٠/٦٣٣ - ١٢٣٥) أنها كانت تشتمل على مليون وستمائة ألف كتاب[2].

وكانت الكتب مفهرسة ومرتبة على رفوف مقسمة إلى بيوت لها أبواب مقفلة. وشملت خزائن الكتب هذه جميع أنواع المعرفة في ذلك الزمن، فضمت علوم القدماء خاصة الفلسفة والعلوم اليونانية؛ والعلوم الإسلامية الصرفة: الحديث والفقه والتاريخ والسير واللغة والأدب؛ وحقول أخرى من المعرفة طوّرها المسلمون: الفلسفة، وعلم الكلام والروحانيات والمنطق، والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية.

وحوت المكتبة النفائس من الكتب التي يكاد لا يوجد مثلها. وبين كنوزها نسخة من تاريخ الطبري بخطه ونسخة من كتاب العين، وهو أول قاموس عربي، بخط مؤلفه الخليل بن أحمد (المتوفى حوالى سنة ٧٨٦/١٧٠) واضع علم العروض. وكانت تحوي ألفين وأربعمائة مصحف بخطوط منسوبة

(١) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني، ص٣٣٤ - ٣٣٥.

(٢) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني، ص٢٥٥.

زائدة الحسن وعدة مصاحف بخط ابن مقلة وابن البوّاب مكتوبة بالذهب المكحل باللازورد.

وربما كان بين تلك المصاحف المصحف الذي نسخه وزخرفه وجلّده الخليفة الفاطمي المنصور والذي كان الخليفة المعز يفخر به، ومصحف آخر لا يقل عنه حسناً بخط المعز نفسه.

ومن اهتمام الحاكم بالعلم وأهله أنه كان يجلس في قصره للعلماء من دار الحكمة: الفقهاء والأطباء وأهل الحساب والمنطق. وكانت كل طائفة منهم تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه. وبعد أن يستمع إليهم، كان الحاكم يخلع عليهم ويجزل لهم العطاء(١).

وكان للحاكم أصدقاء من أهل العلم بينهم المؤرخ المسبحي وأبو الحسن علي بن يونس عالم الفلك الشهير، وقد وضع للحاكم مؤلفه الرئيسي الزيج الحاكمي الكبير(٢). وهنالك عالم آخر كرّمه الحاكم هو أبو علي الحسن بن الهيثم أشهر علماء المسلمين في الفيزياء والبصريات. دعاه الحاكم من البصرة ولما وصل إلى مصر خرج الخليفة إلى ظاهر القاهرة لملاقاته. وقد اعتقد ابن الهيثم بإمكانه تنظيم فيضان نهر النيل ولكن عندما أدرك استحالة ذلك ادّعى الجنون لخشيته من غضب الحاكم(٣).

وحوالى سنة ١٠٠٩/٤٠٠ تخلى الحاكم عن كل ما يتعلق بالملك من أبهة وفخامة مظهر. من ذلك سرير الذهب، والسيف المرصع بالجوهر، والعمامة التي تعلوها الدرة اليتيمة، والمظلة المطرزة بالذهب والأحجار الكريمة، والمواكب الفخمة الزاهية أيام الأعياد والمآدب الحافلة التي يقدم

(١) المقريزي، الخطط، الجزء الثاني، ص ٣٣٥.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، الجزء الأول ص ٣٧٥.
(٣) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٥ – ١٦٨.

فيها الطعام في صحاف من الذهب والفضة والبلور، والأثاث الموشّى بالذهب والمتلألىء بريقاً يبهر العيون. طرح كل ذلك جانباً، وارتدى البسيط من الملبس، واقتصر في الطعام على ما تدعو إليه حاجة الجسم ليبقى قائماً، وزهد في ملاذ الدنيا، وركب الحمار بدل الجياد في الذهاب إلى الجامع وفي نزوله لتفقد الأسواق وطوافه بين الناس.

وفي سنة ١٠١٢/٤٠٣ أمر الحاكم أن لا يقبل أحد له الأرض ولا يقبل ركابه ولا يده عند السلام عليه في المواكب، ولا يزاد على قولهم: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

كان من عادة الحاكم الركوب إلى الصحراء برفقة واحد أو اثنين من خدمه. وتكرر طوافه في الصحراء حيث كان يستغرق في هدأة الليل في التأمل. وفي ليل ٢٧ شوال ٤١١ / شباط ١٠٢١ لم يعد. والرواية المألوفة عن غيابه تقول إنه قتل. ومن الواضح أن هذه الرواية تناقلتها المصادر الواحد عن الآخر. ويقول سفيروس الأشموني، الذي كتب بعد ثلاثين سنة من غياب الحاكم، إنه ذهب في إحدى الليالي إلى حلوان وأمر خادمه المرافق له بالعودة إلى القصر. وفي اليوم التالي بحثوا عنه واستقصوا في البحث ولم يعثروا له على أثر(١). ووردت رواية مماثلة في كتاب وضع في القرن الثالث عشر ميلادي. يقول المؤلف إن الإمام الحاكم بأمر الله ترجّل عن حماره في جوار حلوان وسار منفرداً داخل الصحراء ولم يعد ولا يعرف حتى اليوم أين اعتزل(٢).

(١) De Sacy, Exposé de la Religion des Druzes, vol. 1, p416.
(٢) Abu Salih, The Churches and Monasteries of Egypt and Neighbouring Countries, translated by B.T.A. Evetts, p154.

بعد فترة قصيرة من غياب الحاكم ظهر « السجل المعلق » المؤرخ في شهر ذي القعدة سنة ٤١١ معلقاً على أبواب المساجد وفيه وصف لجهود الحاكم المتواصلة للإصلاح والعقبات التي واجهها. والسجل يظهر جلياً سبب وكيفية غيبة الحاكم.

الفصل السابع

المصادر الروحية

في اندفاع قلّ مثيله وفي قرن من الزمن انتشرت فتوحات العرب فعمت الأقطار الممتدة من نهر السند إلى جبال البرانس. وكان في القلب من هذه الامبراطورية الشاسعة البلاد التي بزغت منها الحضارة: وادي النيل ووادي الرافدين. ومن هذين المركزين، وعلى مدى قرون سابقة للفتح العربي، انبثقت أشعة الحضارة إلى الخارج كما تلقت هي بدورها مؤثرات خارجية من بلاد فارس والهند في الشرق ومن اليونان في الغرب، أغنتها وأخصبت حضارتها.

ولما قامت الامبراطورية الرومانية جمعت تحت سيطرتها الشرق والغرب وحملت شعلة الحضارة الهيلينية التي كان نشرها الاسكندر المقدوني وخلفاؤه السلوقيون في سورية والبطالسة في مصر.

في هذا المسار من التبادل الحضاري احتلت فلسطين مكاناً مميزاً، فكانت موطن الأنبياء ومهد المسيحية.

لقد كان الإسلام الدافع الأكبر في توسع العرب المذهل، وإلى جانب دينهم الذي حملوه باعتزاز جاء العرب إلى البلاد التي استولوا عليها بعقول متفتحة، مستعدة وراغبة في التعلم، ومعهم لغتهم المميزة بمرونتها والغنية بمشتقاتها وبقابليتها الممتازة للتطور والنمو. والتي تمكنت من أن تتمثل الحضارات العريقة بما فيها من علوم ونظريات فلسفية.

وقد عبر الكندي عن هذا الانفتاح العقلي في مقدمة كتابه الفلسفة الأولى حيث قال: «وينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأمم المباينة، فإنه لا شيء أولى لطالب الحق من الحق، وليس يُبْخِسُ الحقُ، ولا يَصْغُر بقائله ولا بالآتي به. ولا أحد بَخَس الحقُ. بل كلٌّ بشرفه الحقُّ»[١].

كانت الدراسات اليونانية في إبان الفتح العربي لا تزال حية، ولم تكن محفوظة في المخطوطات فقط، بل كانت مستمرة في مؤسسات وطيدة، أشهرها مدرسة الفلسفة الافلاطونية الحديثة في الاسكندرية. وكانت انطاكية في سورية والرها في العراق الأعلى مراكز لهذه الدراسات. وفي حران بالقرب من الرها بقيت الوثنية شائعة حتى القرن الميلادي العاشر.

كان العالم اليوناني - الروماني ذاته يزخر بالمعتقدات التي جاءته من الشرق. فإن السلام الروماني الذي شمل بلدان البحر الأبيض المتوسط على كافة جوانبه مكّن لحركة التنقل والتبادل بين هذه البلدان سواء في ذلك نشر الأفكار والمعتقدات وتنقل الأشخاص والسلع.

من هذه المعتقدات ديانة مثرا وهي مزيج من المزدكية الفارسية وعقائد بابلية. نظرت هذه الديانة إلى العالم على أنه صراع بين قوى الخير والشر: اورمزد واهريمان. من هذه النظرة انبثقت أخلاقية قوية قوامها أن الحياة كفاح. وهذه القوة الأخلاقية ساهمت في انتشار ديانة مثرا خاصة بين الفيالق الرومانية المنتشرة من حدود بلاد فارس إلى ضفاف الدانيوب وغرباً إلى بلاد الغال. كذلك كانت المانوية مزيجاً من الثنوية الفارسية وأساطير البابليين، دخلتها فيما بعد عناصر من مصادر يونانية[٢].

(١) كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، تحقيق الأهواني، ص ٨١.
(٢) F. Cumont, Les Religions Orientales dans le Paganisme Romain,

من أهم الديانات التي جمعت عناصر من حضارات الشرق والغرب الهرمسية التي انتشرت في القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد.

كانت الفلسفة اليونانية قد استنفدت جميع أغراضها وتطلع الناس إلى ما يرضي حاجتهم الروحية. فالذين نزعوا إلى التقوى وكانوا تعبوا من العقلانية وجدوا بغيتهم في الهرمسية، وفيها انصهر التفكير اليوناني بتديّن الروح الشرقية[١].

هرمس المثلث العظمة هو الاسم اليوناني للإلّه المصري القديم تحوت (Thoth) مخترع الكتابة وكافة العلوم والفنون. كانت رسالة الهرمسية أن الله الذي لا يدرك عن طريق العقل والحس يرقى إلى معرفته القلب النقي المنسلخ عن هذا العالم، أي إن كنه الاسرار الربانية تدرك عن طريق الكشف لا عن طريق المنطق والبرهان. وهذا هو العرفان (الغنوص gnosis).

لقد دخل هرمس دار الإسلام على أنه إدريس - اخنوخ الذي كان نبياً في زمن ما قبل الطوفان لكنه نبي لم يوحَ إليه بنص عن طريق ملك. وعن طريق الهرمسية دخل الفكر اليوناني إلى الحضارة الإسلامية قبل أن يتسنى لفلسفة أرسطو حق المواطن في هذه الحضارة. وتدعى الفلسفة الهرمسية حكمة لدنية. وكان أول من اعتنق الهرمسيات هم من الشيعة.

إن الديانات السماوية - اليهودية والمسيحية؛ وثنوية الفرس - الزرادشتية وفروعها؛ ومعتقدات وأساطير العوام؛ والهرمسية وفلسفة اليونان، خاصة الأفلاطونية الحديثة، كل هذه العناصر أثرت تأثيراً متفاوت الأهمية في الحضارة العالمية التي أسست على الإسلام وكانت اللغة العربية أداة التعبير عنها.

(١) A.J. Festugière, Le Révélation d'Hermes Trismégiste, Vol. 1, pp 20-24, 37, 85; Vol. 2, pp 51-52; Vol. 3, p 18; Vol. 4, p 74.

لقد رأينا في فصل سابق كيف كان جنوبي العراق مسرح اضطراب اجتماعي في القرن الأول الهجري. وكان أيضاً الموطن الذي ترعرعت فيه العلوم الإسلامية، إذ كانت البصرة والكوفة أقدم مراكز لهذه العلوم. في هذه البيئة حيث التخمر الفكري والاجتماعي نشأت الشيعة وفروعها. وكما كانت الشيعة الفرقة الناهضة للظلم الاجتماعي والسياسي، فإنها كانت أيضاً تربة قابلة لبذور من حضارات أخرى مما أثمر ازدهاراً فكرياً وروحياً. ولم يكن من قبيل الصدفة أن جماعة من الشيعة من المقيمين في البصرة ألّفوا رسائل إخوان الصفاء التي حوت ما عُرِف من علوم في ذلك الزمان.

حرص مؤلفو الرسائل أن لا تعرف هويتهم. غير أن أسماء بعض مَنْ يُعتَقد أنهم كانوا من بين واضعي الرسائل وردت في «كتاب الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي المتوفى سنة ٤١٤/١٠٢٣. وصف أبو حيان الإخوان فقال: «وكانت هذه العصبة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دُنِّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلّا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال»[1].

إن رسائل إخوان الصفاء، وتتألف من اثنتين وخمسين رسالة عدا عن الرسالة الجامعة، هي بمثابة موسوعة للمعارف في القرن الرابع / العاشر. قسمت الرسائل الى أربعة أقسام: رياضية تعليمية، جسمانية طبيعية، نفسانية عقلانية، وناموسية إلّهية.

(١) أبو حيان التوحيدي، كتاب الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثاني، ص ٥٠٤.

تابع إخوان الصفاء أبحاثهم في كافة العلوم بقصد الوصول إلى التوفيق بين الديانات المنزلة والتأملات الفلسفية. فالأفلاطونية الحديثة متغلغلة في الرسائل. وعن ارسطاطاليس أخذ الإخوان المنطق والعلوم الطبيعية. ومن فيثاغورس اقتبسوا تقديس العدد.

ارتكز الإخوان في نظرتهم إلى بدء الكون على النظرية الافلوطينية في الفيوضات. فالله الذي لا يُدرَك أبدع العقل الكلي الذي منه صدرت النفس الكلية ومن النفس صدر الهيولى أصل الأفلاك والعناصر الأربعة. والأفلاك تسع دوائر تحيط كل منها بالدائرة التي تليها، وفي وسطها جميعها الأرض. والكون نظام متناغم تشكل أجزاؤه وحدة مترابطة. والإنسان هو الغرض من خلق الكون، وغرض الإنسان معرفة الله، وبهذه المعرفة يصل إلى السعادة الأبدية.

إن النظرية التي طورها إخوان الصفاء جمعت بتوافق سامٍ الديانات السماوية والفلسفة اليونانية ومعتقدات من الديانة الفارسية والروحانية الهندية يحدوها رؤيا تحقيق مجتمع إنساني وإنسان عالمي.

في الرسالة الثامنة من القسم الثاني نرى صورة الإنسان المثالي كما رسمها إخوان الصفاء: «الفارسي النسبة، العربي الدين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السير، الملكي الأخلاق، الرباني الرأي، الإلّهي المعارف، الصمداني».

كان لرسائل إخوان الصفاء أثر بالغ على المفكرين المسلمين والصوفية. وقد انتشرت من بلاد فارس إلى الأندلس. وهي تظهر مدى تقبل الفكر الإسلامي وتمثله للفلسفة والعلوم اليونانية.

كان إخوان الصفاء من الاسماعيلية. وقد ألّف الرسائل دعاة في أواخر القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري. وينسب الاسماعيلية تأليف الرسائل إلى الإمام أحمد أحد الأئمة المستورين. ولكن الأرجح أن تأليفها جرى تحت رعاية عدد من الأئمة. كانت الحركة الاسماعيلية قد رسخت حين كتبت الرسائل فتطلع الاسماعيلية إلى قرب مجيء المهدي المنتظر وقيام دولة أهل الخير.

وهناك مجموعة أخرى من المؤلفات الشيعية عليها مسحة اسماعيلية تحوي كتباً ورسائل في الفلسفة والمنطق والطب وعلم الفلك والعلوم الغيبية. هذه المؤلفات منحولة إلى جابر بن حيان الذي قيل إنه كان تلميذ الإمام جعفر الصادق. يقول جابر إن سيده الإمام جعفر «معدن الحكمة» الذي أمره بتأليف هذه الكتب رتبها له ترتيباً لا يجوز له مخالفته فيها[1].

إن نسبة هذه المؤلفات إلى جابر بن حيان على أن الإمام جعفر مصدرها وهم خاطىء. فجعفر الصادق توفي سنة ١٤٧/٧٦٤ قبل أن يتعرف المسلمون على العلوم والفلسفة اليونانية. إنها عمل جماعي للأوساط الشيعية والإسماعيلية، وهي ترجع إلى الزمن الذي كانت فيه علوم الأوائل تغلغلت في الحضارة الإسلامية وأصبحت جزءاً من تراث المفكرين، وهو العصر الذي قويت فيه الحركة الاسماعيلية وأصبحت عودة المهدي مرتقبة.

ومن الجماعات القريبة من الشيعة فرقة المعتزلة التي اعتمدت العقل مرشداً وهادياً إلى حقائق الدين. ففي القرن الهجري الثاني (الثامن ميلادي) حين كثر الداخلون في الإسلام أحدثت العقائد الدخيلة التي جاءوا بها بلبلة في إيمان الكثيرين. وفي الوقت ذاته فإن فكرة التجسيم نفّرت

(١) Paul Kraus, Jabir Ibn Hayyan, Mémoires Présentés à l'Isntitut d'Egypte, 1943

النفوس التي تنزع إلى الروحانية. في هذا الجو الذي تعرض فيه الإيمان للتشكيك قالت المعتزلة إن من واجب المؤمنين إعمال الفكر والرجوع إلى العقل في بحث أمور الدين. فاتخذوا المنطق اليوناني أداة للدفاع عن الإيمان قاوموا بها الشك والالحاد. وقد انتشر مذهب المعتزلة بين الشيعة.

كذلك كان للفلاسفة المسلمين المتقدمين صلات شيعية. فالكندي، فيلسوف العرب الذي شاطر المعتزلة آراءهم، كان مثلهم يميل إلى الشيعة، وكان الكندي أول من أدخل الأفلاطونية الحديثة إلى الإسلام. غير أنه أحدث تغييرات في هذه الفلسفة التي نفت أن يكون الكون وُجِد من العدم، مؤكداً أن الله أبدع الخلق بأمره بعد أن لم يكن. وبعد أن أكّد الكندي الخلق بأمر الله قبل نظرية الصدور، فمن العقل الأول وهو المبدَع الأول سرى الجوهر الإلّهي في فيوضات متسلسلة إلى الطبقات الدنيا من الكون.

والفارابي، وهو المعلم الثاني بعد ارسطاليس المعلم الأول، كان شيعياً، كثير التأمل، زاهداً في الدنيا، ومفرغاً في الروحانية.

وابن سينا العالم والفيلسوف والمؤمن إيماناً عميقاً، نشأ في بيئة شيعية متطرفة، إذ كان أبوه اسماعيلياً.

سعى الفلاسفة المسلمون للتوثيق بين الفلسفة والديانات التي جاء بها الرسل والأنبياء. فنظروا إلى الفلاسفة القدماء على أنهم ملهمون، وربطوا بين الفلسفة والوحي، فرأوا في الحقيقة الفلسفية وجهاً من وجوه الحق. فالدين واحد عالَمي ولكن هناك صور متعددة تعبر عن الحق المطلق.

لقد تطلع الفارابي إلى تحقيق مجتمع عالمي وعبّر عن رؤيته هذه في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة». فالمدينة الفاضلة حيث الاجتماع الذي به

يُتعاوَن على نيل السعادة في الحقيقة، وينتظم المجتمع في مراتب تبدأ من الرئيس، لكل منها عملها في سبيل تحقيق هذا المقصد. ولما كانت السلطة تصدر عن الرئيس ومنه تنتقل إلى المراتب المتسلسلة، وجب أن يكون من يرأس هذه المدينة مستوفياً لشرائط خلقية وعقلية، أولاها الحكمة. فيقول الفارابي: « فمتى اتفق في وقت ما إن لم تكن الحكمة جزء الرياسة وكانت فيها سائر الشرائط بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك. إن لم يوجد حكيم تهلك المدينة بعد مدة »[١].

ونظرية المدينة الفاضلة تشمل الأمة والجماعة الإنسانية في المعمورة يدبر أمورها برئاسة هذا الرئيس الناس الفاضلون والأخيار والسعداء[٢].

احتذى الفارابي حذو افلاطون في كتاب « الجمهورية » حيث نقرأ: « إذا لم يحكم الفلاسفة المدن، ولم يصبح الذين يدعون الآن ملوكاً وأمراء فلاسفة حقاً، ولم تجتمع السلطة السياسية والفلسفة معاً، وإذا لم يفرض على الذين الآن يمارسون السياسة أو الفلسفة التخلي بالقوة عن السير كل في طريق منفصل عن الآخر، فإنه لن يكون هناك راحة من الشر لا بالنسبة للمدن ولا للإنسانية ».

وفي الرسالة السابعة كتب أفلاطون: « وهكذا كما قلت فإنه لن تزول الشرور عن بني الإنسان حتى يتسلّم السلطة العليا في الدولة الذين يتبعون الفلسفة الصحيحة أو حتى يصبح أصحاب السلطة، بقدرة قادر، فلاسفة حقاً ».

ومع أن الفارابي استوحى رؤيا المدينة الفاضلة من افلاطون، فإنها تتوافق مع التطلعات الفلسفية والروحية لفيلسوف مسلم. فجذور الدولة

(١) الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص ٦١.
(٢) الفارابي، كتاب السياسات المدنية ص ٥٠.

المثالية متصلة بفكرة الدولة الثيوقراطية، أي جماعة دينية، قوامها الشريعة الإلٓهية، يحكمها بهداية من الله النبي أو خليفته الإمام. إن الدور الذي عيّنه الفارابي للرئيس في مدينته يطابق التركيز على دور الإمام عند الشيعة. فعندما يعدد الفارابي صفات رئيس المدينة الفاضلة يقول: « هذا هو الرئيس الذي لا يرؤسه إنسان آخر أصلاً. وهو الإمام ». فمدينة الفارابي تشير إلى الدولة الفاطمية التي يحكمها الإمام الخليفة.

إن العقيدة الفاطمية – الاسماعيلية مفعمة بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة. فالنظريات الفلسفية اليونانية وغيرها من الأفكار المقتبسة من مصادر خارجية أدمجت بفضل التفسير الباطني للقرآن في العقائد الإسلامية كما طورها الاسماعيلية الذين قالوا إن للقرآن معنى ظاهراً ومعنى باطناً، وإن التأويل يوصل إلى المعنى الحقيقي للنص. وتفسير المعنى الحقيقي الكامن وراء الظاهر أمانة أوكلت إلى الإمام والراسخين في العلم.

يحتل الإمام مركز الصدارة في المذهب الفاطمي – الاسماعيلي فهو خليفة النبي والمؤتمن على تفسير الرسالة الإلٓهية. إن النبي صاحب الوحي أو التنزيل، والوحي يختص بالنبي وحده وينتهي معه. أما استنباط المعنى الحقيقي للنص المنزل فهو عملية مستمرة خُصَّت بها الإمامة المتصلة من جيل إلى جيل. ولا يعني التأويل التفسير الرمزي أو المجازي للقرآن بل التأويل ردّ الشيء إلى أوله أي معناه.

يستند التأويل على نظرية المثل والممثول. فالظاهر مثل والباطن ممثول. ذلك أنه في موازاة عالم الشهادة وهو العالم الجسماني الظاهر هناك عالم الملكوت الروحاني الباطن. وينجم عن هذه العقيدة وجوب التمسك بالمعنى الحرفي للشريعة والمعنى الباطني معاً. فالظاهر والباطن، التنزيل والتأويل متكاملان، يتمم كل منهما الآخر[١].

(١) القاضي النعمان، تأويل دعائم الإسلام، الجزء الأول، ص ٧٧ – ٧٨.

الظاهر هو عقيدة الفاطميين العملية، ولا تختلف إلّا قليلاً عن السنة. فالخُلق الصالح يقوم على اتباع وصايا الشريعة. أما الباطن فهو علم الحقائق، العلم الذي يحفظ استمرارية التفسير الروحاني للتنزيل.

رُويَ عن الإمام جعفر الصادق أنه قال: في كتاب الله عبارات وإشارات ولطائف وحقائق. فالعبارات للعوام من المؤمنين، والإشارات للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء.

إن معرفة الإمام أصل من أصول الإيمان. وللإمام صلة روحية بالله يلهمه العلم لتفسير الوحي المنزل على النبي. فالإمام قيّم على الكتاب يشرح لمريديه المعنى الباطن للتنزيل.

والإمام لايكون دائماً ظاهراً لكن العالم لايخلو أبداً من إمام. وفي الحديث: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية. ومعنى معرفة الإمام الإيمان به واتباع دعوته. في الإمام المعصوم تتحقق حاجة الإنسانية الدائمة إلى معلم وهادٍ يهديهم إلى معرفة الله[1].

الإمام قيّم على الكتاب بفضل النور الإلّهي المودع فيه. فالإمام لا يختاره الناس، بل يُعيَّن بالنص من الإمام سلفه وهو ينص على من يخلفه وهكذا ينتقل النور من جيل إلى جيل[2].

وهذا النور مودع في الإمام بصفته مثل العقل الكلي. لقد جعل الاسماعيلية مماثلة بين الحدود الجسمانية، أي مراتب الدعوة، والجواهر الروحانية. واستناداً إلى نظرية المثل والممثول فالنبي يقابل العقل الأول وكذلك الإمام خليفته.

(١) القاضي النعمان، تأويل دعائم الإسلام، الجزء الأول، ص ١٨٧.

(٢) القاضي النعمان، دعائم الإسلام، الجزء الأول، ص ٥٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء التاسع، ص ٢٨٨.

الفاطميون نزهوا الله تعالى عن كل الصفات ونفوا عنه كل ما يليق بمبدعاته لأن الصفات موجبة للأنداد والاضداد وليس لله مثيل ولا ضد. فقد أوّل الفاطميون أسماء الله الحسنى أنها أسماء وصفات العقل الكلي وهو أقرب الحدود الروحانية إلى الله تعالى وأسبقهم إلى معرفته وتوحيده[1].

إن قول الشعراء في الخلفاء الفاطميين وقول هؤلاء في أنفسهم لايفهم على حقيقته إلاّ من خلال هذه العقيدة. فابن هاني الأندلسي يخاطب المعز لدين الله على أنه مثل العقل الكلي حين يقول:

ما شئت لاما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

والأئمة نور من نور الله كما قال عمارة اليمني في قصيدة يرثي فيها الفاطميين:

أئمة خلقـوا نوراً فنورهمُ   من نور خالص نور الله لم يَفِل

ويقول العزيز بالله:

أنا ابن رسول الله غير مدافع   تنقلت في الأنوار من قبل آدم

والأئمة أرواح قدسية في أجسام بشرية. يقول الأمير تميم بن المعز لأخيه العزيز:

ما أنت دون ملوك العالمين سوى
روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تناهى منك جوهره
تناهياً جاز حدّ الشمس والقمر

(١) القاضي النعمان، كتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة، المقدمة ص ٢٦ - ٢٧.

معنى من العلة الأولى التي سبقت
خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر
فأنت بالله دون الخلق متصل
وأنت لله فيهم خير مؤتمر[1]

ولما كان الله تعالى منزهاً عن المخلوقات وجب وجود واسطة بينه وبين عالم الحس. فأبدع بأمره العقل الكلي الذي هو أداة الخلق ومبدىء الخليقة[2].

العقل الكلي هو آدم الروحاني، ممثول الأنبياء، هو الإنسان الكامل الذي أشار إليه الحديث: إن الله خلق آدم على صورته. سمّاه الشيعة «النور المحمدي»، والصوفية «الحقيقة المحمدية»، وكمظهر في عالم الحس لهذا النور قال النبي محمد: أول ما خلق الله نوري، وهذا ما عنى بقوله: كنت نبياً وآدم بين الماء والطين.

يعتبر الصوفية أنفسهم الورثة الروحيين للنبي محمد، يرثون من نوره الأزلي النور الذي يهديهم. وهم يتفقون مع الشيعة في تأويل القرآن وفي نظرية المثل والممثول، كما أنهم يشاركون الشيعة حبهم لعلي وذريته ويعتبرون علياً قطب الصوفية.

إن جذور الصوفية راسخة في كتاب الله وسنة رسوله. فالتعابير والمعاني الصوفية كثيرة في القرآن الكريم. وعن القرآن، كما يقول ماسينيون، في قراءته التي لاتنقطع، والتأمل فيه واتباع وصاياه، تصدر الصوفية في أصولها وتطورها[3].

(١) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص ١٣٣، ١٤٦.
(٢) الكرماني، راحة العقل، ص ٣٦ – ٣٧، ٩٧.
(٣) L. Massignon, Essai sur les Origines du Lexique Technique de la Mystique Musulmane, pp 46-7.

والسيرة هي المصدر الثاني الذي استوحى منه الصوفية. فإذا كان في القرآن دليل على أن الله يخاطب الإنسان، فإن السيرة تظهر كيف كان الرسول على صلة دائمة بخالقه. والصوفي في شوقه لسماع صوت الله درس السيرة وجهد أن يكون في حياته متأسياً بالرسول[1].

تطورت الصوفية من نزعات الزهد القوية والواسعة الانتشار في القرن الهجري الأول. فكانت في بدايتها غضبة على تفشي الغنى والترف حتى في هذا الزمن المبكر من حياة الأمة. ساد الزهد في هذه الفترة شعور كاسح بالمعصية وخوف مروّع من العقاب. تمثل هذا الاتجاه بحسن البصري واعظ البصرة الشهير، وكان زاهداً ذا تقوى صارمة وصراحة في تعنيف الحكام لانهماكهم في حب الدنيا. اشتهر أيضاً في ذلك العصر الزاهد سفيان الثوري وكان من المحدّثين الذين عملوا على أن تعود حياة الرسول كما كانت مثلاً حياً.

لم تتأثر الصوفية بمؤثرات خارجية حتى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. إذ كان ذو النون المصري (المتوفى سنة ٢٤٦ / ٨٦٠) أول من أدخل إلى الصوفية أفكاراً من الأفلاطونية الحديثة. وكان من انتشار رسائل إخوان الصفاء أن قويت النزعة الفلسفية بين الصوفية. وبفعل المؤثرات من الشرق ومن الغرب: من الغنوص المسيحي ومذهب أفلوطين، ومن الروحانية الهندية وديانات الفرس ومصر القديمة تطورت الصوفية من الزهد إلى فلسفة روحية وأصبح العرفان (gnosis) مقصد الصوفي حين يفنى عن نفسه ليبقى في الله.

يعني الصوفي بقوله إن الله أحد أن الله وحده موجود. الله وجود مطلق

(١) A. J. Arberry, Sufism, an Account of the Mystics of Islam, p 13

وما سوى الله وجوده مستعار. من الموجود الواحد الحق الواجب الوجود تستمد الكائنات وجودها الممكن.

« كل مَن عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »[1]. فهم الصوفية معنى الآية على حقيقته: إن كل شيء هالك أبداً وأزلاً[2].

أما صدور الكثرة عن الواحد فقد فسره الصوفية بالحديث القدسي: كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرف فخلقت الخلق فبه عرفوني.

ومعرفة الله تأتي من الله الذي لايدرك بالعقل والحواس. وإن الإمام الغزالي بعد طول بحث وسعي للوصول إلى الحق عن طريق العقل رأى الحق بالنور الذي يُلقى في القلب. لقد درس الغزالي الفلسفة اليونانية كما عرفها المسلمون دراسة عميقة، وقدم في كتابه مقاصد الفلاسفة عرضاً موضوعياً لآراء الفلاسفة. وفيه يقر الغزالي سيادة العقل حين يكون الوصول إلى الحقيقة ممكناً عن طريق البرهان القاطع. ولكن هناك ما هو فوق العالم العقلي. وقد ضلّ الفلاسفة، كما أظهر الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة، حينما حاولوا الوصول إلى ما تجاوز طور العقل، وهاديهم العقل.

إن مصدر المعرفة الحقيقي هو وحي من الله، الوحي عن طريق الأنبياء أو إلى القلب المهيأ لقبوله. وإذا صفا القلب من شهوات الجسد وأعرض عن فتنة الدنيا أضاءه الإيمان والمعرفة وتجلّت فيه الألوهية. في حديث قدسي: ما وسعني أرضي ولاسمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن.

إن الصوفي في سعيه إلى الله يسلك طريقاً طويلاً وشاقاً يمر فيه بمقامات في تهذيب النفس والتغلب عليها والمقامات هي: التوبة، الورع، الزهد،

(١) القرآن الكريم ٥٥: ٢٦-٢٧، سورة الرحمن.
(٢) الغزالي، مشكاة الأنوار، ص ٥٥.

-الفقر، الصبر، التوكل، الرضى. يجتاز السالك المقامات بعمله الجاد الدؤوب في ترويض النفس والتجرد من القيود الدنيوية. وبعد أن يجتاز المقامات يصبح مستعداً لتلقي الأحوال، وهي: التفكر، القرب، المحبة، الخوف، الرجاء، الشوق، الأنس، الطمأنينة، التأمل، اليقين. والأحوال على عكس المقامات هي هبة آلهية تنزل على القلب من فيض الجود الإلهي. أو كما يقول القشيري: فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب. والأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل من بذل المجهود[1].

الصوفي، وقد مرّ بالمقامات وخبر الأحوال، يتلقى النور الذي يكشف عن معاني الوحي، هذا النور في القلب النقي يفيض على الصوفي بصيرة خارقة. وفي هذا المعنى يذكر الصوفيون الحديث: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله.

إن الصوفي أصبح مهيأً للعروج إلى العالم الأعلى. في إحدى رسائل إخوان الصفاء وصف لهذا المعراج اقتبسوه من كتاب ظنه العرب « الأثولوجيا » لأرسطو وهو في الحقيقة كتاب التاسوعات لأفلوطين. يقول الصوفي في صعوده: « ربما خلوتُ بنفسي وخلعت بدني وصرت كأني جوهر مجرد بلا بدن فأكون داخلاً في ذاتي خارجاً من جميع الأشياء فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجباً باهتاً فأعلم أني جزء من العالم الأعلى الفاضل الشريف »[2].

في حياة تحررت من قيود العالم وتجردت من جميع الأشغال فلا تتصرف جارحة إلى سوى الله، يُمنح الصوفي لحظات خاطفة من الاتصال بذي الجلال

(١) القشيري، الرسالة القشيرية، الجزء الأول، ص ١٩٣.
(٢) رسائل إخوان الصفاء، القسم الرياضي، الرسالة الثالثة، المجلد الأول ص ٩٢.
Plotinus, Enneads, ed. Mackenna, IV. 8. 1. p 357.

فأبو يزيد البسطامي (المتوفى سنة ٢٦٢ / ٨٧٥) في ثلاثين سنة قضاها في إماتة النفس، تجرد من ذاته كما تتجرد الحية من جلدها. وكان أبو يزيد يتكلم كأنما الله يتكلم بلسانه. ومن أقواله في حال المشاهدة: سبحاني ما أعظم شاني.

يفسر السراج شطحات الصوفية بقوله: «واعلم أن العبد إذا تيقن بقرب سيده منه ويكون حاضراً بقلبه مراقباً لخواطره فكل خاطر يخطر بقلبه فكأن الحق يخاطبه بذلك وكل شيء يتفكر بسرّه فكأنه يخاطب الله تعالى به»[١].

يقول الغزالي إن العارفين، في معراجهم الروحي «من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة» رأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلاّ الله. ويصف معراج العارفين إلى سماء الحقيقة فيقول: «اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلاّ الواحد الحق. وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهورين فيه ولم يبقَ فيهم متسع لالذكر غير الله ولالذكر أنفسهم أيضاً، فلم يكن عندهم إلاّ الله فسكروا سكراً دفع دونهم سلطان عقولهم، فقال أحدهم: أنا الحق، وقال الآخر: سبحاني ما أعظم شاني، وقال آخر: ما في الجبة إلاّ الله»[٢].

إن آخر كلمات فاه بها الحلاج قبل أن تغيض روحه: «حسب الواجد افراد الواحد له».

إن صلاة الحلاج قبل استشهاده من أروع ما نطق به إنسان، فقد دعا الله: «ان ترزقني شكر هذه النعمة التي أنعمت بها علي حيث غيّبتَ

(١) السراج، اللمع ص ٣٨٢ – ٣٨٣.
(٢) الغزالي، مشكاة الأنوار، ص ٥٥ – ٥٧.

اغياري عما كشفتَ لي من مطالع وجهك وحرّمت على غيري ما أبحتَ لي من النظر في مكنونات سرّك، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرباً إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترتَ عني ما سترت عنهم لما ابتليتُ بما ابتليت. فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد».

الفصل الثامن

مذهب الدروز

نشأ مذهب الدروز في أحضان العقيدة الفاطمية. ومحور هذه العقيدة الإمام المنصوص عليه والمهدي بهداية إلَهية. إن النظرة إلى الإمام بصفته حامل النور الالَهي لازمتها فكرة الرجعة، ذلك أنه عندما يحين الوقت سيعود القائم أو المهدي المنتظر ليملأ الأرض عدلاً ويبسط ملكوت الله على الأرض.

في العقد الأول من القرن الخامس الهجري سرى في بعض الدوائر الاسماعيلية الاعتقاد أن الإمام الحاكم بأمر الله هو المهدي المنتظر. في هذا الوقت كان قد طال انتظار الناس للعدالة الاجتماعية التي كانوا يتطلعون أن يأتي بها قيام حكم الأئمة الفاطميين، ولكنها لم تكن قد تحققت بعد. وكان هناك تكهنات أن الإمام الحاكم سوف يحقق هذه الأمنية. إن صفات الحاكم بأمر الله المميزة أضفت مصداقية على هذا الاعتقاد. فلم يكن الحاكم فقط مثالياً شديد التمسك بأخلاقية صارمة ومعطاءً عمّ جودُه الناس، ولكن تحرُره العجيب من تقاليد معترف بها اعتُبِر من الأدلة على أنه فوق مستوى البشر.

كان الدعاة قد مهدوا الطريق لإظهار الدعوة التي تبناها الحاكم بأمر الله، ومجالس الحكمة التي كانت تعقد بانتظام إلى سنة ٤٠٣ / ١٠١٢ والتي قطِعت لفترة قصيرة ثم أعيدت، بشرت بقرب ظهور القائم المنتظر وكشف

التوحيد حسبما جاء في كتب الدروز الدينية حيث تكثر الإشارات إلى هذه المجالس.

قبل إظهار الدعوة كان اجتمع حول الحاكم مريدون ممن كان الدين بالنسبة لهم عبادة روحية. ولما كانوا قد تخلوا عن ممارسة الشعائر فقد رُفعت شكوى عليهم إلى الإمام الحاكم الذي وبّخ منتقديهم في رسالة « إلجام الجاحدين المعترضين على الزاهدين من ذوي المجاهدة الموحدين » مؤرخة في صفر سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩ وصادرة عن ديوان الإنشاء في القاهرة[1].

إنها وثيقة في غاية الأهمية تزخر بتعابير الصوفية وتعكس لنا روحانية الحاكم وصوفيته. فالحاكم كغيره من الصوفية خبر المعراج الروحي، « فغاب بشهوده عن وجوده ».

وهنا كما في المصادر الصوفية الأخرى يرد الحديث القدسي: كنت كنزاً مخفيًّا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبه عرفوني ». وتقول الرسالة: لقد كان المنزه عن الموجودات، وكان الجمال المطلق ونوره لا يفيض إلاّ على ذاته، ولكن شأن الجمال والكمال أن يضيق صبراً ببقائه مجهولاً. وتذكر الآية الكريمة: « وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدونِ » أي ليعرفوني. وشجرة المعرفة تثمر المحبة، وأية محبة تعلو محبة الحقيقة وتسمو عليها، فإذا عُرِفَت تعبدها العارف وتملكته. إن الحاكم، مثل أهل المشاهدة الذين فنوا في الله، يتكلم وكأن الله هو المتكلم فيقول: وكم سما أناس بحبنا إلى الفناء في ذاتنا فلولا المحبة لما فنوا ولما وصلوا إلى طريق الارتقاء إلى العالم الأقدس.

(١) وردت هذه الرسالة في إحدى المخطوطات المكتشفة حديثاً، ويعتقد أن هذه المخطوطات هي من كتب المذهب التي كانت تعتبر مفقودة.

ويخاطب الحاكم أولئك الذين أتوا بكتاب المجادلة فيقول: ثم جئتم تجادلوننا بأعيننا واحبتنا الذين بَصُرت عيونُ ألبابهم الحق فاتبعوه وزهدوا بالباطل وهاموا في جنات شوقهم. وأنكرتم عليهم ما هو فيهم وهم فيه من وجد وهيام، وقلتم إنهم لم يأتوا المساجد ولم يؤدوا الصلاة وهجروا الفرائض وتركوا السنة، وتلوموننا لكوننا أبحنا لهم ذلك، ووسّعنا عليهم دعوتهم وجلسنا مجالسهم ندعو الناس إلى تلك المجالس. وهؤلاء الذين اتخذوا الكتاب حجة لهم جهلوا حقيقة ما يدعو إليه الكتاب، ولم يفهموا باطنه وظاهره واستعاراته ومجازاته وحقيقة تأويله. وقد أثار غضب الحاكم المتصوف الزاهد أن هؤلاء فسروا الكتاب ووضعوا الأحاديث بما تهوى أنفسهم جاعلين الجنة دار شهوات أنعام وملذات، وجهلوا نعيم الروح ولذة الأعين وفرحة القلب بالقرب من الله والفوز برضاه، وهو ما بشّر به الكتاب: «لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم»[١]. والأنهار هي أنهار المحبة والإنس بالحبيب الكريم المتجلي.

واضح من هذه الرسالة أن الحاكم كان قريباً من، بل كان المحور لجماعة من العبّاد الذين زهدوا في الدنيا وعكفوا على الحياة الروحية. وفي شجب الحاكم سلوك الذين لم يروا في الدين سوى ممارسة خارجية للشعائر يتضح لنا سبب انقطاع الخليفة لفترة ما عن أن يؤم الصلاة الجامعة ويحضر احتفالات الأعياد.

في مستهل سنة ٤٠٨ / ١٠١٧ كُشف عن مذهب التوحيد حين قرئ سجل من الإمام الحاكم يدعو الناس إلى كشف عقائدهم بلا خوف ولا تستر. ولما تجلى الناسوت بالحاكم انتقلت الإمامة إلى حمزة الذي وصل إلى القاهرة في سنة ٤٠٧ قادماً من الشرق، فهو حمزة بن علي بن أحمد الزوزني.

(١) القرآن الكريم ٥ : ١١٨ سورة المائدة.

جمع الإمام حمزة حوله الدعاة ومساعديهم ورتبهم في منازلهم. كان الدعاة الثلاثة الرئيسيون تعاقبوا في نشر الدعوة ابتداءً من سنة ٣٨٦ / ٩٩٦ السنة التي تولى الحاكم فيها الخلافة. كان كل منهم يدعو لفترة سبع سنوات، ينضم في نهايتها هو ودعاته إلى الداعي الذي يليه. وفي سنة ٤٠٧ حضروا جميعهم إلى القاهرة.

والدعاة أو النذر الثلاثة، حسب تسلسلهم الزمني في نشر الدعوة هم سلامة بن عبد الوهاب السامُرّي ومحمد بن وهب القرشي واسماعيل بن محمد التميمي. هؤلاء الثلاثة مع الإمام حمزة وبهاء الدين علي بن أحمد الطائي هم الحدود الخمسة العالمين.

وأفاض الدعاة علومهم الشريفة. ونشروا مجالس الحكمة، وكان للحاكم مجالس وسجلات كثيرة، وبثوا دعاتهم في أقطار الأرض، وكانوا يأخذون العهد المألوف على من يدخل في دعوتهم.

في سنة ٤٠٨ ألّف حمزة عدة رسائل شرح فيها المذهب الجديد. وفي السنة التالية توقفت الدعوة لانقسام حدث بين المستجيبين حين تبع فريق منهم نشتكين الدرزي. كان الدرزي أقرّ بإمامة حمزة لكنه انقلب فيما بعد وادعى أنه سيد الهادين وتلقب بسيف الإيمان. ولما كان الدرزي يحاول فرض المذهب بالقوة حذره حمزة قائلاً ليس الإيمان بحاجة إلى سيف يعينه، وأوصى باتباع الاقناع والروية. ويأخذ حمزة على الدرزي أنه أقام البناء بغير أساس، والأساس هو العلم الحقيقي، والدرزي منه صفر.

كان الدرزي وأتباعه من التأويلية، ويقصد بالتأويلية هنا المغالون بالتأويل إلى حد إنكار الظاهر. يقول حمزة للدرزي إن الظاهر والباطن متلازمان مثل الجسد والروح لاغنى لأحدهما عن الآخر.

في آخر يوم من سنة ٤٠٩ هُزِم الدرزي وأتباعه وكانوا حاصروا حمزة في مسجد ريدان قرب قصر الخليفة. ولم يكن مع حمزة داخل المسجد سوى اثني عشر نفراً بينهم الحدود الخمسة، ولم يفلح المحاصِرون في اقتحام المسجد طيلة النهار. ولما ظهر الحاكم في المساء على شرفة القصر المطل على المسجد صُعِق المحاصِرون لهيبته وتفرقوا. وفي اليوم التالي، مستهل سنة ٤١٠ قتِل الدرزي.

أما الرواية التي تزعم أن الحاكم بعث الدرزي إلى بلاد الشام لينشر الدعوة بين أهل الجبال، خاصة في وادي التيم، فلا صحة لها. فالدرزي لم يغادر مصر وقد قُتِل والدعوة لم تزل في بدايتها. والدروز يتبرأون منه. وقد تكون الضجة التي أثارها في بدء الدعوة السبب في إطلاق اسمه على أتباعها. أما الدروز فيدعون أنفسهم موحدين وهو الاسم الذي تسموا به منذ قيام الدعوة.

إن الدعوة التي كانت انقطعت سنة ٤٠٩ عادت إلى النشاط في مستهل سنة ٤١٠ واستمرت إلى قرب نهاية سنة ٤١١. وقد أوضح الإمام حمزة أن فترة الانقطاع كانت تعبيراً عن غضب الحاكم للانحرافات والمخالفات التي أثارت النزاع وسببت العداء. كما أنها كانت امتحاناً ميّز المؤمنين عن المنافقين.

إن المستجيب عند دخوله الدعوة يكتب على نفسه الميثاق، وهو العهد الذي يلتزم به بملء إرادته بلا إكراه أو إجبار، وهو بتمام عقله وصحة جسده وهو مالك التصرف بنفسه ليس مستعبداً لأحد. فمن اختار الدخول وهو بهذه الصفات يكتب الشهود والعدول عليه الميثاق ويشهدوا فيه. ولا يُكتب الميثاق إلاّ على كل واحد بمفرده، فلا يُكتب ميثاق واحد على اثنين أو أكثر.

ومرة ثانية توقفت الدعوة. وكان الحاكم أثناء خلافته التي دامت ربع قرن بذل غاية الجهد ليحقق اصلاحات دينية وأخلاقية واجتماعية، لكن الخلافات الدينية استمرت وبقيت العلل الاخلاقية والاجتماعية على حالها مما أحدث في نفس الحاكم استياء عبّر عنه في السجل[1] الذي وُجد معلقاً على المساجد بعد غيبته في ٢٧ شوال سنة ٤١١ / ١٠٢١.

إن السجل موجه إلى الناس عامة، لكن من الواضح أنه يخاطب بصورة خاصة أولئك الذين دخلوا الدعوة بينما بقيت حياتهم بعيدة عن تعاليمها. إذ يقول: «فأنتم متظاهرون بالطاعة متمسكون بالمعصية ولو استقمتم على الطريقة الوسطى لأسقاكم الله ماءً غدقاً».

يذكّر السجل الناس بنعم الحاكم عليهم، المادية منها والروحية، وأنه لم يشاركهم في شيء من أحوال هذه الدنيا نزاهة عنها ورفضاً منه لها. ومن نعمه الظاهرة ما أعطاهم من الذهب والفضة والأرزاق والإقطاع والضياع وغيرها من أعراض الدنيا. وقد رفع شأنهم وأعلى كلمتهم وبسط سلطانهم على الأرض. ومن نعمه الباطنة عليهم إحياؤه لسنن الإسلام والإيمان، فقد شيّد الجوامع وعمّر المساجد وأقام دعائم الإسلام وأنفق في سبيله وخفر الحاج وأمّن السبيل. وفتح لهم باب دعوته وأنشأ لهم خارج قصره دار علم حوت جميع علوم الدين. ولكنهم شنأوا العلم والحكمة وكفروا الفضل والنعمة وأظهروا الجهل ومال بهم الهوى إلى الموبقات وكثر بغيهم ومرحهم على الأرض، فهم متعاندون متنابذون يجاهد بعضهم بعضاً، غافلين عن أن إمام عصرهم واحد وأن الإسلام والإيمان قد شملهم وجمعهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعة وليه أمير المؤمنين سلام الله عليه. واستحق عظم إسرافهم غضب الله تعالى ووليه. ومن دلائل غضب الإمام إغلاق باب دعوته ورفع

(١) السجل أول رسالة في كتب الدروز المذهبية، وقد نشر في مجلة العرفان في صيدا سنة ١٩٤٨.

مجالس حكمته ونقل الدواوين من قصره وامتناعه عن الصلاة بهم في الأعياد وفي شهر رمضان، وترك الخلق أجمعين يخوضون في التيه الذي آثروه على الهدى وخرج من أوساطهم. ويحذرهم أن لايقفوا له أثراً ولا يكشفوا له خبراً، ويدعوهم إلى التوبة الخالصة والتوسل إلى الله تعالى أن يغفر لهم ويرحمهم بعودة وليه إليهم.

لقد ساد الاعتقاد أن الحاكم فقد في الصحراء جنوبي القاهرة حيث كان من عادته أن ينقطع في الليل للتأمل يرافقه واحد أو اثنان من خدمه. إن المخطوطات المكتشفة حديثاً تظهر أن الحاكم توجه إلى الشرق، إلى سجستان شرقي بلاد فارس على حدود الهند وهناك التحق به حمزة فيما بعد. من سجستان أرسل حمزة إلى بهاء الدين في سنة ٤٣٩ / ١٠٤٧ تأملات صوفية أملاها الحاكم جمعت في سجل سرائر الأول والآخر.

والمأثور أن الحاكم لما أراد أن يغيب أحضر علي الظاهر وجماعة من أعيان التأويل وأخذ عليهم العهود أن يحفظوا أولياءه. كانت نسخة الأحلاف هذه فيما مضى بين رسائل الحكمة. يقول الاشرفاني الذي عاش في القرن الحادي عشر هجري / السابع عشر ميلادي أنها موجودة في بعض الكتب القديمة، لكنها بطلت من نحو مائتي سنة.

أما الظاهر فقد نقض العهد منذ توليه الخلافة. ولم يمض أربعون يوماً على غيبة الحاكم حتى عمّت موجة من الاضطهاد العنيف الموحدين من انطاكية إلى الاسكندرية. كانت المحنة التي دامت سبع سنين على أشدها في حلب وجوارها، وقتل خلالها آلاف، وارتد كثيرون، وثبت على العقيدة الصامدون.

كتب حمزة رسالة الغيبة وفيها يطمئن الموحدين في غياب الحاكم

ويوصيهم بالثبات على الميثاق الذي أخذوه على أنفسهم ويشد عزيمتهم في وجه المحن ويعدهم بالفرج القريب.

بعد غيبة الحاكم استتر حمزة في مكان في القاهرة يعرفه بهاء الدين، ومعه الحدود الثلاثة. وسكنت الدعوة طيلة سنوات المحنة. وفي سنة ٤١٨ / ١٠٢٧ تلقى بهاء الدين كتاباً من حمزة يأمره أن يؤلف الرسائل وينشر الدعوة. فباشر بهاء الدين العمل، وقام بتأليف الرسائل وبث الدعاة، ناهضاً بأعباء الدعوة في غياب الإمام.

انتشرت الدعوة واتسع نطاقها، غير أن صعوبات جابهت بهاء الدين وكان منها ما هو ناتج عن خلافات داخل الجماعة أكثر وطأة من عداء الذين في الخارج. فبعض الدعاة أفسدوا العقيدة وانحرفوا في تعاليمهم وسلوكهم عن المثل الأخلاقية للدعوة. وقد شدد بهاء الدين النكير في عدد من الرسائل على هذه الآثام ومرتكبيها، وأخيراً جرّد الدعاة من الصلاحيات التي اسندت إليهم، وأوصى الموحدين الحذر من كل مَن يدعي أن له سلطة ما. وهكذا تمّ توطيد مبدأ المساواة بين أفراد الجماعة بحيث لايتميزون إلاّ في حفظ الحكمة والسلوك وفقاً لتعاليمها.

ودع بهاء الدين الموحدين في منشور الغيبة وانقطعت الدعوة وأُغلق باب الدخول في الجماعة. استمرت دعوة بهاء الدين سبع عشرة سنة. إن آخر رسائله المؤرخة صدرت في السنة السادسة والعشرين من سني حمزة وهي سنة ٤٣٤ / ١٠٤٢[1].

(١) حساب سني حمزة يبدأ سنة ٤٠٨ هجرية، ولما كانت الدعوة توقفت في السنة التالية فإن سنة ٤٠٩ لاتدخل في الحساب بل السنة الثانية هي سنة ٤١٠. والرواية المتواترة بين الدروز تقول إن حمزة وإخوته ومعهم جمع غفير غادروا القاهرة في السنة الأخيرة لدعوة بهاء الدين وساروا على الطريق الساحلي إلى سورية، متجهين إلى الواحات الصينية.

قبل أن يقفل الباب انتشرت الدعوة في أقاصي المعمورة، وفي رسائل الحكمة ما يدل على سعة انتشارها. لقد كانت سورية مركز نشاط الدعوة وفيها مواطن أكبر الجماعات التي اعتنقتها. ولم تقتصر هذه المواطن على المناطق الجبلية مثل جنوبي لبنان ومنطقة جبل الشيخ والجبل الأعلى في شمالي سورية بل إن أعداداً كبيرة كانت من سكان المدن الرئيسية: انطاكية وحلب ودمشق وما جاورها من القرى. وقد دعا بهاء الدين انطاكية معدن كنز الدر والجوهر لثباتها على المذهب رغم المحن التي قاستها، كما سمّى الجبل الأعلى بالجبل الأنور لولاء أهله وسلامة عقيدتهم.

وجه بهاء الدين إحدى رسائله إلى رؤساء القبائل العربية في سورية وفلسطين والعراق. إن أسماء الرؤساء والقبائل التي ورد ذكرها في الرسالة تتفق مع ما جاء في كتب التاريخ المعاصرة. وبعث رسالة إلى أهل العراقين (فارس والعراق)، وفي رواية متواترة أن هناك صلة بين قبيلة بني لام العراقية والدروز. وحمل وفد رسالة من بهاء الدين إلى حكام البحرين.

واجتازت رسائل بهاء الدين حدود العالم الإسلامي إذ بعث برسالتين إلى اثنين من ملوك الروم في القسطنطينية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخليفة المعز كان قد ارتأى مكاتبة قيصر الروم في موضوع الدين[١].

كانت اليمن مركزاً مزدهراً ومستمراً للدعوة الفاطمية من قبل قيام الدولة الفاطمية. هنا لاقت دعوة التوحيد آذاناً صاغية كما يظهر من رسالة اليمن. ومن اليمن أُرسِل الدعاة إلى الهند وقامت في السند دولة تدين بالولاء للإمام - الخليفة في القاهرة. وقد كتب المقدسي الذي زار السند في سنة ٣٧٥ / ٩٨٥: «وأما بالملتان فيخطبون للفاطمي ولا يحلون ولا يعقدون إلاّ بأمره وأبداً رسلهم وهداياهم تذهب إلى مصر». ويصف

(١) أنظر الفصل الخامس.

المقدسي أهل الملتان فيقول: «ليس عندهم زناء ولا شرب خمر ولا يكذبون في بيع ولا يبخسون في كيل ولا يخسرون في وزن، يحبون الغرباء، وأكثرهم عرب»[١].

بين رسائل الحكمة رسالة بعثها بهاء الدين في سنة ٤٢٥ / ١٠٣٤ إلى ابن سومر راجبال، سليل أسرة اعتنقت مذهب التوحيد، يصفه بهاء الدين بكهف الموحدين. وهذه الرسالة هي الرابعة في مجموعة «رسائل الهند» التي اكتشفت حديثاً. من هذه الرسائل المتبادلة بين بهاء الدين وجاتا بن صومار رجَه بال يتبين لنا أن الدعوة انتشرت في السند وهندستان وكشمير وأن مركزها الرئيسي كان ملتان «أم المدائن» ومقر بيت الحكمة. وفي مخطوط آخر، أيضاً وجد حديثاً، هو كتاب «المنفرد بذاته» والذي يُظن أنه أحد كتب الحكمة المفقودة، رسالة من الحاكم إلى «دولة الموحدين» في السند. وفي موضع آخر من نفس المخطوط أن نور الحق أشرق في عُسيفان وكابل والبلّري.

إن رسائل بهاء الدين بالإضافة إلى ما ألّفه حمزة، وعدد قليل كتبه اسماعيل التميمي ثاني الحدود مع بضع رسائل من مصادر أخرى، تؤلف كتب الدروز الدينية وتدعى الحكمة الشريفة. عدد هذه الرسائل مائة وإحدى عشرة رسالة مجموعة في ستة كتب.

إن المجموعة التي بين أيدينا الآن لاتشكل كل ما تضمنته الحكمة فيما مضى. إذ تقول الرواية المتواترة بين الدروز أن الحكمة كانت في الأصل تتألف من أربعة وعشرين كتاباً. إنه من المعقول الاعتقاد أن في فترة الردة على المذهب واضطهاد معتنقيه بعد غيبة الحاكم تشتتت أجزاء كثيرة من

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٤٨٥.

الحكمة أو أتلفت أو أُخفيت. وترد الإشارة في عدد من الرسائل الموجودة إلى كتب ورسائل كانت من ضمن الحكمة ولكنها فقدت أو هكذا يُظَن.

لقد كان في سورية واليمن والهند جماعات من الموحدين واسعة الانتشار. إنه من غير المحتمل أن الاتصال بها اقتصر على المكاتبات القليلة الموجودة في كتب الحكمة، منها مثلاً رسالة واحدة إلى اليمن وأيضاً واحدة فقط إلى الهند.

غير أنه في الفترة الأخيرة وجدت مخطوطات هي في أغلب الظن بعض الكتب المفقودة من الحكمة، بينها رسائل الهند التي تحتوي على ثماني رسائل من بهاء الدين إلى جاتا بن صومار رجه بال وأربع رسائل من الأمير الهندي إلى بهاء الدين. وفي نهاية الرسالة الثامنة يَعد بهاء الدين أن يجيب في رسالته التالية على أسئلة كان الأمير وجهها إليه.

ومن المكتشفات الجديدة كتاب « المنفرد بذاته » و« الرسالة الموسومة بالشريعة الروحانية » وقد ورد ذكر كل منها في كتب الحكمة.

ونأتي الآن إلى أهم الوثائق التي لم تكشف بعد، أعني ما كتبه أو أملاه الحاكم نفسه. قد يكون من المستغرب أن توصف بالأهمية وثائق لم تعرف بعد، غير أن هناك ما يبرر هذا الوصف. فروحانية الحاكم كانت نادرة المثال، وكان في نزعته الروحانية يداوم الانقطاع إلى الصحراء حيث يستغرق في التأمل منفرداً. وقد كان الحاكم مصدر الالهام لما كتبه حمزة. وكما أملى المعز الكتب على القاضي النعمان هكذا أملى الحاكم على حمزة.

بعث بهاء الدين إلى رئيس الدعوة في الهند جاتا بن صومار رجه بال ثلاث رسائل أملاها الحاكم كما جاء في رسالته الثانية إلى الأمير الهندي وتاريخها سنة ٤٢٥ هجرية. وفي الرسالة الخامسة، وتاريخها أيضاً سنة ٤٢٥،

يقول بهاء الدين لجاتا إنه يرسل له الربع الأخير من رسالة أملاها الحاكم قبل غيبته وقد أذن حمزة بإرسالها الآن وفيها شرح عقيدة وحدة الحق وأن جميع الأنبياء والرسل جاءوا برسالة واحدة، وأن الأديان كلها سُبُل توصل إلى الواحد.

وكتب جاتا في رسالته الأولى التي بعثها في آخر سنة ٤٢٦ إلى بهاء الدين يقول إنه والمؤمنون بعد أن وصلتهم الرسائل التي أنعشت قلوبهم أصبحوا ينتظرون وصول مجموعة رسائل الحاكم إلى جميع العالم يعلمهم الحكمة ويهديهم إلى سبل الحق والحياة.

هذا بالنسبة إلى ما ضاع أو لم يكتشف بعد من نصوص الحكمة. وهناك مسألة ما إذا كان أُدخل على الكتب الستة الموجودة رسائل أو أجزاء من رسائل لم تكن في نص الحكمة في الأصل.

إن حمزة يوبّخ أحد الاتباع الذي وضع الرسائل والكتب ونسبها إليه ظناً منه أنه بذلك يخدم الإمام. ولما كان ما عمله صادراً عن نية حسنة فإن توبيخ حمزة له كان لطيفاً. أمّا غيره فقد شوّه الرسائل عن عمد. وقد استنكر بهاء الدين بشدة عمل الدعاة الذين حرفوا الرسائل بالزيادة والنقصان، وابتدعوا ما هو خارج عن الحق والدين، وأباحوا المحرمات وكذبوا على أهل الدين، وبأفعالهم هذه سببوا الفتن وجعلوا الجماعة بعد الالفة شيعاً متفرقين. ويظهر بهاء الدين غضبه وإنكاره في عدد من الرسائل، وقد طرد الدعاة الذين خانوا الأمانة.

ليس بامكاننا أن نعرف على وجه الدقة مدى ما أدخل على نصوص الحكمة من التحريف والزمن الذي جرى التحريف فيه. إنه لايمكننا أن نقارن النسخ الموجودة بين أيدينا على نسخ قديمة العهد إذ لايوجد نسخ يعود تاريخها إلى الأيام الأولى للجماعة، النصف الأول منْ القرن

الخامس / الحادي عشر. فالنسخ المتداولة نقلت في أوقات متأخرة، أكثرها لايرجع إلى أبعد من مائتي سنة. وإذا أعدنا إلى الذهن الانقلاب العنيف ضد المذهب وكثرة الذين تخلوا عنه بعد أن غاب عن مركز السلطة الخليفة الذي رعاه فإن زج مدسوسات في وقت لاحق قد لا يكون مستبعداً خصوصاً وأنه لم يكن هناك مركز رئيسي يُرجع إليه للمحافظة على بقاء النص سليماً من كل تحريف.

إن الدروز يطلقون على عقيدتهم اسم مذهب التوحيد ويسمون أنفسهم موحدين. فأساس معتقدهم وحدانية الله المطلقة[١]. في هذه الوحدانية ليس لله صفات خارجة عن ذاته، بل صفات الله هي عين ذاته[٢]. « ليس كمثله شيء ». إن المولى سبحانه لايدخل تحت الأسماء والصفات واللغات. « فسبحان ذي الجلال والإكرام من أن تدركه العقول والأبصار وهو المنزه عن الوصف والتعريف ». الواحد لامن عدد، الفرد الصمد. فهو سبحانه منفرد بالوحدانية، لايشوبه في تنزيهه تعطيل ولا يلحقه في وجوده تشبيه[٣]. هو في كل زمان ومكان، لايحده مكان ولا زمان. ازلي بلا بداية، ابدي لانهاية له، مبدىء الخلق ومعيده. هو الموجود في الحقيقة ولا غيره موجود »[٤].

في رسائل الحكمة تتكرر عبارة « من لايدخل في الخواطر والأوهام ». عجزت العقول عن إدراك كنهه تعالى « الذي جعل عجز العقول عن تحديد توحيده للعارفين برهاناً ». وفي هذا المعنى قال سهل التستري: « سبحان من لم يدرك العباد من معرفته إلاّ عجزاً عن معرفته »[٥].

(١) أكّد الإسلام وجوب الوحدانية لله تأكيداً جازماً.
(٢) وهذا ما تقوله المعتزلة فإن في تعدد الصفات الأزلية لله منافاة لما يجب له من توحيد مطلق.
(٣) الأمير السيد عبد الله التنوخي، شرح الرسالة الخامسة.
(٤) الرسالة ١٣ وغيرها من رسائل الحكمة.
(٥) الكلاباذي، التعرف على مذهب أهل التصوف. ص ٤٠.

إن الإقرار بوحدانيته دون الوصول إلى معرفة الذات الآلهية هو أساس الإيمان. يقول بهاء الدين: « فإن التوحيد للمولى جلّت آلاؤه أعظم المطلوبات وأنفس المدخرات وأشرف المكتسبات لأنه ثمرة ما سلف في العصور الخالية من المتعبّدات، وميزان القسط الذي به قامت الأرض والسماوات ».

إن عقيدة الدروز في التوحيد لاتختلف عنها عند الفاطميين. وعقيدة الفاطميين مشبعة بالفلسفة الافلاطونية الحديثة كما هو جلي في كتاب « راحة العقل » للفيلسوف الالهي الداعية حميد الدين الكرماني.

إن الواحد الذي لاسبيل إلى إدراك لاهوته تجلى في ظهورات في أدوار أولها دور العلي الأعلى تبعه سبعون دوراً بلغ مجموع سنيها ٣٤٣ مليون سنة حتى ظهور البار. وكان الحاكم آخر مقام للتجلي، كما كان آباؤه العزيز والمعز والمنصور والقائم مقامات ربانية أيضاً. وليست المقامات تجسيداً أو حلول الإلّه في البشر، بل تجليات وظهورات مثل انعكاس الصورة في المرآة، فإن الصورة لاتحل في المرآة. يقول حمزة: « لايتكل عبده على مخلوق من البشر، ولا يعبد شخصاً ولا صوراً، بل يعبد لاهوتاً كلياً وخالقاً ملياً، المظهر ناسوته للعالم، المسمي مقامه بالحاكم ».

ويقول الحلاج:

سبحان من أظهر ناسوتُه   سرَّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً   في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه   كلحظة الحاجب بالحاجب

إن اللاهوت هو ذات الله الذي لايدركه أحد من البشر. والناسوت هو النور الالهي المنعكس على إدراك الإنسان كل حسب صفاته واستعداده. فبتنزيه القلب وتصفية السرّ وطرح الجسد جانباً يتجوهر المنقطع إلى الله

وتفيض عليه الصفات الالهية ويتجلى فيه النور الالهي. إن أهل العرفان خبروا في معراجهم هذا الفيض من الصفات والأنوار الالهية. وأن الحاكم هو انعكاس ومظهر لهذا التجلي[1].

خلق الباري الكون من العدم. برأ الكائنات لتكون برهاناً على توحيده. أول المبدعات العقل الكلي، أبدعه الباري بأمره من نوره، وأوجد في قوة جوهره الأشياء كلها دفعة واحدة بلا زمان. قال تعالى للعقل: أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال له عز وجلّ: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك، بك آخذ وبك أعطي، وبك أثيب وبك أعاقب[2].

فلما سمع العقل ذلك نظر إلى شخصه فرآه بلا نظير ولا ضد فأعجبته نفسه وظن أنه لايحتاج إلى أحد ولا يقوم له ضد. عند هذه النظرة إلى ذاته ظهر الضد من نور العقل بغير إرادته، وهو ظلمة محضة. أمره العلي سبحانه بطاعة العقل فأبى وتكبر. فعلم العقل أنها محنة ابتلاه بها مبدعه، وأقرّ بالعجز واستغفر وتضرع إلى المولى أن يجعل له معيناً على الضد. فأبدع المولى من ذلك الشوق والتضرع النفس الكلي. وكان ظهور النفس من بين نور العقل وظلمة الضد. ولما كان الطلب والاشتياق من العقل الكلي صار ذلك الطلب والشوق قوة جاذبة للنفس إلى العقل وأفيض عليه من نور العقل الجزء الكبير ولم يكن فيه من ظلمة الضد إلاّ النزر اليسير.

---

(١) وفي تجلي الصورة الناسوتية يقول السيد عبد الله التنوخي: وكما تلمع أنوار البدر والكواكب على الغدير الصافي فيخيل أنها حلّت فيه، كذلك الصورة القدوسية الناسوتية المجردة من الحس واللمس تتجلى في قلب المؤمن الصافي النقي بلا تحيز ولا حصر ولا حدّ.
شرح الرسالة الثالثة عشرة من رسائل الحكمة.

(٢) ذكر هذا الحديث الغزالي في كتاب احياء علوم الدين، الجزء الأول، الباب السابع ص ٨٩، وفي معارج القدس، ص ١٥.

ولما كان موجب الإرادة الالهية والحكمة الربانية قيام حالة الازدواج في كل شيء. نور وظلمة، طاعة ومعصية، هداية وضلال، ظهر الند معيناً للضد من جوهر النفس بلا إرادة منه فكان فيه من نور النفس المتحد بالعقل النزر اليسير والغالب فيه ظلمة الضد. وبعد أن هداه العقل والنفس إلى معرفة باريه استماله الضد فانجذب إليه وهبط معه إلى الدائرة السفلى.

ومن جوهر النفس ظهر الكلمة الأزلية، ومن الكلمة ظهر السابق، ومن السابق التالي، كل منها منفعلاً بالحركة التأييدية المتصلة به من العلل السابقة له.

وكان للضد والند عند وجودهما قبول متساوٍ للطاعة والمعصية. فأقبل العقل على الضد يهديه، وتكررت هداية الضد ثلاث مرات رحمة من الباري في مهلته، فكانت هداية العقل له أولاً ثم هداية العقل والنفس له ثانية ثم هداية العقل والنفس والكلمة والسابق ثالثاً حين أحاطت به هذه الأنوار الأربعة.

وهذه الجواهر النورانية كانت قابلة للطاعة والمعصية قبولاً متساوياً، وبهذا ثبت عدل الله في خلقه.

في النفس الكلي صارت النفوس الناطقة جميعها ساكنة بالقوة. ومن النفس برزت إلى التالي بعد أن حلّت بالجواهر الأخرى.

ومن التالي خرجت الأفلاك والطبائع الأربعة وهي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، والهيولى الطبع الخامس. والأفلاك تسعة: الفلك المحيط أو الفلك الأطلسي وهو خالٍ من الكواكب، ثم فلك البروج الاثني عشر وفيه النجوم الثابتة، ثم أفلاك المدبرات السبع: زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر، كل في فلكه. وجميع الأفلاك

أكرةً مستديرة في وسط بعضها بعض، وفي الوسط منها الأرض. وعلى الأرض ظهرت تباعاً المواليد الثلاثة: المعدن والنبات والحيوان.

وكانت النفوس الناطقة ارواحاً بلا أجسام. فعطف عليها العلي المتعالي وأوجد لها صوراً بشرية، وكانت قبل أن توجد لها الأجسام البشرية عاجزة عن معرفة خالقها وباريها.

إن المواليد والأجسام البشرية نشأت من مواد الطبائع والأفلاك والمدبرات. ولما بث الحكيم القادر الأرواح في الصور الإنسانية عرفت النفس مصدرها الإلهي وظهرت القدرة على الاختيار بين الخير والشر. إن الإنسان غرض الباري من جميع المخلوقات. لأن العالم جميعه العلوي والسفلي له ومن أجله. وقد خُلق الإنسان ليعبد الله ويقر بوحدانيته[1].

إن التشابه بين معتقدات الدروز وآراء إخوان الصفاء يوحي بالصلة بينهم. فآراء إخوان الصفاء ترتكز على نظرية الفيوضات الأفلوطينية المتوالية في نظام تنازلي. فمن العقل الكلي، وهو المبدع الأول، صورت النفس الكلية وهي دائمة الشوق والتطلع إلى العقل علّتها. وعن الأفلاك في دورانها تكونت تسع دوائر كل منها محاطة بالدائرة التي سبقتها، أدناها فلك القمر، وتحته الأرض. وأول ما ظهر على الأرض المعادن تبعها النبات الذي ظهر قبل الحيوان لحاجة الحيوان إليه. إن آخر مرتبة المعادن متصل بأول مرتبة النبات، وآخر مرتبة النبات متصل بأول مرتبة الحيوان، وآخر الحيوان مربوط بأول البشر، وآخر البشر مربوط بأول الملائكة.

(١) زين الدين عبد الغفار تقي الدين، مختصر البيان في مجرى الزمان.

M. Sprengling, The Berlin Druze Lexicon, American Journal of Semitic Languages and Literatures, Vol. 56, 1939, pp 388-414.

ان بحث الاستاذ شبرنغلنغ يسجل خطوة هامة في الفهم الصحيح لمذهب الدروز.

تقول الرسالة الجامعة: «وهذا يا أخي علم غامض وسر دقيق... لا يقف على سره والإحاطة بخبره إلا العلماء الراسخون في العلم»[1].

وهناك عوالم غير عالمنا. جاء في «المنفرد بذاته»: إن ما ترون من كواكب ومصابيح وما لا ترون في أفلاك من فوقكم ومن تحتكم وعن أيمانكم وعن شمائلكم لهي مهاد ومستقر ومستودع لأمم أمثالكم، ولكنهم سموا فسموا، فتأبدوا في جنات عيون الحيوان.

إن الكائنات البشرية، وقد دخلت النفوس الناطقة إلى أجسادها، اشتاقت إلى معرفة ربّها. فتعطف عليها الرحيم وتجلّى بصورة العلي الأعلى. وهكذا بدأت سلسلة من التجليات الإلّهية. وكان العقل الكلي ينشر الدعوة في كافة التجليات. ولما ظهر التجلي في مقام الحاكم تشخص العقل في حمزة

إن معرفة الحدود عنصر أساسي في مذهب الدروز. والحدود جواهر روحانية لها مثلها في عالم الحس. في زمن الحاكم كان الحدود الخمسة العالين والحدود الثلاثة الذين دونهم ممثلين بأشخاص قاموا بنشر الدعوة.

أول هذه الجواهر العقل الكلي، أبدعه الخالق بلا واسطة من نوره الشعشعاني، وهو نور محض. وإذا كان يتعذر الوصول إلى كنه معرفة الواحد، فالعقل بخلاف ذلك يقع ضمن قدرة إدراك البشر. هو إرادة الله وأمره، خُلق بكلمة كن. «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن

(١) إخوان الصفاء، الرسالة الجامعة، الجزء الأول ص ٢٧٦-٢٨٦، ٣٣٧.

يقول ابن خلدون: ابتدأ عالم التكوين من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج. إن آخر أفق المعادن متصل بأول افق النبات، وآخر أفق النبات متصل بأول أفق الحيوان. «واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية». تاريخ، الجزء الأول ص ٨١.

فيكون »[1] قال المعز: العقل هو الجوهر المبدع من لا وجود إلى وجود دفعة واحدة بلا زمان، ووجوده بحرف الأمر. فالأمر هو القوة الفاعلة الأولى المنبجسة من الوحدة التي تخص الباري.

وتماثل عقيدة الدروز في العقل نظرية الفيلسوف الالهي حميد الدين الكرماني، يقول الكرماني: العقل الأول هو الإبداع الذي وجوده لا من شيء. خصَّ باسم الإبداع لكونه ذات الفعل الصادر إلى الوجود عن المتعالي سبحانه. إن علم كيفية الإبداع في حجاب أيست العقول من أن يكون لها إلى دفعه والوصول إليه سبيل. المبدَع الأول علة لوجود الموجودات الكائنة، وهو النهاية في الكمال والتام والنور والضياء والمجد والقدرة والبهاء[2].

وهذا قول إخوان الصفاء الذين ربما كان الكرماني أحدهم. تقول رسائل الإخوان: العقل هو الإبداع الأول والخلق الأكمل. خلق الله سبحانه وتعالى الأشياء كلها دفعة واحدة بالقوة في إبداعه الأول وخلقه الأكمل، ثم أخرجها من القوة إلى الفعل الشيء بعد الشيء[3].

والعقل مبدأ الكثرة والتعدد في الوجود. هو علة الموجودات تنزيهاً للباري سبحانه عن المباشرة لإبداع الكائنات بذاته المقدسة[4].

يعتقد الدروز أن نفوس البشر خلقت كلها دفعة واحدة، وعددها ثابت لا زيادة فيها ولا نقصان. عند الموت تنتقل النفس إلى جسد آخر،

(١) القرآن الكريم ٣٦: ٨٢، سورة يَس.

(٢) الكرماني، راحة العقل، السور الثالث والرابع.

(٣) رسائل إخوان الصفاء، الجزء الرابع، الرسالة الثامنة ص ٢٥٠، ٢٥٧؛ والرسالة الجامعة، الجزء الأول ص ٢٦٩ – ٢٧١.

(٤) يقول السيد عبد الله التنوخي في كتاب الكمالات: «بالعقل تنزه الباري عما خلق».

فالجسد ليس سوى قميص للنفس (من هنا كلمة التقمص) ولا تنتقل النفس البشرية إلّا لبشر. هذا ما تؤكده الكتب الدينية. أما الزعم بأن نفوس الأشرار تنتقل إلى الحيوانات فهو فرية. يقول حمزه: أين العدل في أن يعاقب الإنسان الذي يعقل ويعرف الخير من الشر بتحويله إلى حيوان لا يعقل ولا ينفع معه العقاب كوسيلة للتوبة.

إن عملية التقمص تستمر إلى آخر زمان ترتفع النفوس وتسمو بتعلقها بالحق أو تنحدر بإهمالها لتعاليم الدين.

إن النفوس الناطقة كانت حين إبداعها قابلة للخير والشر قبولاً متساوياً ولها الحرية أن تختار بين الحق والباطل. إن الله الذي وسع علمه كل شيء يعلم ما الذي ستختاره، لكن أفعالها ناتجة عن اختيارها. يقول بهاء الدين: لو كان أمر الله حتماً ونهيه جبراً لم يشك فيه أحد وأطاع الخلق بأسرهم، وحينئذ يسقط التفاضل ويبطل الثواب والعقاب. بل أمره جلّت آلاؤه تخيير ونهيه تحذير ليقوم العدل بالتخيير في الخليقة ويصح الثواب والعقاب. وهل في العدل سوى التخيير؟

إن الطريق التي يسلكها الإنسان هي محض اختياره. وإن النفس في تقمصاتها المتكررة تمر في اختبار كل أحوال الحياة من سعادة وشقاء وغنى وفقر، وصحة ومرض، وهكذا تتكرر الفرص أمام النفس لإصلاحها وإنقاذها، وبهذا يتم العدل الإلّهي. جاء في إحدى الرسائل: إن ما يوجبه العدل ويقضي به ويقطعه العقل فهو الجزاء بمقدمات الأعمال بعد التخيير ومجازاة الأنفس بما كسبت.

توصي كتب الدروز، بعد الإقرار بتوحيد الباري تعالى، بخصال سبعة، أولها صدق اللسان وثانيها حفظ الإخوان، ثم التبرؤ من المعتقدات التي تنافي التوحيد ومن القائلين بها، والوصية الخامسة الإعتقاد بأن

مذهب التوحيد كان في كل عصر وزمان، والسادسة الرضى بفعل الله، والسابعة التسليم لأمره.

والإيمان والعمل به يفيض من النور المودع في قلوب المؤمنين. «واعلموا أيها الموحدون المؤمنون العاملون، القائمون بالقسط فيما بينكم، الذين لا يخشون في الحق لومة اللائمين وسطوة المتجبرين، إن ذلك النور الذي أودعه مولاكم في قلوبكم هو الحق والهدى بصفائه، والرأفة والرحمة والشفقة برقته، والشدة والصلابة والغلظة بهذا الصفاء وتلك الرقة»[1].

يرتكز مذهب الدروز على القرآن الكريم كما فسره دعاة المذهب. ويقر بأن التوراة والإنجيل كتب سماوية أسوة بنظرة الإسلام إلى ديانتي الوحدانية السابقتين. ويعود بدعوة التوحيد إلى أصول ترجع إلى سعي الإنسان منذ القدم إلى معرفة الواحد الحق. فالدروز يكرمون هرمس حامل رسالة إلّهية، وفيثاغورس الحكيم الزاهد الذي نشر دعوة التوحيد، وأفلاطون الإلهي، أما افلوطين فأثره واضح في كتب الدروز الدينية.

إن مذهب الدروز مسلك صوفي عرفاني يصفونه بالمسلك الثالث، فالسالك بعد أن يكون قد ارتاض بالعمل بموجب ظاهر الشريعة وباطنها يصل إلى مرحلة يصبح عندها مهيّأً لتقبل الحقيقة دون حاجة إلى شعائر ووسائط.

أما ممارسة الشعائر وإن لم يكن فرضاً ملزماً فإن مسلك التوحيد يوصي بالحفاظ على سنن الشريعة وتكاليفها. يقول بهاء الدين في رسالة البنات الكبيرة: واعلمن إنما تسقط مكلفات الشرع عن الجوارح والأجسام إذا عمل المؤمن بفكره في حفظ العلوم والحقائق الإلّهية المؤدية إلى التوحيد.

(١) الشريعة الروحانية ص ٢٤٧-٢٤٨.

إن ما هو أهم من ظاهر العبادات معناها الحقيقي وهو الرياضة الروحية التي تخضع النفس إلى مراقبة شديدة وتقهر نزعاتها الضارة والتي بها تتم تنقية القلب وتصفية السرّ فتصبح النفس مهيأة للمثول أمام خالقها فتبلغ بنعمة المولى ولطفه مرتبة المشاهدة، وفي ذلك تحقق ذاتها. وكما يقول الغزالي: ومتى قهر الإنسان الشهوات أو أماتها صار حراً نقياً بل إلّهياً ربانياً[1].

يقول حمزة: إن المسلك الثالث وهو التوحيد غاية لا تدرك بل كل واحد يوحده من حيث مبلغ عقله وما تنبسط فيه استطاعته وتتسع فيه همّته وخاطره.

وعلى النفس في سلوكها إلى التوحيد أن تتغذى بالعلوم الروحانية، كما يقول اسماعيل التميمي في رسالة الزناد. فالنفس قابلة للعلم والجهل، وأيهما غلب عليها مالت إليه. وإن جوهر النفس كامن فيها كما تكمن النار في الزناد، ولا تظهر النار من الزناد إلّا بالقادح والحجر، والنفس إذا عُدِمت التذكار بالعلوم الروحانية وهو غذاؤها وبه بقاؤها ونماؤها، مالت إلى الجهل لغلبة النفس الحسية البهيمية عليها. وإذا ارتاضت برياضة الحكمة وتغذت بالعلوم الإلّهية وكانت قابلة لما يتحد بها من جوهر العقل تجوهرت وصفت ولحقت بعالمها. وكما أن النار تبدأ شرارة صغيرة ثم تنمو وتضرم إلى ما لا نهاية له، كذلك العلم الذي هو أثر من العقل يتحد بالنفس الشريفة فتقبله فتزكو وتنمو حتى تصير صورة روحانية أي موجداً حقيقياً.

وفي رسالة ثانية يوصي التميمي بالجد المتواصل في دراسة الحكمة، فيقول: ولا يستغني أحد بما حفظ عن درس الحكمة، ولا يقنع بما علم ويطمئن إلى أنه ليس بحاجة إلى المزيد، فإذا انصرف عن التعب والحرص

(١) الغزالي، معارج القدس، ص ٨٤.

على التحصيل فإن الذي حصل عليه سيضيع منه. وبذلك يشبه حساماً قاطعاً وذا جوهر لامع ولكن لطول مقامه في غمده أصابه الصدأ وعسر إصلاحه. وكذلك النفس الشريفة التي تجوهرت وصفت وأقرّت بتوحيد مبدعها وآمنت، إذا بعُدت من الرحمة وعدمت غذاءها من نور الحكمة رجعت ضالة بعد هداها جاهلة بعد تقواها.

وفي الرسالة نفسها يقول: فالسعيد من جعل الحكمة لقلبه مسكناً وجعل طلبها عنده ازكى مغنماً، وجعلها عن غير أهلها في حصن وحرما.

إن الدروز جروا على كتمان مذهبهم عمن سواهم. وللتقية دور في هذا التستر. فالتقية هي ستر المذهب إذا تعرض الفرد أو الجماعة للخطر بسبب المعتقد. وقد أذن القرآن بالتقية في ظروف خاصة[١]. وفي الحديث: الأعمال بالنيات. أما الشيعة فقد جعلوا التقية واجباً في سبيل مصلحة الجماعة. وإلى جانب التقية هناك سبب للكتمان أكثر أهمية وهو الحفاظ على العقيدة كي لا تصل إلى الذين لم يتهيأوا لقبولها، فيسيئوا تفسيرها ويشوهوا حقيقتها ويختلط عليهم ما يعتقدونه.

لقد اتفق أهل العرفان (gnostics) والصوفية أصحاب الإيمان الكشفي والحكماء المتألهون (theosophists) في كافة العصور على وجوب حجب بعض الحقائق الروحانية عن العامة. وفي الفلسفة الإسلامية هناك الحكمة المسكوت عنها وهي أسرار العلوم الإلَهية. أما العلوم الشرعية فمعرفتها بتناول الجميع[٢].

في سجل لأحد الخلفاء الفاطميين بتعيين داعي الدعاة، يوصي الخليفة

(١) القرآن الكريم، ١٦:١٠٦ سورة النحل: من كفر بالله بعد إيمانه إلّا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

(٢) الجرجاني، كتاب التعريفات، ص ٩٧.

من جملة وصاياه للداعي أن يحفظ الحكمة عن غير أهلها بقدر حرصه على أن لا يمنعها عن مستحقها[١]. من الجدير أن نلاحظ أن الوصية بشأن حفظ أسرار الحكمة وردت بعبارات تكاد تكون واحدة في كل من السجل الفاطمي وكتب الحكمة عند الدروز ورسائل إخوان الصفاء الذين يشاركهم الدروز في كثير من المعتقدات.

كان إخوان الصفاء أينا وجدوا يعقدون مجالس خاصة بهم لا يحضرها غيرهم يتذاكرون في علومهم ويتأملون في أسرارهم. قالوا إنهم لم يكتموا أسرارهم عن الناس خوفاً من سطوة ذوي السلطنة الأرضية ولا حذراً من شغب جمهور العوام بل ليصونوا الحكمة عن غير أهلها. وحرصاً منهم على حفظ الحكمة عمّن ليس من أهلها كتب الإخوان ما أرادوا كتمانه في كلمات وعبارات وإشارات لا يفهمها غيرهم[٢].

أما جابر بن حيان، الذي تنسب إليه مجموعة من الكتب العلمية والغيبيات، فقد اتبع للحفاظ على السرية، طريقة بعثرة الموضوع الذي أراد أن يبقيه سراً في عدة رسائل بدلاً من إبرازه كاملاً في مكان واحد، كما يقول هو: «إنّ من سبيلي شرح العلم وتبديده وتجزيقه في المواضع الكثيرة».

ويعهد الفيلسوف الإشراقي السهروردي إلى أصدقائه في الحفاظ على كتابه «حكمة الإشراق» ويوصيهم «بحفظ هذا الكتاب والاحتياط فيه وصونه عن غير أهله»[٣].

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء العاشر ص ٤٣٦–٤٣٨.

(٢) رسائل إخوان الصفاء، القسم الرابع، الرسالة السابعة. والرسالة الجامعة، الجزء الأول ص ١٦٩–١٧٠؛ ٥٢١–٥٢٣.

(٣) السهروردي، كتاب حكمة الأشراق، ص ٢٥٨.

والإمام الغزالي كان يرى أن من الحقائق الدينية ما يجب أن لا توضع أمام العامة، بل يعطى لكل على قدر طاقته من استيعاب الحقيقة. وكان أحد المريدين طلب إليه أن يشرح له سرّ الأنوار الإلّهية والمعنى الباطني لآية النور مع تفسير حديث الحُجب، فأجاب الغزالي: «ولقد ارتقيتَ بسؤالك مرتقى صعباً تنخفض دون أعاليه أعين الناظرين. وقرعت باباً مغلقاً لا يُفتح إلّا للعلماء الراسخين. ثم ليس كل سرّ يكشف وينشر، ولا كل حقيقة تعرض وتُجلَى، بل صدور الأحرار قبور الأسرار»[1].

إن مذهب الدروز نشأ في عصر نشطت فيه دراسة الفلسفة والعلوم اليونانية وكانت دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله مركزاً لهذه الدراسات. وقد أثّرت نظرية الأفلاطونية الحديثة في معتقدات الدروز فيما يتعلق بالخالق والخليقة. أما آثار حكمة الهند فإن مخطوطات مكتشفة حديثاً تلقي عليها ضوءًا جديداً.

لقد رأينا دعوة فاطمية – اسماعيلية ناشطة في غربي الهند منذ القسم الأخير من القرن الرابع / العاشر، حين قامت دولة في السند تدين بالولاء للخليفة الفاطمي. وتغلغلت البوذية منذ ما قبل الإسلام في شرقي بلاد فارس وفي ما وراء نهر جيحون. وكانت بلخ مركز جماعة كبيرة من البوذيين لهم هياكلهم، أشهرها النوبهار الذي كانت آثاره لا تزال باقية عدة قرون بعد الإسلام. وكما ذكرنا سابقاً فإن الدعاة كانوا يعملون بنشاط في هذه النواحي قبل تأسيس الدولة الفاطمية وبعد قيامها. واشتهرت بلخ أيضاً بأنها موطن لعدد من أهل التصوف. إن قصة ابراهيم بن أدهم، أمير بلخ الذي تخلى عن الإمارة واستبدلها بحياة الصوفي، تعيد إلى الأذهان قصة بوذا الذي اعتزل الملك ليعيش حياة فقر وتقوى.

(١) الغزالي، مشكاة الأنوار، ص ٣٩.

تشير المخطوطات التي اكتشفت حديثاً أن الحاكم لما غاب عن القاهرة توجه إلى سجستان على حدود الهند. وهنالك استمر في حياة التأمل كما يظهر من الرسائل التي وضعها في هذه الفترة. إن رؤيا ديانة عالمية كانت دوماً ماثلة أمام الحاكم. فإن الديانات، إذا ما طُرحت جانباً خلافات في ظاهر العقائد، جميعها مظهر للحق. إن بوذا وغيره من حكماء الهند، وكذلك حكماء مصر القديمة واليونان، مع أنبياء الديانات السماوية، جميعهم أنوار من ينبوع النور الواحد.

يوصي الحاكم الموحدين أن يأخذوا الحكمة ونورها من أي سراج أو شمعة شاءوا، فهي سُبُل ومناهج وأنوار ولكنها سبيل ومنهاج واحد ونور من شمس واحدة للحقيقة الواحدة وللحق الفرد الصمد[1].

(١) سجل سرائر الأول والآخر ص ١٨.

الفصل التاسع

الأخلاقيات عند الدروز

في ربيع الأول من سنة ١٠١٧/٤١٠ كتب حمزة بن علي إلى أحمد بن العوام قاضي قضاة الدولة الفاطمية يأمره بأن لا ينظر لموحد في حكم بل يرسله إليه ليحكم بحكم «الشريعة الروحانية».

أما مصدر «الشريعة الروحانية» فهو «دعائم الإسلام» المرجع الرئيسي للفقه الإسماعيلي الفاطمي. وكان الحاكم بأمر الله قد أمر هارون بن محمد داعيته في اليمن وأبا الفوارس أحمد بن يعقوب داعيته في الشام بالقيام بمهمتها طبقاً لتعاليم «دعائم الإسلام». وتتكرر الإشارة إلى «كتاب الدعائم» وإلى مؤلفه القاضي النعمان في عدد من رسائل الحكمة. وينعت بهاء الدين القاضي النعمان «السيد الموحد الأزلي»[١].

ولكن «الشريعة الروحانية» تختلف عن الدعائم في أمرين أساسيين هما إلغاء الرق وتعدد الزوجات. إن الميثاق الذي يرتبط بموجبه المستجيب بالعقيدة ينص على أن يكون المستجيب صحيح العقل والبدن وأن لا يكون في رق أحد بل يملك الاختيار لنفسه ويقول بهاء الدين: «وقطع الميثاق الرق وأزاله». وحرّمت الشريعة الروحانية «بيع الإنسان».

إن الأهمية الثورية لهذا التشريع تدرك بوضوح إذا ما وضعناه في إطاره التاريخي وهو زمان كان فيه نظام الرق مألوفاً في مجتمعات تنتمي

(١) رسائل الهند، ص ١٩١، ١٩٧.

إلى مختلف الحضارات. ولم يُلغَ الرق في بلدان الحضارة الغربية إلّا بعد ثمانية قرون من ذلك التاريخ.

كذلك كان إلغاء تعدد الزوجات في جماعة تعيش ضمن مجتمع يسمح بهذا التعدد إجزاءً ثورياً. وقد كان خطر الجمع بين امرأتين عاملاً بارزاً بين العوامل التي اثرت في رفع مستوى المرأة الدرزية.

وفي الأخلاقيات عند الدروز يأتي الصدق على رأس الفضائل. إنه أول الوصايا السبع التي فرضت على الموحدين يقول حمزة: الصدق هو الإيمان والتوحيد بكماله والكذب هو الشرك والكفر والضلالة. إن الصدق بهذا المعنى يشمل جميع الفضائل ومن أبرزها الشجاعة الأدبية. «يا أيها الذين آمنوا لا يمنعكم مهابة الناس أن تقولوا الحق إذا علمتموه واعلموا أن أفضل عمل تقدمونه بين يدي مولاكم قولة حق عند متكبر جائر»[١].

وفي تقليد الرضى ثالث الحدود يوصيه حمزة أن يقول الحق ولا يخشى إلّا ذنبه وفي موضع آخر يقول حمزة: الصدق من الإيمان كالرأس من الجسد.

إن الإلتزام بهذا الأمر يمكن تجاوزه إذا نتج عن الإفضاء بالحقيقة ضرر يطال المجتمع. غير أن القاعدة هي التقيد الصارم بالصدق. ويؤمَر الموحدون بأن يحسنوا معاملة جميع الذين يعيشون بينهم بصرف النظر عن معتقداتهم[٢].

وقد اشتهر عن الدروز صدقهم، وهذه مزية اعترف لهم بها أولئك الذين يعادونهم بسبب عقيدتهم الدينية ومثال على ذلك قاضي قضاة صفد

(١) المنفرد بذاته، ص ٣٧.
(٢) الشريعة الروحانية ص ٢٠٩، ٢١٥.



الذي ألّف تاريخ صفد حوالي سنة ١٣٧٠ ميلادية. فهو يفتري على معتقدات الدروز غير أنه يقول: «إلّا أن معاملة هؤلاء القوم في البيع والشراء والأخذ والعطاء جيدة موثوق [بها] لا يكذبون في أيمانهم»(١).

والتكافل فيما بينهم من أولى واجبات الموحدين. فالموحدون إخوة وأخوات، ومن صلة الأخوة هذه ينبع الإلتزام بالعون المتبادل. فمن واجب الأغنياء إعالة المحتاجين، لكنه حرام على الموحد أن يغتنم بعد الوجود الكافي أخاه، كما أنه حرام على أخيه المؤمن إذا تحقق عدمه أن يحوجه إلى سواه(٢).

ويوصى الموحدون بتقوية الألفة فيما بينهم وأن يتزاوروا كثيراً ويتهادوا وأن يكثروا من الصدقة ويبكروا بها ويعلموا أن كل معروف صدقة. وفي الإطعام بركة وأكثر الطعام بركة ما كثرت عليه الأيدي(٣).

إن المحافظة على الإخوان واجب ديني كما جاء في الوصية الثانية من الوصايا السبع التي أُمِر الموحدون باتباعها. فالموحدون يستجير بعضهم بعضاً وإن بعدت المسافة بينهم ولم تصلهم قرابة رحم.

ولا يقتصر التكافل على العون المادي بل يكتمل بالإرشاد الروحي والتعليم الديني. إن تعليم الحكمة لمن هم أهل لها صدقة فرض. وحُرِّم على المؤمنين أن يأخذوا أجراً على تعليم الحكمة. وتجدر الإشارة إلى قول المعز لدين الله: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يقيم مؤمناً مثله».

إن الشبه في هذا الصدد بينهم وبين إخوان الصفاء مما يسترعي

(١) Bernard Lewis, An Arabic Account of the Province of Safad, BSOAS, Vol. 15, 1953, p 485.

(٢) الرسالة ٥٧.

(٣) الشريعة الروحانية ص ١٦٥-١٦٩، ١٧٢-١٧٣، ١٨٥-١٨٧.

الانتباه. لقد كان إخوان الصفاء يعينون الداخل في جماعتهم على أمر الدنيا إذا لم يكن مستغنياً بحيث يمكنه وقد تحرر من القلق على معيشته، أن يصرف همه في طلب العلم، فيتاح له التعليم الروحي وسائر العلوم بحسب مقدرته واستعداده للتعلم(١).

إن الاحترام المقرون بالتواضع واجب تجاه المعلم والمرشد في الدين، فهو أب روحي يعهد إليه بتربية الطالب الروحية. يقول حمزة: الخلق خلقان، خلق البشرية وخلق الحقيقة الدينية من كلام المفيد واستماع المستفيد وقبوله بعقله فيصير مستجيباً بالغاً.

ويوصي حمزة الداعي الشيخ الرضى أن يلطف بالدعاة وجميع الموحدين ويكون لهم أباً شفيقاً ومربياً رفيقاً. فاللطف والتواضع صفة الموحدين والفضيلة درعهم الواقي. ويدعوهم بهاء الدين أن يصونوا أنفسهم بالعقل والسكون والفعل الجميل، ويتعاونوا على الإصلاح والبر والتقوى ويتآلفوا على الصيانة والطاعة والطهارة ومكارم الأخلاق(٢).

أما الإلتزامات والعقوبات الشرعية؛ فمتطابقة عموماً لما ورد في الشرع الإسلامي. وفيما يتعلق بالمباح والمنهى عنه من المأكل والمشرب فالقواعد هي ذاتها. والربا إثم عظيم. ويعتبر الإحتكار إثماً خاصة احتكار المواد الغذائية(٣).

إن الوصايا والقواعد المتعلقة بممارسة القضاء تتضمن موادَّ في غاية الإنسانية، فالمتهم بالقتل يجب تقريره باللطف. ولا يجوز على رجل قَوَد ولا

(١) رسائل إخوان الصفاء، القسم الرابع، الرسالة ٤ و٧، الرسالة الجامعة، الجزء الثاني ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٢) رسائل الحكمة ٢١، ١٠٣.

(٣) الشريعة الروحانية ص ١٤٢-١٤٥.

حدّ إذا كان إقراره بالتخويف والحبس والضرب. ومن أقر بذنب جرم على تخويف أو حبس أو ضرب لم يُجَز ذلك عليه ولا يُحكَم[١]، ويجب تفقد السجون كل يوم جمعة. ومن كان عليه حدّ ينبغي إقامته ومن لا حدّ عليه يطلق سبيله. ولا حبس على معسر في الدين إذا ثبت عسره بل يمهل إلى ميسرة. والشفقة والرحمة واجبة نحو الحيوان أيضاً. «وارحموا حتى ذبيحة عصفور فإن في كل ذات كبد حرّى أجراً»[٢].

وعلى القاضي أن لا يسعى للمنصب لأنه إن فعل فقد يفقد حريته واستقلالية حكمه إذ يكون همّه الإحتفاظ بمنصبه. وينطبق هذا على شاغلي مناصب أخرى مثل الامارة، وذلك كضمان بأن المنصب لن يستغل لمصلحة طالبه، فالذي يعيّن لمنصب دون السعي إليه قد يكون أكثر استعداداً للنظر إلى عمله على أنه خدمة عامة. ويجب أن يجلس القاضي للقضاء وهو في حالة نفسية كاملة الاتزان وقد أفرغ فكره من كل انشغال آخر. ويجب أن يكون ذا خلق لا يرقى إليه الشك. ولا يجوز لأحد أن يسأل القاضي حاجة «فإن الحقوق ليس فيها شفاعة». وإذا عُرضت قضية لا سابقة لها يُستشار أهل الرأي من المؤمنين وما تمّ عليه رأيهم فهو الحق[٣].

وعلى الموحدين أن لا يطيعوا الحاكم الجائر. وأمروا بأن يطهروا أنفسهم بماء العدالة ويضيئوا سبلهم بأنوار الأعمال الصالحة. «يا أيها الموحدون ليس الناس في حاجة إلى خزكم وديباجكم وذهبكم، وإنما احتاجوا إلى قسطكم وعدلكم وصدقكم في ألسنتكم وفي قلوبكم»[٤].

(١) الشريعة الروحانية ص ١٩٠، ٢١٠.

(٢) الشريعة الروحانية ص ٢٠٦، ١٤٩، ١٨٢.

(٣) الشريعة الروحانية ص ٢١١، ٢٢٢–٢٢٤.

(٤) الشريعة الروحانية ص ١٥٦، ١٧٧، ٢٢٥.

والعدالة تعني أيضاً حرية الاختيار بين الحق والباطل. فقد مُنح الإنسان الحرية في تقرير سلوكه وعليه تعود المسؤولية في النهج الذي يسلكه. إن الإنسان والٍ على نفسه. وهذه الحرية والمسؤولية هي ملازمة للعدالة الإلّهية في الثواب والعقاب، يقول بهاء الدين: وهل في العدل سوى التخيير.

وتشدد أخلاقيات الدروز على الانضباط الذاتي[١]، فالنفس الامّارة هي أعدى عدو الإنسان، فهي تشمل مجموعة من الصفات المذمومة: الكبرياء والحسد والغضب والبغض والشهوات والمخاوف. فإذا ما ترك لها العنان تصبح السيد وتقود إلى التهلكة. إن التغلب عليها يقتضي جهاداً شاقاً هو الجهاد الأكبر. وبالرياضة والسياسة، وهي المراقبة الشديدة، يتم كسر النفس وتقويمها. فإذا قهرت النفس الامّارة بالسوء عرف الإنسان طريقه إلى الله. يقول حمزة: من نهى نفسه عن الشهوات البهيمية كان أفضل من الملائكة المقربين. وفي «الشريعة الروحانية» أن أرسطاطاليس قال للاسكندر: «لأن الفلسفة إنما هي مَلْك الشهوات».

إن الصبر المشبع بروح التقوى من صفات النفس التي أخضعت القوى

(١) يشترك بهذا الصفة الكافة والخاصة. حكى لي الدكتور فؤاد صروف أنه بينما كان يستقل سيارة أجرة في أحد الأيام جرى حديث بينه وبين السائق عرف من خلاله بأن السائق يقول الشعر العامي، فطلب إليه أن يسمعه شيئاً من نظمه، فقال:

قلبي لجمتو، كل شهوي مشلّحو ... كابح جماحه، بالحقيقة ملّحو
حاربت نفسي ولم أزل بالمعركي ... انصلّحت نفسي، كل ربع بصلّحو

صاحب هذا القول هو نديم رافع من قرية الفاقين.
من الطريف توافق هذا القول العامي مع ما جاء في إحدى رسائل إخوان الصفاء بهذا الصدد: «اعلم أن الجسد مسوس والنفس سائس فأي نفس ارتاضت في سياسة جسدها كما يجب أمكنها سياسة الأهل والخدم والغلمان». رسائل إخوان الصفاء، القسم الثاني الرسالة الخامسة عشرة.

المتنازعة في داخلها. فهي لا تتحمل الألم والمعاناة بالصبر فقط، ولكنها تتقبلها بالرضى خاضعةً خاشعةً إذ ترى فيها وسيلة للتطهير والتصفية. وهي في كل ذلك تتكل على الله وتسلم لمشيئته. وهذا التوكل الصادر عن معرفة الله حق معرفته يزيل المخاوف وبواعث القلق ويفيض الرضى والطمأنينة على النفس.

وفي الوصايا السبع التي أُمر الموحدون باتباعها، توصي السادسة بالرضى بفعل الله عز وجل والسابعة بالتسليم لأمره في كل حال. ويقول حمزة: الرضى والتسليم نهاية العلم والتعليم.

الفصل العاشر

مواطن الدروز

حين أغلق باب الدعوة في منتصف القرن الخامس / الحادي عشر كان معتنقو المذهب الذي نشأ في عهد الحاكم منتشرين من شمالي افريقيا إلى الهند أما اليوم فإن مواطن الدروز منحصرة في سوريا ولبنان وفلسطين. وقد زالت من الوجود مجتمعات أخرى من الموحدين بعضهم فور غياب الحاكم في أعقاب الاضطهاد الذي جرى في أيام خليفته الظاهر وبعضها الآخر اندمج في المجتمع الذي كان يعيش بين ظهرانيه وكان مجتمعاً سنيّاً على العموم.

إن كتب الدروز الدينية تتضمن أقدم ما وصلنا من معلومات عن نشأة هذه الجماعة. ففي هذه الرسائل التي كتبت بين سنة ٤٠٨ / ١٠١٧ و٤٣٤ / ١٠٤٢ نجد حركة تبشيرية ناشطة شملت جميع أنحاء سورية، وقد تواجد معتنقو الدعوة بكثافة في جنوبي جبل لبنان وفي وادي التيم، كما وجدت جماعات منهم في دمشق وجوارها ومنطقة حلب وجبل السماق غربي حلب.

هنالك رسالة تقليد[١] من الشيخ المقتنى بهاء الدين إلى الأمير التنوخي أبي الفوارس معضاد يعهد إليه بالإشراف على الدعوة في مقاطعات إمارة الغرب. والرسالة غير مؤرخة ولكن أبا الفوارس تولى الإمارة سنة

(١) الرسالة ٤٨.

٤١١ / ١٠٢٠[١]. وكانت الدعوة بلغت آل تنوخ قبل تقليد أبي الفوارس فقد أوصاه بهاء الدين أن يتفقد بالسلام من تقدمه إلى هذا الأمر من رؤساء العشيرة وأن يصرف فكره إلى الشيوخ الديّانين المقيمين في فلجين والبيرة من أعمال الغرب وفي عين صوفر بالجرد والمروج وعين عار في المتن. وتذكر الرسالة الاميرين أبا الحسن وأبا العزّ ابني الخضر وتشيد بها لتقواهما وعلمهما. وكان هذان الأميران يقيمان في كفرسلوان الواقعة في سفح جبل الكنيسة. ويثني بهاء الدين على شيخ آخر هو أبو القاسم بن منصور كبير أعيان منطقة الجرد. وكان يقيم في شمليخ، قرية عامرة في زمانه، قبل أن ينتقل إلى عين داره في أواخر أيامه. وجاء في أخبار السلف أن بهاء الدين نزل عند الشيخ في شمليخ لما زار المنطقة[٢].

وفي رسالة أخرى بعث بها بهاء الدين إلى الأمراء التنوخيين[٣] في سنة ٤١٨ / ١٠٢٧ يحضهم على مواصلة السير على خطى أسلافهم دعاة التوحيد. واحد الأمراء الثلاثة الذين وجهت إليهم الرسالة هو أبو اسحاق ابراهيم ابن عبد الله. ويؤيد السجل الأرسلاني وصالح بن يحيى هوية وتاريخ هذا الأمير. فالأمير أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله، كما جاء في السجل، توفي سنة ٤٢٠ هجرية. «وكان من أجلّ الأمراء وأدراهم»[٤]. أما صالح بن يحيى الذي يستهل تاريخ أسرته بالأمير بحتر فيقول: إن جد والد بحتر أبو اسحاق ابراهيم بن أبي عبد الله كان أمير البيرة سنة ٤١٨. والبيرة هذه قرية في الغرب وليست البلدة بهذا الاسم قرب سميساط الواقعة على نهر

(١) سجل النسب الأرسلاني، الثبت المؤرخ في جمادى الأول سنة ٤٥٣ هجرية.
(٢) الأشرفاني، عمدة العارفين، الجزء الثالث.
(٣) الرسالة ٥٠.
(٤) السجل الأرسلاني، الثبت المؤرخ في سنة ٤٥٣.

الفرات كما ظُنَّ خطأ في التعليق على موقع هذه البلدة التي ورد ذكرها في تاريخ صالح بن يحيى[١].

وكان الحاكم بأمر الله أرسل الدعاة إلى التنوخيين قبل سنة ٤٠٨ للهجرة. وقد تقبل الأمراء التنوخيون الدعوة وقاموا بنشرها[٢]. ومن المحتمل أن الدعوة الفاطمية التي كانت نشطة في داخلية سورية وعلى طول الساحل بلغت التنوخيين في عهد أسلاف الحاكم، العزيز والمعز.

في القرن الثاني عشر الميلادي هاجرت عشائر من قبيلة ربيعة بقيادة المعنيين من شمال سورية واستقرت في الشوف في جوار التنوخيين وحدث بينهم تزاوج وتعاون ضد الصليبيين. وكان الشوف إذ ذاك منطقة مقفرة غير مأهولة. فلما استوطنتها هذه العشائر نشأت فيها القرى وزرعت الأرض. وانضم إلى المستوطنين لاجئون من المناطق التي احتلها الفرنجة.

واستمرت الهجرة إلى جنوبي جبل لبنان من المناطق التي كان يعيش فيها الدروز وخاصة من ديرة حلب. وكانوا يأتون أحياناً كأسر منفردة وأحياناً في جماعات كبيرة كتلك التي صاحبت آل جنبلاط عندما جاءوا في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني. وفي سنة ١٨١١ غادرت ديرة حلب اربعمائة أسرة سكن كثيرون منهم في جنوبي لبنان.

وكان هناك من ناحية أخرى هجرة من جنوبي لبنان إلى مناطق وادي التيم والجليل الأعلى المجاورة. وحدثت هجرة واسعة النطاق سنة ١٧١١ حيث استوطن المهاجرون جبال حوران إلى جنوبي شرقي دمشق.

وتنعكس أهمية مجتمع وادي التيم من رسائل بهاء الدين المتعلقة

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٤١ وحاشية ٢.
(٢) الأشرفاني. عمدة العارفين.

بشؤونه. وكان هذا المجتمع راسخ العقيدة ما عدا فئة قليلة ضلّلها دعاة مفسدون أدخلوا ممارسات غير مشروعة وسببوا نزاعاً بين الناس. وبناء على أوامر بهاء الدين قاد الأمير أبو الفوارس معضاد حملة على وادي التيم وعاقب فاعلي السوء. وفي رسائل بهاء الدين ذكر لقرى كثيرة في وادي التيم لايزال القسم الأكبر منها مأهولاً بالدروز إلى يومنا هذا. وآل برغشة، الذين لا يزالون مقيمين في المنطقة إلى اليوم، كانوا زعماء روحيين ودينيين. أحدهم أبو الخير سلامة بن جندل تلقى كتاباً من بهاء الدين دعاه فيه «أخي الشيخ»، وقد ضافه بهاء الدين في منزله عندما زار وادي التيم سنة ٤١٦ هجرية، وكذلك فعلت ابنة أخيه السيدة الجليلة سارة وكان عمها قد أرسلها على رأس وفد لإعادة السلام الذي عكّر صفوه المارقون[١]. وإلى هذه الأسرة ينتمي برق بن جندل الذي قتله غدراً باطنية بانياس. وفي سنة ٥٢٢ / ١١٢٨ أوقع بهم الدروز بقيادة أخيه ضحاك هزيمة أزالتهم كقوة في المنطقة وشجعت حاكم دمشق تاج الملوك بوري على استئصالهم من المدينة.

وقد احتفظ مجتمعا وادي التيم ومنطقة دمشق بروابط وثيقة نظراً لقربهما. وكوّن دروز دمشق والقرى المجاورة مجتمعاً مزدهراً كما يدل على ذلك اسم البستان الذي أطلق على المنطقة. وتشير كلمة بستان في معناها الظاهر إلى البساتين الغناء المحيطة بالمدينة. أما في معناها الباطني فكلمة بستان رمز الدعوة، أشجارها المؤمنون وأعمالهم الصالحة ثمارها[٢].

وكان بين أعيان الدروز في دمشق وجوارها الشريف العلوي فخر الدولة أبو يعلى حمزة الذي ينتمي إلى عائلة اشتهرت بسعة علمها. قريته المزة حيث كان له منزل رحب وقد كان ناظر الجامع الأموي. وبنى سنة

(١) الأشرفاني، عمدة العارفين.
(٢) الأشرفاني، عمدة العارفين.

٤١٧ هجرية فوّارة تحت درج جيرون في دمشق وحولها قناطر وعقد تعلوها قبة جميلة[١].

وعاش في الاشرفية، وهي قرية درزية في غوطة دمشق، اسماعيل بن هلال، وكان وجيهاً موسراً يُعتَقد أنه من سلالة نصر بن فتوح الذي كان على رأس الدعوة في البستان والذي وجّه إليه بهاء الدين ثلاث رسائل[٢]. وكان اسماعيل معاصراً للأمير البحتري ناصر الدين حسين (المتوفى سنة ٧٥١ / ١٣٥٠) وقد زوّجه ابنته. وحين توقف أحد سلاطين المماليك (على الأرجح السلطان الناصر محمد بن قلاوون) قرب الاشرفية، أقام له اسماعيل وليمة سخية[٣].

وكان للدروز في شمالي سورية مجتمعات كبيرة. وفي رسالة[٤] وجهها بهاء الدين سنة ٤٢٥ / ١٠٣٤ إلى الموحدين في تلك الجهات ورد ذكر جبل السماق (الذي يدعوه الجبل الطاهر الأنور) وانطاكية وحلب والجزيرة وبالس والرقتان[٥] ومنبج وقنسرين والجزر والنقرة وعزاز.

وخلال الاضطهاد في عهد الخليفة الظاهر قاسى دروز هذه المنطقة أكثر مما قاساه إخوانهم في المناطق السورية الأخرى. وكان حاكم حلب وقتها صالح بن مرداس زعيم قبيلة كلاب. وهو، مثل الظاهر، ملعون عند الدروز لدوره الشنيع في عملية الاضطهاد. وقد قتِل صالح سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ في موقعة الاقحوانة قرب بحيرة طبرية وهو يقاتل القائد الفاطمي انوشتكين الدزبري.

(١) الأشرفاني.
(٢) الرسائل ٩٤، ٩٥، ١٠٧.
(٣) صالح بن يحيى، تاريخ، ص ١٣٣ - ١٣٤.
(٤) الرسالة ٥٧.
(٥) الرقة والرافقة على الفرات.

كانت التجمعات القبلية الكبرى في سورية قد أخضعت في عهد الحاكم بأمر الله، وهي كلاب وكلب وطي. وفي سنة ٤١٥ / ١٠٢٤ اتفق زعماؤها على اقتسام سورية بحيث يكون الشمال نصيب قبيلة كلاب والوسط لقبيلة كلب ولطي الجنوب. واستولى صالح بن مرداس على حلب، وثار حسان بن الجراح في فلسطين واستأنفت قبيلة طي أعمال السلب والنهب. فكُلِّف الدزبري حاكم الرملة الفاطمي باخضاعهم. وتمكنت طي بمعاونة صالح بن مرداس من دحر الدزبري في معركتين. وفي سنة ٤٢٠ قاد الدزبري قوة فاطمية كبيرة فألحق بمساعدة رافع بن أبي الليل بن عليّان زعيم قبيلة كلب الذي كان قد خلف عمه سنان بن عليان السنة السابقة، هزيمة ساحقة بقوات كلاب وطي. وفي سنة ٤٢٤ / ١٠٣٣ أخرج المرداسيين من حلب حيث كان نصر قد خلف أباه صالحاً[١].

إن رافع بن أبي الليل بطل درزي، فعندما انضم إلى جانب الدزبري ألم يكن مدفوعاً إلى حدّ ما بدافع الثأر لما عاناه الدروز على يد صالح بن مرداس؟ وخلال فترة الاضطهاد استخدم رافع قوته وماله في الدفاع عن الدروز واسعافهم. وفي الرسالة التي بعثها بهاء الدين سنة ٤٢٢ / ١٠٣١ إلى رؤساء القبائل العربية أثنى على رافع بن أبي الليل ودعاه الملك القيل الناهض لحقن دماء الموحدين والقائم ذاباً عنهم بماله ونفسه[٢].

وفي سنة ٤٢٣ ثار الدروز في جبل السماق وانضم إليهم فلاحون من جيرة حلب. ومرة أخرى هل تراهم هبوا ضد نصر بن صالح ليساعدوا الدزبري على الإطاحة بالمرداسيين؟

(١) يحيى بن سعيد الانطاكي، تاريخ، ص ٢٤٤، ٢٥٣، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٧٣. ابن العديم، زبدة الحلب، الجزء الأول. ص ٢٢٣ – ٢٢٤، ٢٣١.
(٢) الرسالة ٥٩.

ولما كان الروم في انطاكية وحكام حلب يخشون امتداد الثورة فقد اتفق نصر بن صالح ونيقيطا قطبان انطاكية على قمع الثائرين[١].

ولم يبق سوى عدد قليل من الدروز الذين كانوا فيما مضى جماعة كبيرة في شمالي سورية. فقد هاجروا على مرّ السنين إلى جنوبي لبنان ووادي التيم وفلسطين وحوران.

ويعود وجود الدروز في فلسطين إلى مستهل قيام الدعوة، وكان الموحدون يسكنون الساحل بين غزة وعكا وفي الداخل من عكا إلى صفد في الجليل الأعلى. وفي رسالة[٢] بعثها بهاء الدين إلى الجماعة في فلسطين ورد ذكر عدد من المشايخ. ولا تذكر الرسالة أماكن إقامتهم غير أن الأشرفاني يذكرها وقد يكون حصل على معلوماته بالتواتر أو من مصادر مكتوبة كانت متاحة في زمنه. وكان كبير مشايخ ساحل عكا أبو السرايا من قرية يركا الواقعة في الجبل فوق عكا حيث كانت لا تزال تعيش سلالته ويزار قبره في أيام الأشرفاني في القرن السابع عشر. وجميع القرى التي جاء منها المشايخ المذكورون متجاورة. وكان من عادتهم أن يجتمعوا في كرم يحوي أشجار زيتون عتيقة يقع بين هذه القرى.

وفي الجنوب كانت غزة وعسقلان واشدود والرملة مراكز للموحدين. ففي سنة ٤٢٧ / ١٠٣٦ أقام بهاء الدين في الرملة حيث وفد عليه موفد الأمير جاتا بن صومار راجا بال وسلمه كتاباً من الأمير الهندي. وكانت تحفظ في الرملة رسائل ووثائق سرية نقلت لاحقاً إلى عسقلان وغزة لتخزن في قماطر تخص بهاء الدين.

(١) يحيى بن سعيد الانطاكي، تاريخ ص ٢٦٥، ابن العديم، زبدة الحلب، الجزء الأول، ص ٢٤٨ – ٢٤٩.
(٢) الرسالة ٩٧.

وبعد هذه الفترة لم يُعرف شيء عن الدروز في جنوبي فلسطين. أما الجماعة في الشمال فقد استمرت في استقبال قادمين جدد من جبل لبنان ووادي التيم ومنطقة حلب. وجاء عدد كبير منهم في العقود الأولى من القرن السابع عشر عندما أصبح سنجق صفد جزءاً من امارة فخر الدين المعني الثاني.

وخلال القرن التاسع عشر تقلص عدد الدروز في فلسطين إذ هاجروا منها رافضين الخدمة العسكرية التي فرضها الاحتلال المصري في الثلاثينات من القرن المذكور. وكانت الضرائب المرهقة والتجاوزات سبباً آخر للهجرة التي تواصلت في العقود التالية. وكان عدد المهاجرين كبيراً إلى حد أن كثيراً من القرى اقفرت من ساكنيها وسرعان ما لفّها الخراب. وذهب المهاجرون إلى حوران.

لقد وصلت الدعوة إلى حوران إبان انتشار مذهب الدروز كما يستدل من رسالة[1] بعثها بهاء الدين إلى أحد الدعاة يقيمه فيها على أمر الدعوة في جزيرة الشام العليا، وفيها ورد ذكر البثنية وحوران بين النواحي التي شملتها منطقته. وإذا كانت جماعة من الدروز توطنت حوران في ذلك الزمن فإنه لم يبق أثر يدل على وجودها.

أما توطن الدروز في الجبال الواقعة جنوبي شرقي دمشق والمعروفة بجبل الدروز أو جبل العرب وراء سهل حوران فإنه حديث العهد نسبياً. وحدثت الهجرة الواسعة بعد موقعة عين دارة سنة ١٧١١ بين القيسية واليمنية إذ ترك اليمنية المنهزمون قراهم في جنوبي لبنان واستقروا في جبال حوران التي كادت تكون غير مأهولة.

(١) الرسالة ٤٦.

وخلال القرن التاسع عشر رحلت أعداد كبيرة إلى جبل الدروز. فجاء قسم منهم من شمالي سورية ومنطقة جبل الشيخ. أما القسم الأكبر فرحل من فلسطين وجبل لبنان سعياً وراء حياة تحررت من وطأة احتلال ابراهيم باشا وجور الأمير بشير شهاب الثاني.

وفي جبل الدروز انهمك المهاجرون في زراعة الأرض والدفاع عن أنفسهم ضد البدو المغيرين. وكانوا يحرثون الأرض والبندقية على كتف الواحد منهم. وأصبح الجبل الخالي مأهولاً وتحول إلى أرض مزروعة ومثمرة. وقد وسّع الدروز المنطقة المزروعة إلى الحد الذي كانت عليه في زمن الرومان عندما كانت حوران مركزاً مشهوراً في زراعة الحنطة[1]. ونظراً للشجاعة التي اشتهر بها الدروز فقد هابهم البدو حتى أن أقوى القبائل لم تجازف الدخول إلى جبل حوران[2]. وبلغت شهرة اسماعيل الأطرش زعيم جبل الدروز (توفي سنة ١٨٧٠) من الانتشار إلى حد أن المرء كان يسافر في حمايته من حوران إلى نجد أو بغداد دون أن يتعرض له أحد.

(١) R. Dussaud, Mission dans les Régions Désertiques de la Syrie, p 53.

(٢) J. H. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, pp 212, 217.

الفصل الحادي عشر

لمحة على مستهل تاريخ الدروز

شهدت السنون الأولى من القرن الخامس / الحادي عشر نشوء المجتمع الدرزي كما شهدت السنوات الختامية دخول الصليبيين سورية في سنة ١٠٩٦/٤٩٠.

كان الدروز عند بدء الحملات الصليبية يقيمون في سائر الأرجاء السورية من الجبل الأعلى (جبل السمّاق) في الشمال إلى هضاب فلسطين ومدنها الساحلية في الجنوب. لقد عاش القسم الأكبر منهم في المناطق الجبلية وكانت مراكزالكثافة السكانية في جنوبي جبل لبنان وفي وادي التيم الواقع على سفح جبل الشيخ. واستمرت أعداد قليلة تسكن المدن خاصةً دمشق وحلب وأعداد أكبر في قرى السهول المجاورة.

وفي منطقة المرتفعات شرقي بيروت كان للدروز دولة مستقلة استقلالاً ذاتيـاً يحكمها زعماؤهم الأمراء التنوخيون ومنهم أسرتـان، الأولى الأرسلانيون والثانية البحتريون الذين ظلوا يتزعمون الجماعة حتى الفتح العثماني في سنة ١٥١٦. وبلغ الحكم التنوخي في بعض الأحيان مناطق أبعد من تلك التي يسكنها الدروز. وامتدّ هذا الحكم في ذروته من طرابلس إلى صفد في الجليل.

وخلال الثلث الأول للقرن السابع عشر شمل حكم الأمير الدرزي فخر الدين المعني الثاني قسماً كبيراً من سورية.

إن المعلومات التاريخية عن الدروز قليلة ذلك أن سكناهم في المناطق الجبلية جعلت الوصول إليهم صعباً وعليه فإنّ أخبارهم نادراً ما سُجّلت لدى المصادر المعاصرة سواء العامّة منها أو الإقليمية.

وحين دخل الصليبيون سورية كانت البلاد مقسمة بين قوى متنازعة: الدولة الفاطمية، القبائل العربية والأمراء المحليون، القادة أو الأمراء الأتراك، وأمراء وقبائل التركمان السلاجقة[١]. وكان الفاطميون قد فقدوا داخلية سورية وإن احتفظوا بقبضتهم على الساحل. واستعانت الحكومة الفاطمية بزعيم تركماني هو أتسيز بن أواق لإخضاع البدو في فلسطين.. فاحتلّ أتسيز لحسابه القدس وفلسطين وجنوبي سورية بينما بسط السلطان السلجوقي ألب أرسلان سيطرته على حلب. وخلفه ابنه ملك شاه على السلطنة السلجوقية التي امتدت في عهده من كاشغر إلى البحر الأبيض المتوسط. فعيّن ياغي سيان التركماني حاكماً على انطاكية. أما منطقة أواسط نهر العاصي فكانت في يد أمراء من العرب هم بنو منقذ. وحكمت طرابلس سلالة شيعية هم بنو عمّار أسسها قاضي المدينة أمين الدولة. وكان رجل علم سار على خطى الخلفاء الفاطميين فأنشأ دار العلم في طرابلس ووهبها مكتبة قيمة، وقد أحرق الصليبيون المكتبة عندما احتلوا طرابلس.

وأعطى ملك شاه شرقي سورية وفلسطين إلى أخيه تاج الدولة تتش الذي بعد أن تخلص من أتسيز منح القدس كإقطاع إلى السلجوقي أرتق. ومع اقتراب الصليبيين استعاد القائد الفاطمي الأفضل القدس سنة ١٠٩٨/٤٩١ من ولـدي أرتق، سكمان وايلغازي. ولما توفي تُتش في سنة

(١) H. A. R. Gibb, Ibn al-Qalanisi, The Damascus Chronicle of the Crusades, pp 14-15.

٤٨٨ / ١٠٩٥ خلفه ولداه رضوان ودقاق فحكم الأول في حلب والثاني في دمشق[1].

دخل الصليبيون سورية من آسيا الصغرى واستولوا على انطاكية في الربيع من سنة ٤٩١ / ١٠٩٨ بعد أن حاصروها حصاراً طويلاً مضنياً. وتقدمت قوة من الفرنجة بقيادة بغدوين نحو الفرات. فثار سكان الرهاالأرمن على حاكمهم الأرمني وسلموا المدينة لبغدوين الذي أصبح قومس الرها. وبعد الاستيلاء على انطاكية التي تولى عليها الابرنس بيمند انحدر الصليبيون على الساحل إلى فلسطين.

ولم يكن المسلمون قد تيقظوا بعد لمدى الحملة القادمة من وراء البحر أو لأهداف الصليبيين. وفي أثناء زحفهم كانوا يزوّدون بالمؤن من الحقول لتجنيب الريف والمدن الدمار والحصار. أما في صيدا فقامت حاميتها بطلعة ضد الفرنجة لكنها صُدَّت ونُهبت البساتين المحيطة بالمدينة. لقد حال وجود البحرية الفاطمية دون استيلاء الصليبيين على المدن الساحلية في زحفهم الأول من أنطاكية إلى القدس[2].

قاتل المدافعون عن المدينة المقدسة بضراوة. ولما سقطت في شعبان سنة ٤٩٢ / تموز ١٠٩٩ احتفل الفاتحون بنصرهم بحمام دم وصفه أسقف صور، مؤرخ الصليبيين المعاصر، مستنكراً فظاعته[3]. وجلس كندفري أمير اللورين على عرش مملكة القدس اللاتينية واتخذ لقب حامي القبر المقدس.

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، الجزء الثاني، ص ١٠٧؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء العاشر، ص ٢٨٣.

(٢) Steven Runciman, The First Crusade, Antioch To Ascalon, Setton, A History of The Crusades, Vol. 1., p 330.

(٣) William of Tyre, History of Deeds Done Beyond The Sea, Vol. 1, pp 371-372.

استسلمت طرابلس في ذي الحجة سنة ٥٠٢ / ١١٠٩ بعد أن حاصرها أمراء الفرنجة من الشرق ومنعت الأساطيل الأوربية النجدات من بلوغها بحراً. وأصبح بلترام بن صنجيل أمير تولوز قومس طرابلس. وهي الدولة اللاتينية الرابعة في المشرق.

لقد أيّد الدروز باستمرار النضال ضد الصليبيين. وجرت أول مواجهة لهم مع الفرنجة عند نهر الكلب قرب بيروت عندما حاول دروز من جنوبي لبنان بالإشتراك مع قوات دمشق وحماه اعتراض بغدوين سنة ٤٩٠ / ١١٠٠ حينما كان في طريقه من الرها إلى القدس لتلقي تاج المملكة بعد وفاة أخيه كندفري. وقد شق بغدوين طريقه عنوة وبلغ مقصده.

ولما بدأت الحملات الصليبية كانت بيروت وصيدا ضمن إمارة جنوبي لبنان التنوخية. وفي سنة ٥٠٣ / ١١١٠ حاصر الصليبيون بيروت براً وبحراً. وأرسل بلترام قومس طرابلس جنوداً لمساعدة الملك بغدوين، كما أن السفن التابعة لجنوا وبيزا، وقاعدتها طرابلس، حاصرت المدينة. وقطع الفرنجة الأخشاب من غابة الصنوبر قرب بيروت لبناء البرج وسلالم التسلق والآلات القاذفة. وخلال الحصار تمكن أسطول فاطمي مكوّن من تسع عشرة سفينة حربية من اختراق الحصار، ودخلوا بالميرة إلى بيروت، فقويت بها نفوس كل من فيها. واستمر الحصار. وقد سجّل مؤرخان معاصران شدة الحصار وعزم المدافعين. فكتب ولْيَم أسقف صور: « تواصل الهجوم على المدينة ليلاً ولم تُتَح للمدافعين ولو ساعة راحة واحدة »[1]. ويقول ابن القلانسي: « ولم يرَ الفرنج من ما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا »[2]. وقد استمر الحصار من شباط حتى منتصف أيار عندما تم اقتحام المدينة وتلت ذلك مذبحة مروعة[3].

(١) William of Tyre, p 485.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٧ – ١٦٨.

(٣) William of Tyre, pp 485-486.

وكان بغدوين، في أوائل سنة ٥٠٢ / آب ١١٠٨ نزل على ثغر صيدا في البر والبحر. غير أن أسطولاً فاطمياً قوياً هزم أسطول بغدوين المؤلف من سفن إيطالية. وأدّت هجمة صيداوية قوية مع أنباء قدوم طغتكين حاكم دمشق لنجدة المدينة إلى إجبار بغدوين على رفع الحصار[١].

عاود بغدوين محاصرة صيدا بعد استيلائه على بيروت، وبعد حصار دام ٤٧ يوماً استسلم الصيداويون في سنة ٥٠٤ / كانون الأول سنة ١١١٠ لتفادي مصير كمصير بيروت[٢].

وفي الداخل أخذت دمشق وحلب تشعران بضغط الفرنجة على أراضيها. وأدت تحركات الفرنجة والأحوال السياسية الداخلية إلى تعاون حكام الدولتين ولو فترة وجيزة مع الباطنية. وكانت سورية الشمالية مركز نشاط الباطنيــة. وكــان رضوان بن تُتش، الـذي حـكم حلب من ٤٨٥-٥٠٧/١٠٩٥-١١١٣، راضياً لدوافع سياسة عن وجود الباطنية في أراضيه وسمح لهم بإقامة دار الدعوة في حلب. ثم اضطر نظراً للمعارضة السنية المتزايدة إلى قتل عدد من الباطنية. ولكن سمح لزعيمهم وكثير من أتباعه بالفرار. ومما يدل على أنه بقي لهم وجود قوي في حلب، أن ألب أرسلان بن رضوان نفذ بأمر من السلطان السلجوقي محمد بن ملك شاه قتل الداعي أبي طاهر الصائغ مع عدد من قادة وأعضاء الجماعة وتفرق الباقون[٣].

وفي سنة ٥١٨ / ١١٢٤ حاصر الفرنجة حلب فأبدى الحلبيون مقاومة عنيفة وطلبوا المساعدة من الموصل فلبّت فوراً واضطر المحاصِرون إلى الإنسحاب وأصبحت حلب تابعة للموصل. وقد حمل اتحاد حلب والموصل

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢.

(٢) ابن القلانسي ص ١٧١.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، الجزء الثاني، ص ١٤٥-١٥٣، ١٦٧-١٦٨؛ ابن القلانسي، ص ١٨٩-١٩٠.

الباطنية إلى نقل نشاطهم إلى دمشق بموافقة حاكمها أتابك ظهير الدين طغتكين الوصي على ابن دقاق الطفل ومؤسس السلالة البورية.

وفي الشهر الأخير من سنة ٥١٩ / كانون الثاني سنة ١١٢٦ غزا بغدوين الثاني ملك القدس منطقة دمشق. فتعاون الباطنية مع قوات دمشق. وبعد معركة غير حاسمة تخلى طغتكين لبهرام زعيم الباطنية عن قلعة بانياس. وكانت بانياس ضمن بلاد الدروز في وادي التيم. وتهيأ بهــرام سنة ٥٢٢ / ١١٢٨ لاحتلال المنطقة بعد أن قتل غيلة الزعيم الدرزي الشاب برق بن جندل. فأشعل مقتل برق وادي التيم. ولما تقدم بهرام وأتباعه هبّ الدروز بقيادة ضحاك بن جندل أخي برق لملاقاته. يقول ابن القلانسي: «فلما أحسّوا بقربه منهم نهضوا بأجمعهم إليه نهوض الليوث من غابها للمحاماة على أشبالها وطاروا نحوهم مطار صقور الجبال إلى يعاقيبها وأحجالها»[١]. وأحرز الدروز نصراً باهراً.

كانت عائلة برق من أسبق معتنقي المذهب الدرزي واستمرت طيلة أجيال بارزة في شؤون مجتمع وادي التيم. وكان أبو الخير سلامة بن جندل أكبر مشايخ الوادي وقت الدعوة. وقد تلقى رسالة من بهاء الدين الذي يشير إليه في رسائل أخرى من الحكمة بعبارات تفصح عن مدى ما كان يكن لـه من تقدير. وفضلاً عن تقواه كان يتمتع بمنزلة رفيعة في الاعتبارات الدنيوية ذلك أنه كان ينتمي إلى عائلة برغشة التي تزعمت الوادي والتي ما زالت حتى اليوم تعيش في المنطقة ذاتها وبالاسم ذاته. وتذكر الرسائل أيضاً أخا سلامة وابن عمه وتثني على تقواها.

من المرجح أن برق وضحاك اللذين اشتهرا في الصراع ضد الباطنية بعد قرن من هذا التاريخ كانا من ذريتهم. ومن مشاهير هذه الأسرة المقدم

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢١-٢٢٢.

برغشة الذي توفي سنة ٨٧١ / ١٤٦٦ والذي قال عنه الأمير السيد عبد الله التنوخي أنه « حصل للإخوان بفقده ضرر كبير لما كان ينفعهم بجاهه وماله »[١].

واحتفظت الأسرة بزعامتها خلال العهد العثماني. وأصدر السلطان سليم الذي فتح سورية سنة ١٥١٦ فرماناً يولي فيه أحد أفراد أسرة برغشة منطقة وادي التيم[٢].

كان الباطنيون الذين حاربهم الدروز من الإسماعيلية النزارية. ومما يذكر أنه بعد وفاة الخليفة المستنصر انقسمت الدعوة الفاطمية عقب النزاع بين نزار والمستعلي على الخلافة واتخذت الدعوة طريقين مختلفين. فكان أتباع نزار في الشرق وزعيمهم الحسن بن الصباح ومعقله قلعة الألموت وهو حصن منيع في الجبال في شمال غربي فارس. وأطلقوا على أنفسهم اسم الدعوة الجديدة، فيما اتبع أتباع المستعلي الدعوة القديمة واستمر اعترافهم بالقاهرة كمركزهم الرئيسي. ويبدو أن الدروز استمروا على اتصال بالقاهرة.

وكان الباطنية قبل هزيمتهم أمام الدروز قد أصبحوا مصدر رعب داخل دمشق وفي منطقتها. ولم يجرؤ أحد على مواجهتهم من زعماء دينيين وأعيان ومقدّمين[٣]. وبعد انتصار الدروز عليهم استطاع تاج الملوك بوري الذي خلف طغتكين استئصال شأفتهم من دمشق. وكان بهرام قد قتل في المعركة مع الدروز فسلّم خلفه في بانياس القلعة الى الفرنجة وكان ذلك في سنة ٥٢٣ / ١١٢٩[٤].

(١) الأشرفاني، عمدة العارفين.

(٢) توجد بين أوراقنا صورة فوتوغرافية لهذا الفرمان.

(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٥؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، الجزء الثامن ص ١١٨ - ١١٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء العاشر، ص ٦٥٦ - ٦٥٧.

وبعد معركتهم مع الباطنية ببضع سنوات عاد الدروز ثانية إلى ميدان القتال وهذه المرة دفاعاً عن بانياس ضد الصليبيين. وكانت بانياس مع حصنها المعروف بقلعة الصبيبة ذات أهمية استراتيجية حيوية للمسلمين والفرنجة. فهي تسيطر على وادي الأردن الأعلى وسفوح جبل الشيخ وسهل مرجعيون. وهي في أيدي الفرنجة تفتح الطريق إلى دمشق عبر الجليل وإلى البقاع عبر وادي التيم فضلاً عن سيطرتها على الطريق التي تصل دمشق مع صور. لذا كان تنافس حكام دمشق والقدس عليها شديداً.

وفي سنة ٥٢٧ / كانون الأول ١١٣٢ استعادت دمشق سيطرتها على بانياس حينما استولى عليها شمس الملوك اسماعيل بن بوري[١]. وفي سنة ٥٣٢ / ١١٣٧ سلّمها مستحفظها إلى عماد الدين زنكي أمير حلب الذي كان قد استولى على قلعة عنجر في البقاع خلال زحفه لمحاصرة دمشق. ولم يُعرف الباعث الذي أدّى بمستحفظ بانياس إلى ذلك، ولعله اعتقد أن زنكي أقدر على حماية الحصن من حاكم دمشق الصغير السن مجير الدين آبق آخر سلالة طغتكين.

وحين حاصر زنكي دمشق ٥٣٤ / ١١٣٩، طلب معين الدين أنر، المشرف على المملكة باسم مجير الدين، المساعدة من الفرنجة واعداً إياهم بتسليمهم بانياس، وهي في طاعة عماد الدين زنكي. وحاصر أُنر والفرنجة بانياس فقاومهم أهلها بشجاعة وعزيمة. وأقام الفرنجة برجاً خشبياً جُلِبت له، بأمر من أنر، عوارض خشبية ضخمة من دمشق. وأصبح ممكناً من فوق هذا البرج كشف المدينة كلها، وما لبث أن انهمر سيل من الحجارة والقذائف على المدينة حيث احتشد « رجال وادي التيم » وغيرهم للدفاع عنها. ويتضمن ما كتبه وليم أسقف صور عن الحصار رنة إعجاب

(١) ابن القلانسي، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

بالمدافعين، إذ قال: «ولقد واصل المحاصَرون مقاومتهم الشديدة بالرغم من انهاكهم من جراء الهجمات التي لا تنقطع والسهر المستمر. ولقد بذلوا أقصى ما يمكن من الجهود للدفاع عن نسائهم وأطفالهم وفوق كل شيء عن حريتهم، وجعلتهم المحنة أكثر براعة وإبداعاً فلم يتركوا وسيلة من وسائل المقاومة إلّا وجربوها».

وعندما اتصل أنر سراً بالمحاصَرين داعياً إياهم للتسليم رفضوا الفكرة باشمئزاز، واستمروا يقاومون إلى أن نفدت مؤونتهم، فاستسلموا إلى أُنر الذي قدّم بانياس للفرنجة. وكانت شروط التسليم لائقة بما جرى من دفاع. فكان للأهالي الذين يرغبون في الرحيل أن يغادروها ومعهم أمتعتهم. أما الذين اختاروا البقاء فقد ضمن لهم الأمن وسلامة الممتلكات[1].

ظلت بانياس في قبضة الفرنجة حتى نهاية سنة ١١٦٧/٥٥٩ حين استسلمت لنور الدين. ولما احتل نور الدين دمشق في سنة ١١٥٤/٥٤٩ أطاح بالسلالة البورية التي أسسها طغتكين سنة ١١٠٤/٤٩٨. وكان عماد الدين زنكي والد نور الدين (المتوفى سنة ١١٤٦/٥٤٠) قد وحّد حلب والموصل وشنّ حملات ناجحة ضد الفرنجة توجت بسقوط الرها سنة ١١٤٤/٥٣٩. واستولى نور الدين على جميع حصون الفرنجة في وادي العاصي وأخضع انطاكية والسهل الممتد من الاسكندرونة إلى اللاذقية.

وكان هدف نور الدين الرئيسي توحيد قوة الإسلام، وكان حجر الزاوية في بلوغ هذا الهدف ضم دمشق. وقد حاصرها نور الدين ثلاث مرات، رفع في مرتين حصارها لنفوره من سفك دماء المسلمين. وفي المرة الثالثة تم له الاستيلاء على المدينة باظهار القوة واستخدام الخدعة.

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧١ - ٢٧٣ William of Tyre, History of Deeds Done Beyond the Sea, Vol. 2, pp 108-112.

ولما أصبحت سورية الداخلية كلها تحت حكمه بات في مقدور نور الدين أن يركز على حرب الفرنجة. وفي الحملة المضادة للصليبيين لعبت إمارة جنوبي لبنان الدرزية دوراً مهماً كما نتبين من اتصالات نور الدين مع أميرها بحتر[1].

وبعد أن أخضع قلعة هونين نهيأ نور الدين سنة ١١٦١/٥٦٢ للزحف على بيروت. غير أن الجنود، بعد الحملة الطويلة التي خاضوها، أرادوا العودة إلى ديارهم[2]. وهكذا تُرك أمر استعادة بيروت إلى صلاح الدين.

وفي ربيع الثاني سنة ٥٧٨/ آب ١١٨٢ قاد صلاح الدين قواته من دمشق عبر البقاع إلى الجبل المشرف على بيروت. وفي مسيرته جمع قوات مشاة إضافية من السكان المحليين. وكانت سلسلة الجبال خلف بيروت بلاد الدروز. ووضع في المرتفعات المطلة على البحر خفراء مهمتهم إعطاء الإشارة عند وصول الأسطول الذي أمر صلاح الدين بإرساله من مصر. وقد انحدر صلاح الدين إلى السهل وطوّق بيروت فيا كان الاسطول يهاجمها من البحر. وكان صلاح الدين جاء بمعدات غزو خفيفة وليس بالآلات المعدة لاقتحام تحصينات. وصمدت الحامية إلى أن أنجدها بغدوين بجيشه القادم من الجليل. ولما رأى السلطان أن أمر بيروت يطول فكّ الحصار واتجه شمالاً لمعالجة أمور أكثر إلحاحاً[3].

ولم يعُد إلى بيروت إلّا بعد انتصاراته على الصليبيين واسترجاع القدس من أيديهم. وقبل ذلك استولى صلاح الدين على حلب بعد وفاة الصالح

(١) انظر الفصل التالي.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الحادي عشر، ص ٣٢٨.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، الجزء الثاني، ص ١١٥ - ١١٦. William of Tyre, Vol. 2, pp. 476-480.

اسماعيل بن نور الدين الذي كان مقيماً بحلب، وكان صلاح الدين اعترف به سلطاناً.

حاصر صلاح الدين حلب فاستسلمت له في صفر سنة ٥٧٩ / ١١٨٣. إن أهمية هذا الفتح يرنّ صداه في قول صلاح الدين: «والله ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة، والآن قد تبينت أنني أملك البلاد وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت»[١].

كذلك أدرك الفرنجة أهمية هذا الحدث. فقد كانوا يخشون دخول حلب في ملك صلاح الدين إذ أن ذلك سيجعل «أراضيهم مطوقة تماماً بقوته وسلطته كما لو كانت في حالة حصار». فعززوا تحصينات مدنهم وزادوا على الأخص في دفاعات بيروت[٢].

وإذ أصبحت حلب تحت سيطرته فقد أصبح لصلاح الدين أكبر قوة حشدها المسلمون حتى ذلك الحين لحربهم ضد الصليبيين. وجرت المعركة الحاسمة في حطين فوق بحيرة طبرية وانتهت بسحق جيش الفرنجة.

وبعد انتصار حطين في ربيع الثاني سنة ٥٨٣ / تموز ١١٨٧ أخذت المدن والحصون التي في حوزة الصليبيين تستسلم الواحدة تلو الأخرى. أما صاحب صيدا فسار عنها وتركها وجاءت رسله بمفاتيحها إلى السلطان[٣].

وكانت بيروت من أكثر المدن الساحلية تحصيناً، وقد قاتل المدافعون عنها بضراوة وعزيمة معتمدين على مناعة تحصيناتها. وخيّم صلاح الدين في المرتفعات فوق بيروت، واستخدمت المنجنيقات هذه المرة في الهجوم. وبعد

(١) ابو شامة، كتاب الروضتين، الجزء الثاني، ص ٤٥.

(٢) William of Tyre, Vol. 2, p 490.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، الجزء الثاني، ص ٢٠٦.

حصار دام ثمانية أيام استسلمت بيروت في ٧ آب. وكعادته في معاملة العدو سمح صلاح الدين لفرنجة بيروت بمغادرتها بأمان إلى صور[١].

هنالك، كما رأينا، معلومات وإن تكن قليلة عن الدروز في جنوبي لبنان ووادي التيم.، أما الدروز في أماكن أخرى من سورية فلا تشير إليهم مصادر هذه الحقبة. على أننا نعرف أن جميع المناطق السورية التي كان الدروز يعيشون فيها كانت مسرحاً لمعارك بين الفرنجة والمسلمين. ومن غير المرجح أن يكون الدروز قد وقفوا متفرجين حين لا يذكر اشتراكهم في القتال. ويمكن الافتراض بأن الدروز حينما كانت تجري المعارك في أراضيهم أو قربها كانوا يشتركون كمتطوعين أو في شنّ حرب عصابات كما حدث عندما غزت جيوش الحملة الصليبية الثانية دمشق سنة ٥٤٣ / ١١٤٨. فقد عسكر الفرنجة في غوطة دمشق التي كان كثير من قراها مأهولة بالدروز. فأرهق رجال الغوطة العسكر. وبلغت أعمالهم حداً من الخطورة جعلت الفرنجة يقررون إخلاء الغوطة والانتقال إلى حيث لا يجد هؤلاء تغطية مماثلة. وتلقت دمشق تعزيزات بينما نشبت منازعات بين الفرنجة المحليين والقادمين الجدد من أوربا وانتهت الحملة بالفشل[٢].

وفي سنة ٥٧٥ / ١١٧٩ وأيضاً في سنة ٥٨٥ / ١١٨٩ نصب صلاح الدين خيمه على مقربة من وادي التيم. وقد أحرز ابن أخيه فروخ شاه انتصاراً باهراً وكان قد أرسله لاستطلاع حركات الفرنجة. كما أوقع صلاح الدين نفسه هزيمة ساحقة بالفرنجة تحت قيادة بغدوين حين قُتِل وأُسِر فرسان المملكة البارزون. وحاصر حصن بيت الاحزان القلعة المبنية في أعلى نهر الاردن للسيطرة على مخاضة يعقوب. ولما جرى الهجوم كان رجال من

(١) عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسّي، ص ٢٩-٣٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الحادي عشر، ص ٥٤٢.

(٢) Runciman, A History of the Crusades, Vol. 2, pp 281-284.

العامة أول من تسلّق الحصن ولحق بهم الجند بينا كانت المنجنيقات تدك الأسوار. وقد دُمّر الحصن وسوّي بالأرض[١].

وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ عاد صلاح الدين إلى جوار بانياس وأدار من معسكره في سهل مرجعيون حصار قلعة الشقيف (أرنون). وفي أثناء الحصار كانت جماعات صغيرة تغير على مناطق الفرنجة. وفي إحدى المرات شنّ بعض المتطوعين ورجال من عامة الناس هجوماً غير مرخص على ممر يفصل بين منطقة صيدا وصور وتكبدوا خسائر كبيرة[٢].

وفي تموز نزل صلاح الدين إلى عكا لتفقد حصونها وتقويتها ثم غادرها، لكنه سرعان ما عاد إلى عكا لمواجهة حملة صليبية جديدة تاركاً قوة صغيرة لحصار قلعة الشقيف.

وكان صلاح الدين قد دخل القدس في رجب سنة ٥٨٣ / تشرين الأول ١١٨٧. وتوجت عودة المدينة المقدسة إلى الإسلام تاريخ صلاح الدين البطولي.

وأدى سقوط القدس إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة التي احتشدت فيها قوة أوربا العسكرية بقيادة ثلاثة ملوك هم فردريك برباروسّا امبراطور ألمانيا وفيليب أغسطوس ملك فرنسا ورتشارد قلب الأسد ملك انكلترا.

استهلت الحملة الصليبية الثالثة عملياتها بضرب حصار على عكا. وبعد حصار دام سنتين استسلمت عكا. وفي السنة التالية، شعبان

(١) أبو شامة، كتاب الروضتين، الجزء الثاني، ص ١١، ابن واصل، مفرج الكروب، الجزء الثاني، ص ٦٧ – ٨١.

(٢) عماد الدين، الفتح القسي، ص ١٢٧ – ١٣٩، ١٧٦؛ ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص ٨٠ – ١٠٠.

٥٨٨ / أيلول ١١٩٢، وقّع صلاح الدين ورتشارد معاهدة صلح لمدة خمس سنوات وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثالثة.

زار صلاح الدين بيروت مرة ثالثة ومنها ذهب إلى دمشق التي كان غاب عنها خلال سنوات فتوحاته الكبيرة، وتوفي فيها في صفر سنة ٥٨٩ / آذار ١١٩٣. وفيا قاله أحد المعاصرين شاهد بليغ على تعلق الناس به. فقد كتب عبد اللطيف البغدادي: «ووجد الناس عليه شبيهاً بما يجدونه على الأنبياء، وما رأيت ملكاً حزن الناس بموته سواه»[١].

(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثاني، ص ٢٠٦.

الفصل الثاني عشر

الإمارة التنوخية

في جنوبي جبل لبنان وبيروت

في مستهل الفتح العربي لسورية استقرت عشائر من القبائل التنوخية في التلال الواقعة خلف بيروت. واستمروا حتى زمن الصليبيين يستقبلون وافدين جددا في هجرات قبلية متتالية من مركز الاستيطان التنوخي في شمالي سورية. وفي القرن الثاني / الثامن ميلادي تأسست إمارة في منطقة بيروت الساحلية والجبال الواقعة خلفها. وتولت الزعامة عائلتان هما الأرسلانيون أولاً ثم البحتريون.

وأهم المصادر الأولية للحقبة الأرسلانية السجل الأرسلاني وهو وثيقة قيمة تحتوي معلومات لايحويها مصدر آخر.

يعود الأرسلانيون في نسبهم إلى ملوك الحيرة من اللخميين، إلى المنذر ابن ماء السماء نسبة إلى أمه التي لقبت بذلك لجمالها. وقد استقروا عند الفتح الإسلامي في شمالي سورية بعد أن قدموا من الحيرة بصحبة خالد بن الوليد الذي خاضوا معه عدداً من المعارك ضد الروم.

وفي عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور (١٣٧ - ١٥٩ / ٧٥٤ - ٧٧٥) وبأمر منه انتقل الأميران منذر وأخوه أرسلان ابنا مالك مع اسرتيهما وعشائرهما من معرة النعمان إلى جبال بيروت. وكان المنصور

قد واصل بنشاط سياسة الخلفاء الأمويين بتعزيز دفاعات الدولة ضد هجمات الروم البرية والبحرية. فكُلِفَّ هؤلاء المستوطنون بأعمال المراقبة من تلالهم المشرفة على البحر وبالدفاع عن الساحل ضد غارات الأعداء.

وبعد توقفات وجيزة في وادي التيم ومرتفعات المغيثة (المعروفة الآن بظهر البيدر) استقروا في الجبل والقرى الساحلية المجاورة لبيروت.

وأنشأوا في الجبل القرى والحصون وأقدمها طردلا وسرحمول وعرمون، وفي الساحل الشويفات التي أصبحت المركز الرئيسي لإقامة الأرسلانيين.

كان يعيش حينذاك في قرية قرب بيروت أبو عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام ومؤسس المذهب الفقهي المعروف باسمه والذي انتشر في سورية والمغرب والأندلس قبل أن يخلفه المذهب المالكي في المغرب في أواسط القرن الثالث / التاسع والمذهب الحنفي في سورية حوالي نهاية القرن الرابع / العاشر[١].

وكان الأمير أرسلان بن مالك من بين مريدي الإمام الأوزاعي. قال كلمة مأثورة عند دفن الإمام رددها خادم تراب الاوزاعي، اسحاق بن حماد النميري الذي وقع الثبت الثاني من السجل الأرسلاني، والمؤرخ سنة ١٩٠ هجرية، والذي حضر الدفن وسمع الأمير يقول: «رحمك الله أبا عمرو، فوالله لقد كنت أخافك أكثر من الذي ولاني» (يقصد الخليفة) وهذه العبارة بعينها نقلت عن عبد الحميد بن أبي العشرين كاتب الإمام الأوزاعي الذي حضر الدفن وسمع الأمير أرسلان يقول ما ذكره النميري[٢].

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، الجزء الأول ص ٢٧٥؛ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٣؛ ومقال عن الاوزاعي في E I، الطبعة الثانية.

(٢) محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ص ١٥٠، نشر الكتاب عن مخطوطة في مكتبة برلين الملكية الأمير شكيب أرسلان.

وكان يحق للأمير أرسلان أن يخشى مراقبة الاوزاعي لسلوك الذين في السلطة ذلك أنه فضلاً عن شهرته العلمية وتقواه كان الإمام الاوزاعي صريحاً وجسوراً في محاسبة الحكام إذا أساءوا استعمال سلطتهم. ومثال على ذلك الكتاب الذي وجهه إلى صالح بن علي والي الشام من قبل المنصور وكان النصارى في وسط لبنان ثاروا على عامل خراج منطقة بعلبك. فأرسل صالح قوة عاقبت السكان وبينهم من لم يشترك في الانتفاضة. وقد وبّخ الاوزاعي الوالي لمجافاته العدالة في معاقبة أناس أبرياء وذكره بتعاليم الدين وبسنة رسول الله فيما يتعلق بأهل الذمة[1]. وكون صالح بن علي عم الخليفة العباسي لم يثن الاوزاعي عن توبيخه.

بدأت المجابهة مع الروم في وقت مبكر. ففي سنة ١٨٥ / ٨٠١ أسر عمرو بن أرسلان في غارة على الساحل قرب بيروت. وتم افتداؤه مع رفاقه في الفداء الأول بين المسلمين والروم الذي جرى في سنة ١٨٩ / ٨٠٥ على نهر اللامش قرب طرسوس[2].

وقد أغار على الساحل أيضاً المردة الذين انحدروا من الجبل. وهنا تجدر مراجعة ما عرف عن هؤلاء القوم.

إن كلمة مردة في العربية مرادفة للفظ Mardaitai وهو الاسم الذي أطلقه الروم على شعب محارب استخدموا أفراده كجنود غير نظاميين في حروبهم مع العرب. والمردة قبيلة إيرانية موطنها الأصلي جنوبي بحر قزوين. وكانوا عند الفتح العربي يقيمون في أراض وعرة في الجبال الواقعة

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٢؛ ابن عساكر. التاريخ الكبير، الجزء الخامس، ص ٣٤١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. الجزء السادس، ص ١٩٣؛ المقريزي: خطط، الجزء الثالث، ص ٣١٠؛ توفي عمرو سنة ٢٠٠ / ٨١٥.

بين سورية وكيليكيا، وأطلق العرب عليهم اسم الجراجمة نسبة إلى بلدتهم جرجومة.

يروي البلاذري (المتوفى سنة ٢٧٩ / ٨٩٢) قصتهم كما سمعها من المسنّين في انطاكية الواقعة في جوارهم فيقول:

بعد أن نقضت انطاكية الهدنة مع المسلمين أعاد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري القائد الذي أرسله أبو عبيدة بن الجراح. وتقدم الفهري إلى جرجومة فصالحه أهلها على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً في جبل اللكام مقابل إعفائهم من الجزية وإعطائهم نصيبهم من الغنائم. وكان الجراجمة حلفاء متقلبين طوراً مع الروم وتارة مع العرب. وفي عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عندما كان منشغلاً بثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق دخلت لبنان فرق من خيّالة الروم انضم إليها جماعة كثيرة من الجراجمة والفلاحين. فاضطر عبد الملك إلى أن صالحهم على ألف دينار في كل يوم جمعة إضافة إلى مبلغ يدفع إلى ملك الروم. واقتدى عبد الملك في صلحه بما فعله الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان.

وفي سنة ٨٩ / ٧٠٨ أثناء خلافة الوليد بن عبد الملك اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم وأتاهم قوم من الروم فوجه الخليفة إليهم أخاه مسلمة بن عبد الملك ففتح المدينة وجدد الاتفاق المعقود معهم قبلها بشأن إعفائهم من دفع الجزية ونيل نصيبهم من غنائم المعارك وحرية المحافظة على عقيدتهم المسيحية. ودمّر مدينتهم ونقلهم إلى مناطق مجاورة بعد أن أمدهم بالمال وزوّدهم بالمؤن من القمح والزيت[1].

ومن المؤرخين الحديثين فإن الأب لامنس اليسوعي، مؤرخ العصر

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٩ - ١٦٢.

الإسلامي الأول، كتب عن المردة مستنداً إلى مصادر بيزنطية معاصرة تؤيد في مجملها رواية البلاذري.

فالمردة، القبيلة الإيرانية التي امتزجت بعناصر سورية وارمنية، هم الذين أطلق عليهم العرب اسم الجراجمة، أرسلهم الامبراطور البيزنطي سنة ٤٦ / ٦٦٦ لغزو سورية وعزّزهم بسرايا من الخيّالة يقودها ضباط من الجيش الامبراطوري. فاحتلوا المنطقة الجبلية الممتدة من جبل اللكام إلى فلسطين. وانضم إليهم سكان الجبل وعناصر لم تكن راضية عن الحكم العربي. أما شروط الامبراطور البيزنطي للتخلي عن مساندة المردة فتضمنت أن يدفع الخليفة معاوية بن أبي سفيان مبلغ ثلاثة الآف قطعة ذهبية سنوياً. وقد أدّى سحب المساعدة البيزنطية وهزيمتهم الجزئية على يد معاوية وإقامة مستوطنات للزط في بلادهم وفي انطاكية ومدن أخرى إلى استكانة الجراجمة إلى أن أطلق الامبراطور جستنيان الثاني لهم العنان لغزو سورية حينا كان عبد الملك بن مروان منهمكاً في قتال عبد الله بن الزبير. وكما حدث في الغزوة السابقة فقد ساعدهم الجيش البيزنطي وأمدهم بالمال والسلاح. وكما في السابق أيضاً فقد تضخمت صفوفهم بانضمام الأرقاء والهاربين والناقمين. ودفع عبد الملك أيضاً مبلغاً من المال إلى الامبراطور البيزنطي مقابل تخليه عن المردة. وعندما استأنفوا نشاطهم في خلافة الوليد بن عبد الملك قرر أخوه مسلمة وضع حد نهائي لهم. فدمّرت عاصمتهم وفني ألوف منهم في القتال كما رحل كثيرون إلى الأناضول. أما الذين بقوا منهم فقد أقاموا بموجب الشروط المعطاة عند الفتح العربي.

وتزامن دخول المردة إلى لبنان مع هجرة الموارنة إلى شمالي لبنان من موطنهم في وادي العاصي حيث كانوا عرضة لاضطهاد جيرانهم اليعاقبة. وانضم إليهم في موطنهم الجديد بقايا المردة وغيرهم ممن كانوا يقطنون تلك

المرتفعات إذ ذاك[١]. ولعل هذه الجماعات من الناس هو ما عنى بالمردة الذين حاربهم التنوخيون.

من الأمراء الذين اشتهروا في قتال المردة مسعود بن أرسلان الذي دحرهم حين شنوا غارة مفاجئة على قريته سن الفيل شرقي بيروت. ولقب ابنه هاني بالغضنفر لشجاعته في قتال المردة. وقاتل النعمان حفيد هاني، المردة والروم وبلغت أنباء انتصاراته الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٧ - ٢٧٩ / ٨٧٠ - ٨٩٢) الذي بعث إليه برسالة في شهر رجب ٢٦٣ / ٨٧٧ يثبّته في أمارته وورثته من بعده.

وفي سنة ٣٠٣ / ٩١٥ نزل غزاة من الروم في رأس بيروت وجوارها فتصدى لهم النعمان ومنعهم من الانتشار على الساحل وأسر منهم ثمانية فادى بهم من أسروه من المسلمين. فكتب والي دمشق إلى الخليفة فصدر التوقيع بشكره وإضافة عمل صفد له.

كانت الامارة التنوخية وراثية تنتقل من الأب إلى الابن أو يختار الأمراء فيما بينهم من يروه الأصلح منهم لتولي الامارة. لذا عندما توفي الأمير هاني اختاروا خلفاً له ابراهيم بن اسحاق بن أرسلان إذ كان أعقلهم. ولما قدم الخليفة المتوكل (٢٣٣ - ٢٤٧ / ٨٤٧ - ٨٦١) إلى دمشق سار ابراهيم إليه فأقره على الامارة وكتب له توقيعاً بخطه.

وأحياناً كان يقع خلاف على الوراثة. فلما توفي مسعود بن أرسلان سنة ٢٢٣ / ٨٣٨ اتفق الأمراء والاهلون على تولية أخيه مالك. غير أن هاني ابن مسعود تحدى هذا الاتفاق وطالب بالامارة. فاصطدم الفريقان وكانت

(١) انظر مقال لامنس MARDAITES في E. I. ولامنس: تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار، الجزء الثاني ص ٤١ - ٤٥.

الغلبة لهاني الذي تولى مقاليد الحكم. فرحل مالك وأسرته إلى اللجون في فلسطين ومنها إلى مصر.

وفي مناسبة أخرى حسم الخلاف سلمياً. فبعد وفاة الأمير الكبير مطاوع ابن تميم سنة ٤١٠ / ١٠١٩ انقسم أهل الغرب فأيد فريق ابنه عماد الدين موسى بينما أيد فريق آخر أبا الفوارس معضاد. وتمت تسوية الخلاف بأن ولي الأول الحكم لمدة سنة ثم تنازل عنه للآخر. وفي هذا الوقت وصلت الدعوة الدرزية إلى التنوخيين في الغرب. وبعث بهاء الدين إلى أبي الفوارس رسالة تقليد بالسهر على الدعوة في هذه المنطقة.

وكان والي دمشق الذي كانت تتبعه الامارة التنوخية يتولى أحياناً تعيين الأمير. وكان هذا يحدث في فترات الاضطراب أو عندما يرفض الأمير مطالب الوالي. ومن المهم ملاحظة أنه لم يُعيَّن على الجبل أمير من خارجه بل انحصرت الولاية في العائلة التنوخية في حين كان أمراء تنوخيون يُعيَّنون حكاماً خارج منطقتهم.

وكانت أواسط القرن الرابع / العاشر فترة اضطرابات. فقد غزا الروم سورية من الشمال وعاد القرامطة إلى القتال بينما كان الفاطميون يمدون فتوحاتهم من مصر لمحاربة الروم والقرامطة والاستيلاء على سورية. ففي سنة ٩٦٨/٣٥٨ استولى القائد الفاطمي جعفر بن فلاح على الرملة وطبرية ودعا الأمير التنوخي سيف الدولة المنذر (المتوفى سنة ٣٦٠ / ٩٧٠) لبيعة الخليفة المعز لدين الله. وبعد أن استشار الأمير أهله وعشيرته أجابه جواباً لطيفاً ليرى ما يكون. ولما فتح جعفر دمشق سنة ٣٥٩ / ٩٦٩ سار المنذر إليه فخلع جعفر عليه وولاه بلاده.

وبما يجدر ذكره أن الثبت السابع في السجل الأرسلاني يبدأ طبقاً للصيغة الشيعية بالصلاة والتسليم على النبي وعلى علي وذريته أجداد أمير المؤمنين. وهو مؤرخ في سنة ٤٥٣ / ١٠٦١ عندما كانت سورية تحت الحكم الفاطمي. كما تدل ألقاب القاضي الذي تم تسجيل الثبت لديه على صفته الفاطمية فهو مظهر الدعوة المنيفة، قاضي دمشق وخطيبها نيابة عن مولانا وسيدنا قاضي القضاة وداعي الدعاة ابن محمد القاسم ابن قاضي القضاة عبد العزيز بن محمد النعمان.

لقد كان على الحكم الفاطمي في دمشق أن يكافح المقاومة المحلية وبقايا الحكام السابقين: الأخشيديين المتحالفين مع القرامطة. وقبل نهاية سنة ٣٦٣ / ٩٧٤ وقعت دمشق في يد ألفتكين (هفتكين) التركي وهو مغامر غادر بغداد على أثر فتنة وقعت بين الأتراك والديلم ومعه عدد كبير من الاتباع. فنزل في ظاهر دمشق في حين كانت عصابات من الشبان تعيث فساداً داخلها. فخرج إليه أشرافها وشيوخها وسألوه أن يملك بلدهم وتعهدوا بالولاء له وتأييده[1].

واغتنم ألفتكين فرصة نزاع الفاطميين مع القرامطة الذين استأنفوا حملتهم على فلسطين، فسار إلى الساحل واستولى على صيدا من حاكمها الفاطمي ابن الشيخ الذي كان معه ظالم بن مرهوب العقيلي وهو حاكم فاطمي سابق لدمشق[2].

وخلال توسعه نحو الساحل قلد ألفتكين درويش بن عمرو سنة ٣٦٦ / ٩٧٦ أمارة الجبل. فرحل الأمير الشرعي تميم بن منذر إلى مصر

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١١ - ١٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، ص ٦٥٦ - ٦٥٧.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥ - ١٦؛ ابن ايبك الدواداري: الدرة المضيئة. ١٧٥ - ١٧٦؛ ثابت بن سنان: تاريخ أخبار القرامطة، ص ٦٤ - ٦٦.

ومعه ابن الشيخ وظالم بن مرهوب. وصحب في العام التالي الخليفة العزيز بالله في حملته ضد الفتكين والقرامطة في فلسطين. وبعد انتصاره أعاد العزيز بالله تمياً إلى حكم الامارة.

لقد كان لقب الأمير التنوخي يدل على مدى اتساع البلاد التي يحكمها. فهو يدعى في الثبت الأول من السجل المؤرخ سنة ١٩٠ / ٨٠٦ أمير الجبل[١] وفي الثبت الثاني المؤرخ سنة ٢٥٢ / ٨٦٦ يلقّب بأمير الغرب وهذا يعني الشيء ذاته. وقبل سنة ٣٠٣ / ٩١٥ ضمت بيروت إلى الحكم التنوخي فيذكر الثبت الخامس المؤرخ في هذه السنة الأمير النعمان بن عامر ابن هاني أنه أمير جبل الغرب وبيروت. أما لقب حفيده تميم بن المنذر بن النعمان فأصبح أمير صيدا وبيروت والغرب.

وحين بدأت الحملات الصليبية كانت بيروت وصيدا جزءاً من إمارة التنوخيين. أما دمشق التي كانت الامارة التنوخية تابعة لها فكان يحكمها حينذاك شمس الملوك دقاق بن تتش السلجوقي. وفي سنة ٤٩٥ / ١١٠١ اشترك عضد الدولة علي «أمير صيدا وبيروت وجبلها» في اشتباك مع الصليبيين الذين كانوا يصحبون بغدوين قومس الرها في رحلته إلى بيت المقدس. فأرسل دقاق قوات من دمشق ليعترضوا مع القوات المرسلة من حمص مرور بغدوين عند نهر الكلب. وقاد عضد الدولة رجال الغرب لمساعدة قوات دمشق وحمص غير أن بغدوين استطاع مناورتهم وأكمل سيره عبر الساحل.

وفي سنة ٥٠٣ / ١١١٠ قاد عضد الدولة دفاعاً عنيداً عن بيروت ضد هجوم الفرنجة من البر والبحر. وبعد ثلاثة أشهر من المقاومة المستميتة والحصار الشديد سقطت المدينة وأحدث الفرنجة في المدافعين مذبحة شرسة.

(١) ويدعى أمير الساحل في محاسن المساعي، ص ١٥٠.

واستشهد عضد الدولة وأربعة من الأمراء في ميدان القتال بينما أسر أربعة آخرون ثم قتلوا. واستشهد عدد كبير من الأمراء حينما غزا الصليبيون، الذين انضم إليهم المردة القادمون من جبيل، الغرب منطقة التنوخيين الجبلية.

ومن بيروت ذهب بغدوين إلى صيدا فاستسلم اميرها مجد الدولة محمد، الذي كان عضد الدولة عينه عليها، ليجنب سكان المدينة مصير بيروت. وتولى مجد الدولة أمارة الغرب إلى أن استشهد سنة ٥٣٢ / ١١٣٧ في معركة ضد الصليبيين جرت في البرج قرب بيروت.

لم ينج من معارك بيروت والغرب، حسبما جاء في الثبت المؤرخ في سنة ٥٩٥ / ١١٩٩ من السجل الأرسلاني سوى بحتر بن عضد الدولة علي وكان طفلاً خبأته والدته، ومجد الدولة محمد الذي كان في صيدا. وبعد وفاة هذا الأخير تولى بحتر مقاليد الامارة. ولما توفي سنة ٥٦١ / ١١٦٦ كان ابنه علي لم يبلغ العاشرة بعد. فأعطى الملك العادل نور الدين محمود إقطاع الغرب إلى زهر الدولة كرامة (ابن بحتر)[١].

وجاء في الثبت التالي: وتاريخه سنة ٦٧٠ / ١٢٧١، أن الأمير الذي عرض الثبت على قاضي دمشق لتصديقه هو أبو الجيش زين الدين صالح بن عرف الدولة علي بن بحتر. ومنذ ذلك الحين أصبح الأرسلانيون يعرفون بني أبي الجيش أو الجياشنة.

وقبل إنهاء الحديث عن الأرسلانيين لابد من كلمة عن ثقافتهم. فكان الأمراء يتلقون الثقافة الإسلامية التقليدية. وكان جدهم أرسلان كما مر معنا، من تلامذة الإمام الاوزاعي. وكثيرون منهم نظموا الشعر وأجادوا

(١) أخو كرامة شرف الدولة علي بن بحتر والد زين الدين بن علي ومن ذريته الأمراء بعرامون. صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٤٤.

فن الخط ودرسوا النحو والفقه والحديث وعلم الفلك والمنطق. وكان عالم الأسرة النعمان بن عامر المتوفى سنة ٣٢٥ / ٩٣٧ عن عمر ناهز الثامنة والتسعين. وكان يلقب بالعالم المحدّث. ذهب النعمان في طلب العلم إلى دمشق أولاً ثم إلى بغداد حيث لازم الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ / ٨٦٩) وقرأ على المبرّد (المتوفى سنة ٢٨٥ / ٨٩٨) وغيرهما وكان أعلم أهل زمانه في فقه الاوزاعي ومالك. وبين مؤلفاته كتاب عن المذهب المالكي وله ديوان شعر.

إن بحتر الذي ورد اسمه في السجل الأرسلاني هو جد البحتريين الذين حلوا محل الأرسلانيين في امارة الغرب. وقد تواجه بحتر مراراً عديدة مع الصليبيين وجرت سنة ٥٤٦ / ١١٥١ معركة ضارية عند رأس التينة (قرب نهر الغدير) على مسافة قصيرة جنوبي بيروت انتصر فيها على الفرنجة.

كانت تحكم دمشق في ذلك الحين الأسرة البورية التي أنشأها أتابك ظهير الدين طغتكين. ولما كان من أهداف الحملة الصليبية الاستيلاء على دمشق فقد برزت أهمية الامارة التنوخية في الجهاد ضد الفرنجة. فبعث مجد الدين آبق آخر البوريين إلى بحتر منشوراً تاريخه محرم ٥٤٢ / حزيران ١١٤٧ يثبته في أمارة الغرب ويرسم له أن يصرف الأموال الأميرية في مصالحه ويتقوى بها على الجهاد، ويثني عليه ويوصي الرؤساء والفلاحين بسماع كلمته والدخول في طاعته[1].

لقد حكم البحتريون منذ أواسط القرن الثاني عشر حتى الفتح العثماني لسورية سنة ١٥١٦. وغالباً ما امتد حكمهم وراء نطاق مركز الامارة. أننا نجد معلومات وافرة وموثوقة عن البحتريين في التاريخ الذي ألفه عن

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص ٤٠.

الأسرة البحترية أحد أفرادها صالح بن يحيى الذي اعتمد فيما كتب على الوثائق المحفوظة في الأسرة وعلى ما سمعه من معاصرين موثوق بهم وما خبره بنفسه.

أنجب بحتر ولدين كرامة الذي ورث الامارة وعلي جد أسرة أنجبت عدة أمراء بارزين. وكانت دمشق قد أصبحت تحت سيطرة نور الدين محمود بن زنكي أمير حلب. وأدّى توحيد دمشق وحلب إلى صمان سلامة سورية الداخلية بحيث أصبح بإمكان نور الدين أن يركز طاقته وموارده للحرب ضد الفرنجة.

ووجّه نور الدين اهتمامه إلى الأمراء التنوخيين كما فعل من سبقوه من حكام دمشق فبعث مرسوماً إلى كرامة مؤرخاً في ١٤ ربيع الأول ٥٥٢ / نيسان ١١٥٧. ومما يؤكد أهمية الأمير البحتري في خطط نور الدين قوله: «ومن أطاعه فقد أطاعنا ومن عاونه في جهاد الكفّار فقد عمل برضانا وكان مشكوراً منا ومن خالفه في هذا الأمر وعصاه فقد خالف أمرنا واستحق المقابلة والسياسة على العصيان[1].

كان لكرامة عند الملك العادل نور الدين «المنزلة الرفيعة»[2] وذلك لمنازلته الفرنجة. وبعد توجهه لدمشق واجتماعه بنور الدين صدر له المنشور المؤرخ ٧ رجب ٥٥٦ / تموز ١١٦١ يثبته في إقطاعه الذي تضمن معظم قرى الغرب ويضيف إليه من خارج الإقطاع القنيطرة في الجولان وظهر الأحمر في وادي التيم وثعلبايا في البقاع وبرجة من معاملة صيدا والدامور في الساحل وأربع قرى في الجبل من مقاطعتي الجرد والشوف. وفضلاً عن ذلك نص المنشور على أن ينال من ديوان الاستيفاء ما يقوم بأود أربعين

(١) صالح بن يحيى، ص ٤٣.
(٢) ابن سباط، تاريخ، مخطوطة الفاتيكان، ورقة ١٣.

فارساً مع كل ما يحتاج إليه للجهاد. وزاد نور الدين فيما بعد في إقطاع كرامة[1].

كانت غارات كرامة مصدر قلق لحاكم بيروت الافرنجي الذي حاول دون جدوى الاستيلاء على معقله في سرحمول والقبض عليه. ولكنه تمكن بعد وفاة كرامة أن يأخذ أبناءه بخدعة. ذلك أنه صاحب في فترة من الهدنة بين المسلمين والفرنجة أبناء كرامة الثلاثة الكبار واستدرجهم إلى الاجتماع معه في الصيد، وفي أحد الأيام تظاهر بدعوتهم إلى عرس ابنه وغدر بهم. ثم اجتاح الغرب فأحرق القرى ودمّر حصن سرحمول. أما حجي الابن الرابع والبالغ من العمر سبع سنوات فقد خبأته والدته. وعندما قدم صلاح الدين لفتح بيروت سنة ٥٨٣ / ١١٨٧ سار حجي وكان في العشرين من عمره إلى ملاقاته في خلدة على بعد أميال قليلة جنوبي بيروت وعاد معه. وبعد استسلام بيروت لمس صلاح الدين بيده رأس حجي وقال له: « قد أخذنا ثأرك من الفرنج طيب قلبك انت مستمر مكان أبيك واخوتك » وأصدر صلاح الدين منشوراً يجريه على ما بيده من جبل بيروت من أعمال الدامور وهو ملكه وارثه عن أبيه وجده، وذلك « لمناصحته وخدمته ونهضته في العدو الثاغر له ». وكتب المنشور بأرض بيروت في العشر الأواخر من جمادى الأولى سنة ٥٨٣ / ١١٨٧[2].

بعد وفاة صلاح الدين تقسمت دولته بين أبنائه وأخيه العادل سيف الدين وأقارب آخرين. فتولى ابنه الأكبر الأفضل على الحكم في دمشق والعزيز عثمان في مصر والظاهر غازي في حلب. وقد جرت مكاتبة بين الأفضل وجمال الدين حجي. ففي ٢٦ رمضان ٥٩٣ / آب ١١٩٧ أقطع الأفضل الغرب كله لحجي كي يخلف أسلافه في الولاء للسلطان. ويبدو أن

(١) صالح بن يحيى ص ٤٣.
(٢) صالح بن يحيى، ص ٤٥ – ٤٦.

الأفضل لما حاول أخوه العزيز إزاحته عن دمشق أراد التأكد من ولاء البحتريين أو كما يقول ابن سباط: أراد اثبات حجي على الخدمة واستحضاره للنجدة. وفي كتاب آخر إلى حجّي الذي كان اشتكى من الفرنج، طمأنه الأفضل أنه أبلغ الفرنج أن يتعاملوا معه وأصحابه بموجب رسومهم وإطلاقاتهم وأن لايغيروا عليهم عادة، وأن خالفوا لايلوموا إلا أنفسهم[1].

كان صلاح الدين عند انتهاء الحملة الصليبية الثالثة عقد مع الفرنجة معاهدة صلح لمدة ثلاث سنوات. وواصل العادل الذي تولى زعامة الأسرة الأيوبية وخلفاؤه سياسة المسالمة تجاه الصليبيين. وأدت العلاقات السلمية إلى قيام تجارة نشطة مع الدول الإيطالية البحرية وانعكس ذلك في الازدهار المادي والاستقرار. فضلاً عن أن الأيوبيين كانوا توّاقين إلى عدم إعطاء أي مبرر لقيام حملة صليبية جديدة. ولكن الصليبيين ما كانوا في حاجة إلى ذريعة.

فمنذ أن وطئت أقدامهم سورية تطلع الفرنجة إلى مصر لضمان استقرارهم في فلسطين. ولما فقدوا بيت المقدس والقسم الأكبر من ممتلكاتهم في المشرق صوّبوا أنظارهم نحو مصر كنقطة وثوب لاسترجاع الأراضي المقدسة. وهكذا شنوا الحملة الصليبية الخامسة ضد مصر واحتلوا دمياط. وكان سلطان مصر حينئذ الكامل محمد بن العادل وأخوه المعظّم حاكم دمشق. وقد أدرك المعظم أهمية الاحتفاظ بمصر وحاول أن يضم إلى الجهد المشترك أخاها الأشرف الذي كان يحكم الجزيرة الفراتية، والذي كان له ما يشغله، فطلب المعظم مساعدة الفقيه الشهير سبط ابن الجوزي ليقنع صديقه الأشرف. وجاء الأشرف إلى سلمية لملاقاة المعظم

(١) ابن سباط: تاريخ، ورقة ٢١؛ صالح بن يحيى، ص ٤٧.

وإليها ذهب السبط لمقابلته وقال له: «المسلمون في ضائقة وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت وعدوا إلى مكة والمدينة والشام وأنت تلعب. قم الساعة وارحل»[١]. استجاب الأشرف في الحال وسار المعظم بقواتها إلى مصر حيث كان الكامل قد تمكن من وقف الغزو. وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة بفشل ذريع.

غير أن تضامن الايوبيين لم يتعدّ الحملة الصليبية الخامسة. فمات المعظم في تشرين الثاني ١٢٢٧ وخلفه ابنه الناصر داود. وتقاسم الكامل والأشرف إرث ابن أخيهما. فاستولى الكامل على القدس وغربي فلسطين وأخذ الأشرف دمشق. وبقي لداود شرق الأردن وشرقي فلسطين. وعندما قام فريدريك الثاني بحملته الصليبية سنة ١٢٢٧ قرر الكامل التفاوض معه بدلاً من قتاله. فنال فريدريك بموجب المعاهدة المعقودة سنة ٦٢٦ / ١٢٢٩ القدس وبيت لحم والناصرة وممراً إلى البحر عند يافا، كما نال أيضاً حصن تبنين ومدينة صيدا وبعض جوارها.

وفي سنة ٦٣٥ / ١٢٣٨ توفي الكامل وخلفه ابنه الصالح أيوب آخر سلطان أيوبي. كان الأمراء الايوبيون طيلة هذه الفترة منشغلين في محالفات متقلبة وتبادل المدن والأقاليم فيما بينهم. وخشي الصالح اسماعيل حاكم دمشق أن يخرجه أيوب منها فعقد حلفاً مع الصليبيين وانضم إليه داود حاكم الكرك ومنصور حاكم حمص. فزحفت جيوش دمشق وحمص والكرك ومعها جيش الفرنجة على غزّة. فاستنجد أيوب بالخوارزميين لمساعدته ضد هذا التحالف. وكان الخوارزميون أيام السلطان جلال الدين يحكمون المناطق الممتدة من اذربيجان إلى نهر السند، وبعد أن هزم السلاجقة في الاناضول جلال الدين ووفاته سنة ١٢٣١ هام الخوارزميون

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، الجزء الثامن، ص ٦١٩ - ٦٢٠؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٢٨ - ١٢٩.

خلال الجزيرة وشمالي سورية. واستجابة لدعوة أيوب اندفع في صيف ١٢٤٤ عشرة الآف خوارزمي خلال سورية فاستولوا على القدس واحتلوا جنوبي فلسطين وانضموا إلى الجيش المصري القادم من الجنوب. وفي حربية شمال شرقي غزة أوقع الخوارزميون والمصريون في ١٧ تشرين الأول ١٢٤٤ هزيمة ساحقة بالفرنجة وحلفائهم. وكان جيش الفرنجة أضخم جيش يزجونه في معركة منذ معركة حطين. وكانت الكارثة شديدة بحيث أن خسائر الفرنجة لم تفقها سوى خسائرهم في حطين[١].

وحاصر جنود أيوب والخوارزميون دمشق في نيسان ١٢٤٦. فاستسلم اسماعيل بعد حصار دام ستة أشهر وأُعطي بعلبك وحوران. ولما لم يكافأ الخوارزميون كما كانوا يتوقعون تحولوا ضد أيوب وانضموا إلى اسماعيل وحاصروا حلفاء هم السابقين في دمشق. وأرسلت حمص وحلب جيشاً لنجدة جيش دمشق. فالتقوا اسماعيل والخوارزميين على طريق حمص وانزلوا بهم هزيمة قضت على الخوارزميين كقوة مقاتلة وتبعثرت بقاياهم[٢].

وفيما كان الأيوبيون منهمكين في نزاعاتهم واصل البحتريون مراقبتهم للصليبيين وكان على رأسهم في ذلك الحين جمال الدين حجّي أمير الغرب الذي امتدت حياته من عهد نور الدين محمود بن زنكي إلى أيام الكامل السلطان الأيوبي قبل الأخير، «وهو ملازم للجهاد في الفرنج»[٣].

حرص الملوك الأيوبيون على كسب صداقة وعون الأمراء البحتريين كما يظهر من المكاتبات التي بعثوا بها إليهم، منها منشور بتاريخ ٢٥

(١) S. Runciman; A History of the Crusades, vol 3. p 225

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الرابع؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، الجزء الثالث، ص ١٧٢ - ١٨٢.

(٣) ابن سباط، ورقة ٢٩.

جمادى الأولى ٦١٩ / تموز ١٢٢٢ بعثه إلى حجيّ عماد الدين عثمان بن العادل ابن أيوب، يرسم له أن يستمر على ما بيده من جبل بيروت على عادته المستقرة في أيام الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب. وكان عثمان حاكم بانياس يرنو ببصره إلى دمشق التي كان يحكمها أخوه المعظم ورغب في كسب الأمير البحتري فإنه قد يحتاج إلى عونه.

وهنالك وثيقتان من الصالح أيوب احداهما إلى نجم الدين محمد بن حجي والأخرى إلى زين الدين بن علي بن بحتر، الوثيقة الأولى كتبت في مصر قبل أن يحتل أيوب دمشق وتتضمن شكر نجم الدين لخدماته وولائه. ويثبته المنشور في إقطاعه ويهيب به أن يكون مستعداً مع جميع ما يستطيع حشده من الأتباع لملاقاة السلطان عند قدومه إلى سورية. ومن الواضح أن أيوب كان يطلب مساعدة نجم الدين ضد منافسيه من الأيوبيين.

والمنشور الموجه إلى زين الدين والمؤرخ في ١٩ ربيع الثاني ٦٤٦ / آب ١٢٤٨ يجريه على إقطاعه الذي كان لوالده من قبله من قرى في جنوبي وغربي جبل بيروت. كذلك تضمن المنشور تقديراً لخدماته في حفظ الثغور المندوب إليها[1].

توفي الصالح أيوب في رمضان ٦٤٧ / تشرين الثاني ١٢٤٩ في معسكره بالمنصورة وهو يقاتل الحملة الصليبية السادسة. فأخفت زوجته شجر الدر نبأ وفاته واستمر القتال. وقاد ركن الدين بيبرس البندقداري الهجوم المضاد فمني جيش الفرنجة بهزيمة ساحقة وأسر الملك لويس.

وتولت شجر الدر مقاليد السلطة إلى حين عودة ابن الصالح أيوب توران شاه من الولايات الشرقية. وبعد عودته إلى مصر بقليل اختلف توران شاه مع مماليك أبيه وقتل. وبمقتله انتهى حكم الأسرة الأيوبية في

(١) صالح بن يحيى، ص٤٩ - ٥٠، ٧٢ - ٧٣.

مصر في حين بقي الأمراء الأيوبيون لبعض الوقت في اماراتهم السورية ولكنهم سريعاً ما اختفوا عن المسرح فيا كان المماليك والتتار يتقاتلون على سورية. أما الفرع الأيوبي الوحيد الذي بقي فكان فرع حماه الذي ظل يحكم حتى منتصف القرن الثامن / الرابع عشر.

نشأ المماليك كفيلق منتخب من الجنود الأتراك الأرقاء الذين كانوا يجندون من سهوب روسيا الجنوبية. وكانوا يشكلون حرس آخر سلطان أيوبي وبعد وفاته تولى قوادهم السلطة واستولوا على السلطنة.

استمر حكم المماليك من سنة ١٢٥٠ إلى ١٥١٧ وينقسم إلى حقبتين: الأولى حتى سنة ١٣٨٠ وهي حقبة المماليك الأتراك المعروفين بالمماليك البحرية نسبة إلى موقع ثكناتهم في جزيرة الروضة الواقعة في (بحر) النيل قرب القاهرة. وخلفهم الشراكسة المعروفون باسم المماليك البرجية نسبةً إلى برج (قلعة) القاهرة حيث كانت ثكناتهم.

كان في إمكان أي مملوك تولي السلطنة. وكان الأمراء يختارون السلطان، وإذا عيّن السلطان خلفه كان تعيينه خاضعاً لموافقة الأمراء.

وحتى يضفي المماليك الشرعية على حكمهم حافظوا على تقليد تسلّم الخلعة من الخلفاء العباسيين. فبعد اجتياح التتار لبغداد في سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ استقدم السلطان بيبرس أميراً عباسياً إلى القاهرة ونصّبه خليفة. ومع أن الخليفة كان مجرد رمز فوجوده في القاهرة أضفى على السلطنة المملوكية هالة من المهابة.

كان بين عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك والناصر يوسف صاحب حلب الذي استولى على دمشق لدى سماعه بوفاة توران شاه، حروب وعداوة شديدة إذ سعى الأول إلى مد سلطته إلى سورية في حين حاول

الثاني استرداد مصر من المماليك. واستمر النزاع إلى أن تم الوصول إلى تسوية بواسطة نجم الدين الباذرائي موفد الخليفة العباسي سنة ٦٥٣/١٢٥٥ قضت بأن تكون الشام حتى العريش للناصر والديار المصرية لأيبك.

ولقد حاول كل من الفريقين ضم البحتريين إلى جانبه. فبعث الناصر منشوراً تاريخه ٢٥ صفر ٦٥٠ / أيار ١٢٥٢ يثبّت حجّي بن نجم الدين محمد في إقطاع الغرب. وتلقى أخوه سعد الدين خضر منشوراً من أيبك يمنحه إقطاعاً يتضمن قرى في الشوف وإقليم الخروب ووادي التيم. ومنشور أيبك مؤرخ في ٢٧ ربيع الأول ٦٥٤ / أيار ١٢٥٦[١].

في أواخر سنة ٦٥٣/١٢٥٥ أرسل الناصر جيشاً من دمشق بصحبة رجال من منطقتي البقاع وبعلبك غزا الغرب، والمظنون، كما يقول صالح ابن يحيى، إن الشاميين كانوا قد نسبوا أمراء الغرب إلى المصريين فعملوا معهم ذلك. ولكن الدروز انزلوا هزيمة كاسحة بالمغيرين وكان بطل ذلك اليوم زين الدين صالح[٢].

وقبل فتح المماليك لسورية غزاها التتار فاستولوا على دمشق وأسروا الناصر وقتلوه فيما بعد. وعندما جاء حجي إلى دمشق كان الناصر قد رحل عنها. فقابل حجي كتبخا نائب هولاكو الذي أصدر في ٧ رجب ٦٥٨ / حزيران ١٢٦٠ منشوراً يثبت حجي في الإقطاع الذي تولاه في عهد الناصر. وانضم إلى حجي في دمشق زين الدين صالح. ولما سمع الأميران أن جيش المماليك في طريقه إلى قتال التتار اتفقا أن يتوجه زين

(١) صالح بن يحيى، ص٥١، ٥٦. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول ص٣٩٧ - ٣٩٨.

(٢) صالح بن يحيى، ص٥٨ - ٥٩؛ ابن سباط، ورقة ٤٢.

الدين إلى المماليك ويقيم جمال الدين حجي عند التتار بدمشق. ثم يضمن وجود أحدهما إلى جانب المنتصر، وبذلك تسلم مصلحة قومهما.

أثناء وجود كتبغا في دمشق غزا جيش من التتار صيدا وكان أميرها الفرنجي انتهز فرصة الحروب بين المسلمين والتتار فغزا البقاع من قلعة الشقيف. فأرسل كتبغا قوة صغيرة لتأديب المغيرين قادها ابن أخيه الذي وقع في كمين وقتل. عندها أرسل كتبغا جيشاً نهب صيدا وعاد بثلاثمائة أسير[١].

التقى المماليك بقيادة السلطان المظفّر قطز، ومعه بيبرس البندقداري قائد طليعة الجيش، التتار في عين جالوت الواقعة غربي نهر الأردن قرب بيسان. فجرت معركة ضارية في رمضان سنة ٦٥٨/١٢٦٠ خاضها السلطان وبيبرس ببسالة وانتهت بفوز ساحق للمماليك. فأسر كتبغا وقتل[٢].

وبرز زين الدين صالح خلال المعركة وكان نبّالاً ماهراً. وبعد اندحار التتار تحصنت جماعة كثيرة منهم في ذروة الجبل حيث حاصرتهم قوة من المماليك كان بينها زين الدين. وكان الأمير البحتري يرمي عن قوس قوي فأعجب مماليك السلطان بوقع سهامه وأخذوا يقدمون له النشّاب من تراكيشهم. وكان السلطان قد عرف بذهاب زين الدين إلى التتار ولكن عندما حضر الأمير أمامه عفا عنه لما شهد به رفاقه من بلائه في قتال التتار[٣].

في عين جالوت انهزم التتار لأول مرة في معركة طاحنة. وكان انتصار

(١) أبو شامة: ذيل الروضين، ص٢٠٧؛ Runciman, A History of the Crusades, Vol. 3 p 308

(٢) المقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٤٢٩ - ٤٣٤.

(٣) صالح بن يحيى، ص ٦٠.

المماليك حدثاً حاسماً في التاريخ. فقد أنقذ هذا النصر الإسلام من أخطر تهديد واجهه وأدّى إلى اعتناق التتار الإسلام، وظهرت سلطنة المماليك كأعظم قوة في المنطقة، واتحدت مصر وسورية وأدّى هذا الاتحاد إلى انتصارات متوالية على الدول الصليبية الباقية وبالتالي إلى طرد الفرنجة نهائياً من سورية[1].

وكان للدروز في هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ ممثل باسل هو الأمير زين الدين صالح بن علي.

اشتملت سلطنة المماليك على مصر وسورية والحجاز وكانت مقسمة إلى نيابات تسمى أيضاً ممالك. وقسمت كل نيابة إلى ولايات وأعمال.

فنيابات سورية هي دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك، أهمها وأوسعها رقعة نيابة دمشق وتسمى أحياناً نيابة الشام أو مملكة الشام. وكان نائبها « سلطاناً صغيراً » وتتألف من العاصمة دمشق وجوارها وأربع صفقات: غربية وقبلية وشمالية وشرقية. وتقع في الصفقة الشمالية ولايتا بيروت وصيدا اللتان تشملان الامارة التنوخية.

أحرز بيبرس، الذي أصبح سلطاناً في نهاية سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ انتصارات باهرة في حربه ضد الصليبيين. وعندما تولى السلطنة كانت ممتلكات الفرنجة تمتد من غزة إلى كيليكيا فضلاً عن حصون منيعة في داخلية البلاد. وحين مات سنة ٦٧٦ / ١٢٧٧ كانت ممتلكات الفرنجة قد تقلصت إلى بضعة حصون على الساحل. وفي فلسطين نفسها سقطت في يد بيبرس جميع حصون الصليبيين الباقية باستثناء عكا. واستسلمت انطاكية سنة ١٢٦٨ بعد حصار شديد. وبعد الاستيلاء على قلعة الحصن أخضع

(١) Runciman ، الجزء الثالث، ص ٣١٣.

عدد من حصون الاسماعيلية وعقدت قلعة المرقب وأنطرطوس الصلح. كما عقدت هدنة مع أميرة بيروت.

وقد أعجب المماليك مثل الأيوبيين ببسالة الدروز وأدركوا أهمية دورهم في حراسة الحدود ضد الفرنجة. فراسلوهم مستنهضين همتهم ومشيدين بما يقومون به في الجهاد.

بعد فترة وجيزة من توليه السلطة أصدر بيبرس منشوراً بتاريخ ٨ رجب ٦٥٩ / حزيران ١٢٦١ جدّد بموجبه لجمال الدين حجي الثاني المعروف بجمال الدين الكبير إقطاعه في الغرب.

وهناك رسالتان من نائب بيبرس في الشام جمال الدين أقوش النجيبي إلى زين الدين صالح وحجّي، وصفهما « بالأميرين الأجلين الأعزين الأخصين المحترمين المجاهدين المغازيين جمال الدين وزين الدين بَهَا الإسلام مَجْدَي الأمرا عدقي الملوك والسلاطين أنجح الله قصدهما وأسعد جدهما وكبت ضدهما ». وبعد هذه التحية يشكرهما النائب للقيام بواجب المثاغرة على ما ينبغي ويبدي رضاه على « ما هم عليه من الاجتهاد والمناصحة وهو المعهود منهما والمشهور عنهما ».

ويظهر أن الأميرين كانا قد كتبا إلى النائب يبديان قلقهما من اتهامات وجّهت إليهما. ويؤكد النائب أنه ما بلغه عنهما إلا الخير ولا قيل عنهما إلا الجميل، فيستمران على ما هم عليه من المناصحة والاجتهاد والمطالعة بالأخبار ومساعدة العسكر المنصور والغزاة بتلك الجهة « ويجرون على ما عهد منهم من المناصحة ومن سلفهم في الأيام السالفة والدول المتقدمة ».

على أنه يقول في ملحق أنه بلغه أن جوعهم تفرقت، فيوصيهم برد الرجال إلى جهة صيدا والاجتهاد في المساعدة على حفظ هذا الثغر. وعلى

الرسالتين تاريخ اليوم والشهر ولكن دون ذكر السنة[١].

وهنالك كذلك رسالة غير مؤرخة من بيبرس إلى جمال الدين وزين الدين يبدو أنه أرسلها قبل أن يبدأ حملته ضد الفرنجة. ويخاطب السلطان الأميرين بعبارات التبجيل ثم يخبرهما أنه بلغه من نائب دمشق استمرارهما على الخدمة والاجتهاد في المناصحة وأن ذلك وقع عنده أحسن موقع[٢].

لقد أثار ما للبحتريين من المنزلة ونفوذ الكلمة عند السلاطين والنواب حسد أسرة منافسة هم بنو أبي الجيش. فنسب أحدهم إلى البحتريين رسائل مزورة قيل انهم تبادلوها مع الفرنجة. ولما كان بيبرس يستعد لحملته ضد الصليبيين فللإحتراس أمر بسجن زين الدين صالح وجمال الدين حجّي وأخيه سعد الدين خضر. ولما كلّم أحد الأمراء السلطان بأمرهم قال بيبرس أنه لن يؤذيهم ولن يطلق سراحهم إلا بعد أن يفتح صيدا وبيروت وطرابلس. ولم يخرج السلطان عنهم إقطاعهم ولا ممتلكاتهم الخاصة[٣].

حينا كان حجّي ورفيقاه في السجن قُتِل قطب الدين السعدي أحد المماليك في قرية كفر عميّه وكان استقطعها من أمراء الغرب. فجرّدت حملة على الغرب في صفر ٦٧٧ / ١٢٧٨ قامت بأعمال حرق ونهب طيلة سبعة أيام وسبت نساء الفلاحين وأطفالهم. وكان السلطان بركة قد خلف والده بيبرس فكتب إلى نائبه في دمشق يستنكر ما فعله العسكر ويأمر بإعادة النساء والأطفال الأسرى والممتلكات المسروقة لأنّا كما قال «قد أنكرنا كون حريم المسلمين يسبون وتسترق أولادهم». هذا وقد أطلق بركة سراح جمال الدين وزين الدين وسعد الدين، على أن حكمه كان قصيراً لم يتجاوز العامين[٤].

(١) صالح بن يحيى، ص ٦١-٦٢.
(٢) صالح بن يحيى، ص ٦٢-٦٣.
(٣) صالح بن يحيى، ص ٦٤.
(٤) صالح بن يحيى، ص ٦٧-٧٠.

وخلفه قلاوون أقدر قادة بيبرس فكان خير خلف له في متابعة الحرب ضد الصليبيين. أخضع قلاوون قلعة الاسبتارية في المرقب واستولى على طرابلس ودمرها تدميراً كاملاً خشية أن يستعيدها الصليبيون الذين كانوا يسيطرون على البحر. وأمر ببناء مدينة جديدة على بعد بضعة أميال إلى الداخل عند سفح الجبل. وسقطت في غضون ذلك اللاذقية وتم احتلال حصنين جنوبي طرابلس. وطلبت أميرتا بيروت وصور عقد هدنة فأجيب طلبها. ولما تهيأ قلاوون لفتح عكا وافته المنية وهو على بضعة أميال خارج القاهرة وكان تعهد له ابنه الأشرف بمواصلة الحملة[١].

اتخذ الأشرف استعدادات وافية لحصار عكا الذي بدأ في ربيع الثاني ٦٩٠ / نيسان ١٢٩١. وبعد حصار دام ستة أسابيع سقطت المدينة في يده. وبسقوط عكا استسلمت المدن والحصون الصليبية الباقية وهي صور وصيدا وبيروت. أما قلعتا الداوية في طرطوس وعثليت فقد تخلت عنها حاميتها وتم بذلك طرد الفرنجة نهائياً.

وبينا كان المماليك يقاتلون الفرنجة كانوا يدافعون عن سورية ضد التتار الذين وإن هزموا في عين جالوت فقد عادوا لغزو سورية. وفي سنة ٦٨٠ / ١٢٨١ صد المماليك بقيادة قلاوون هذا الغزو بعد انتصارهم في معركة جرت خارج حمص. وعاد التتار ثانية بقيادة غازان سنة ٦٩٩ / كانون الأول ١٢٩٩ بأعداد تزيد كثيراً على عدد جيش المماليك فدحروه قرب سلمية. واستسلمت دمشق إلى غازان في أول سنة ١٣٠٠ غير أن قلعتها بقيت صامدة. وخشي التتار عودة الجيش المصري فانسحبوا إلى العراق[٢].

(١) Runciman، الجزء الثالث، ص ٣٩٥-٤١١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، الجزء ١٤، ص ٨-١١؛ المقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٨٨٨-٩٠٠.

وفي سنة ٧٠٢ / ١٣٠٢ عاد التتار إلى سورية فاشتبك معهم الجيشان المصري والشامي بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عند شقحب في مرج الصفر جنوبي دمشق. ودامت المعركة يومين كان القتال فيها ضارياً. وحقق التتار نجاحاً أولياً غير أن النتيجة كانت نصراً ساحقاً للمماليك[١].

وقد ارتبط بالحملات ضد الفرنجة والتتار تجريد الحملات إلى كسروان لتأديب السكان لتعاملهم مع الفرنجة ولسوء معاملتهم للجنود الهاربين أثناء مرور هؤلاء في ديارهم بعد هزيمتهم أمام التتار في منطقة السلمية. وجردت ثلاث حملات على كسروان وخطط للحملة الأولى في سنة ٦٨٦ / ١٢٨٧ ولكنها تأجلت بسبب وفاة قلاوون وانشغال الأشرف في الحرب ضد الصليبيين. وقد تم تنفيذها بعد فتح عكا واستسلام بقية المتلكات الصليبية على الساحل. قاد هذه الحملة بيدرا نائب مصر وأمراء آخرون ولكنها فشلت في إخضاع السكان نظراً لوعورة الأرض وإهمال بيدرا الذي اتهم بالتواطؤ[٢].

أما الحملة الثانية فكانت سنة ٦٩٩–٧٠٠ / ١٣٠٠ وأعقبت غزو التتار لسورية واحتلال دمشق. ومع تحرير دمشق وانحسار خطر التتار ولو مؤقتاً، سار الجيش الشامي بقيادة جمال الدين أقوش الأفرم إلى كسروان والجرد. وتمكن بالمفاوضة من أن يخضع السكان جزئياً[٣].

ومع استمرار أهالي الجبل في إثارة الاضطراب فكان لا بد من إرسال حملة ثالثة وذلك سنة ٧٠٥ / ١٣٠٥ تمكنت من إخضاعهم نهائياً. واتسمت هذه الحملة الأخيرة بالقسوة الشديدة. فقد تبدد الأهلون وقتل عدد وافر

(١) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، الجزء الرابع، ص ٤٨–٤٩.

(٢) H. Laoust, Remarques sur les Expéditions du Kasrawan sous les Premiers Mamlouks, Bulletin du Musée de Beyrouth, Vol. 4, pp 93-115.

(٣) المقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٩٠٢–٩٠٣.

منهم كما أتلفت حقولهم ودمّرت بيوتهم كي لا يعود إليها من تبقّى منهم[١].

رافق الفقيه الكبير ابن تيمية الحملتين الثانية والثالثة اللتين كان من أهدافها قتال الخارجين عن السنّة والجماعة وإقامة الشريعة في البلاد[٢]. ولكن الهدف الاوّلي كان سياسياً وعسكرياً وذلك للسيطرة على منطقة ذات أهمية استراتيجية تشرف على البقاع من ناحية وعلى البحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى.

لقد دعي الدروز من قبل السلاطين والنواب للمشاركة بقيادة أمرائهم البحتريين في حملات تجري خارج ديارهم. وفي مثال مؤرخ في ٧ جمادى الأول ٦٨٦ / حزيران ١٢٨٧ من لاجين نائب قلاوون في دمشق إلى جمال الدين حجي وزين الدين صالح بأن ينضما مع قواتها إلى سنقر المنصوري نائب طرابلس إذا بلغها أنه توجه إلى كسروان. غير أن هذه الحملة، كما مر معنا، تأجلت.

وفي سنة ٧٠٥ / ١٣٠٥ اشترك ناصر الدين حسين مع أقاربه وجمعه في الحملة الشاقة التي قضت على الكسروانيين وقتل اثنان من الأمراء وثلاثة وعشرون رجلاً من أهل الغرب في المعركة التي دارت قرب قرية نيبيه[٣].

أما من هم هؤلاء الكسروانيون؟ لقد كانوا جميعاً من المسلمين الخارجين عن السنّة. وفي الكتاب الذي أرسله ابن تيمية إلى السلطان الناصر بعد الحملة يسميهم اسماعيلية ونصيرية وحاكمية وباطنية[٤]. ويشير

(١) المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ١٢–١٥.

(٢) محمد عبد الهادي: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ص ١٨٢–١٩٣.

(٣) صالح بن يحيى، ص ٩٥–٩٦.

(٤) عبد الهادي: العقود الدرية، ص ١٩٣.

إليهم ابن كثير بالرافضة والتيامنة[١]. إن الحاكمية والتيامنة أسماء تطلق على الدروز. فالأولى تعني أتباع الخليفة الحاكم والثانية نسبة إلى وادي التيم وهو مركز هام من مواطنهم. أما المقريزي فيقول: في شوال ٦٩٩ سار الأمير أقوش الأفرم من دمشق لغزو الدرزية سكان جبال كسروان. ويستعمل عبارة مماثلة ابن أيبك الدواداري[٢]. وعندما يذكر ابن سباط الدرزية بين قتلى الكسروانيين والأسرى في حملة سنة ٧٠٥ فهو يردد ما قرأه دون رويّة.

أنه لا يرد أي ذكر لسكان دروز في كسروان في تاريخ صالح بن يحيى وهو المؤلف الموثوق به الذي كتب باسهاب عن حملات المماليك على كسروان.

وليس هناك أية إشارة في كتب الدروز الدينية التي تتضمن رسائل إلى مختلف الأمصار بأن الدروز قد سكنوا كسروان. لقد استقر دروز جبل لبنان في القسم الجنوبي من الجبل وسكن بعضهم في قرى إلى الشمال فيما يعرف الآن بالمتن الشمالي والذي كان سابقاً يعتبر جزءًا من كسروان الخارجة[٣].

أما الرواية بأن الناصر عاقب الدروز بشدة لأنهم أنهكوا جيشه المتقهقر أمام التتار في سنة ٦٩٩/١٣٠٠ فغير صحيحة[٤]. فبينما عمد الكسروانيون وأهالي جزين إلى سلب وقتل الجنود الهاربين اثناء مرورهم في ديارهم، وأكثرهم أذيةً للهاربين أهل كسروان فإنهم باعوا بعضهم إلى الفرنجة، فقد آوى الدروز الجنود الذين مروا بديارهم. ونظراً للضيافة والحماية التي

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، الجزء ١٤، ص ٣٥.

(٢) المقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٩٠٢-٩٠٣، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٤٠.

(٣) صالح بن يحيى، ص ٩ وحاشية ٢.

(٤) Hitti, A History of the Arabs, p 680.

قدمها لهؤلاء اللاجئين الأمير ناهض الدين بحتر بن زين الدين صالح فقد عيّن أمير طبلخانة وهي ثاني أعلى رتبة بين أمراء جيش المماليك وألبس خلعة في احتفال أقيم في دمشق. وجرى كذلك تكريم ابن صبح أحد أعيان البقاع لإحسانه للهاربين. والأرجح أن الغارة على القرى الدرزية في منطقة الجرد من إقطاع أمراء الغرب قد شنها الكسروانيون انتقاماً لمشاركة الدروز في حملات المماليك ضدهم. وجرت محاولة لمصالحة أمراء الغرب والكسروانيين. وكان الوسيط زين الدين محمد بن عدنان الذي أوفد مع ابن تيمية إلى كسروان قبل قيام حملة سنة ٧٠٥/١٣٠٥ لمحاولة إعادة الأهلين إلى الطاعة. وقدم زين الدين إلى الغرب سنة ٧٠٤ وأقام مع الأمير الارسلاني زين الدين مفرّج الذي خطب منه ابنته نفيسة فزوّجه إياها. وزين الدين هذا كان نقيب أشراف دمشق[١].

أما ما قيل بأن دروزاً دفنوا في مغارة لجأوا إليها في قرية نيبيه الكسروانية فلا أساس له من الصحة[٢]. والذي حدث أن كسروانيين ماتوا في هذه المغارة أثناء المعركة التي جرت في تلك القرية خلال حملة سنة ٧٠٥ المدمّرة[٣].

وبعد إخضاع كسروان استقرت عشائر تركمانية بزعامة بني عساف في التلال الساحلية وأنيط بها مهمة ضبط الأمن في الساحل الممتد من الطرف الجنوبي لمقاطعة طرابلس عند جسر المعاملتين حتى بيروت. وكانوا يمنعون من يستنكرونه من المرور في دربند نهر الكلب إلّا بورقة طريق من المتولي أو من أمراء الغرب[٤].

(١) سجل النسب الارسلاني، الثبت المؤرخ في شهر صفر سنة ٧١٤/١٣١٤.

(٢) الأمير حيدر الشهابي. تاريخ، الجزء الأول، ص ٤٨٠.

(٣) Lammens, Revue de L'Orient Chrétien, vol. XII, p 468.

(٤) صالح بن يحيى، ص ٣٧.

في غضون ذلك ألغي إقطاع البحتريين، ولكن ما لبث أن أعيد، وحوّل مع اقطاعيات زعماء الجبل الآخرين إلى الحلقة في طرابلس بعد أن فتح قلاوون المدينة في سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩ .

وكانت الحلقة وحدة خاصة من جيش المماليك الذي تألف من ثلاثة أقسام: ١) المماليك السلطانية وهم مماليك السلطان القائم والسلاطين السابقين والأمراء المتوفين أو المعزولين. ٢) الأمراء ومماليكهم. ٣) أجناد الحلقة وهم الفرسان من الرجال الأحرار الذين في خدمة السلطان. وضمن الحلقة وحدة تتألف من الأبناء الذين ولدوا أحراراً لأمراء المماليك ومماليك آخرين[١]. وكان المماليك السلطانية والأمراء وفرسان الحلقة يعطون اقطاعيات مقابل خدماتهم.

كان الإقطاع منحة موقتة يمكن للسلطان أن يلغيها. ولم يكن لصاحب الإقطاع حق التملك وإنما حق الحصول على الريع. أما إقطاع البحتريين فكان مختلفاً إذ كان ملكية خاصة مسجلة لدى السلطات المختصة ومن ثم كان تحويل ملكيته مخالفاً للشريعة[٢]. وقد أعيد هذا الإقطاع بعد مصادرته بوقت قصير في عهد الأشرف وأخيه الناصر. وعيّن الأمراء البحتريون فرساناً في حلقة بعلبك وحصل بعضهم على رتبة أمير أربعين، وأكثرهم كانوا أمراء عشرة أو خمسة. وكان يحق للأول أن يضع في خدمته أربعين فارساً يزادون أحياناً إلى سبعين أو ثمانين. ويدعى أمير طبلخانة نسبة للفرقة الموسيقية التي يحتفظ بها وتتألف من ضاربي طبل وعازفي بوق ونافخي قرب. وكانت الفرقة تعزف أمام منزل الأمير بعد صلاة المغرب.

---

(١) N. Poliak, Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon, 1250-1900, pp 4-7; David Ayalon, Studies in the Structure of the Mamluk Army, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, vol. 15, p 204.

(٢) صالح بن يحيى، ص ٧١ – ٧٢، ٨٤ – ٨٧ .

وكانت قوة الأمراء البحتريين وسلطتهم تفوق كثيراً الرتب التي يحملونها من السلاطين ونوابهم. فبصفتهم زعماء جنوبي جبل لبنان كان سكان البلاد يدينون بالولاء لهم، يسيرون عندما يدعون للحرب تحت راية امرائهم. وكان هناك أسرتان درزيتان هما الرماطنة وبنو أبي الجيش لهما بعض السلطة وإن تكن أقل بكثير من سلطة البحتريين.

وأنيط بالأمراء البحتريين درك بيروت ومسؤولية حراسة الشواطىء والطرق. وكانوا يخدمون في تناوب شهري كل بدل من ثلاثين فارساً. وعمل بتعاون وثيق مع البحتريين وبالترتيب ذاته جند حلقة بعلبك[١].

عندما استعيدت بيروت من الفرنجة كان عدد المسلمين فيها قليلاً إلى حد أنهم لم يصلوا إلى أربعين لتأدية صلاة الجمعة. وأحياناً كان يكمل العدد مسلمون يأتون من الضواحي. ولكن ما لبث عددهم أن أخذ يزداد بسرعة.

وبني برج لمراقبة السفن وظلت بيروت ودمشق على اتصال وثيق بواسطة الحمام الزاجل وخيل البريد. وقد نظم البريد على أربع مراحل: بيروت – الحصين (على طريق الشام قرب عاليه) – زبدل (قرية في البقاع) – خان ميسلون (في وادي الحرير) – دمشق. وللاتصال في الليل جرى استخدام النار. فكانت النار الأولى تشعل من ظاهر بيروت والثانية فيما كان يعرف ببيروت العتيقة: وهي بيت مري. وتشعل النار الثالثة على جبل بوارج (جبل الكنيسة) المشرف على البقاع ومن ثم تشعل نار على جبل يبوس تجيبها نار تشعل على جبل قاسيون فوق دمشق[٢].

---

(١) صالح بن يحيى، ص ٩١ – ٩٣؛ ابن سباط، ورقة ٧٧.
Kamal S. Salibi, The Buhturids of the Garb, Mediaeval Lords of Beirut and Southern Lebanon, Arabica, Vol, 8, pp 74-97.

(٢) صالح بن يحيى، ص ٣٤ – ٣٥ .

وجرى في سنة ٧١٣ / ١٣١٣ الروك أي مساحة الأملاك في البلاد الشامية وإعادة توزيع الاقطاعات. وكان سيجري على اقطاع البحتريين ما يجري على غيره. فأرسل الأمير ناصر الدين حسين التماساً إلى نائب دمشق لرفعه إلى السلطان أعرب فيه عن ولائهم في خدمة السلطان واجتهادهم في تأدية واجبات الدرك المنوطة بهم طبقاً لإقطاعهم الذي هو في غالبه أملاكهم الثابتة بالشرع الشريف وأن تحويل ملكيته يودي بهم. وأن الحصول على بديل لن يفيدهم ذلك أن هذا الإقطاع هو مكان إقامتهم وفيه تقيم عشيرتهم ورجالهم الذين يعتمدون عليهم في القيام بالخدمة المنوطة بهم. وكتب النائب تنكيز إلى السلطان الناصر محمد يذكر قدم أملاك أمراء الغرب. فرسم السلطان أن يبقى الإقطاع في ملكيتهم وأن لايشمله الروك وهكذا منح البحتريون امتياز عن غيرهم من أصحاب الإقطاعيات مما زاد من قدرهم[١].

إن الفرنجة وإن كانوا طردوا من سورية فقد واصلوا غاراتهم على الساحل من مملكتهم في قبرص. وكان الغرض من هذه الغارات في أغلب الأحيان النهب وأخذ أسرى من أجل الفدية أو البيع. غير أن غارات أخرى كان لها مطامح أبعد تتركز في محاولات النزول والحصول على مواطئ قدم على الشاطىء. ذكر المقريزي أنه في شعبان سنة ٦٩٨ جاء الخبر أن ثلاثين مركباً كبيراً في كل منها سبعمائة رجل وصلت ساحل بيروت وقصدوا النزول إلى البر. فاجتمع الناس لقتالهم وهبت عاصفة شديدة حطمت الأسطول. فغنم سكان بيروت المراكب التي لم تغرق وأسروا ثمانين من الفرنجة[٢].

ويتحدث صالح بن يحيى عن إنزال قام به الفرنجة بعد قليل من

(١) المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ١٢٧؛ صالح بن يحيى، ص ٨٤ – ٨٧.
(٢) المقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٨٧٥.

استعادة المسلمين بيروت. وقد يكون ذلك بشأن الحملة التي ذكرها المقريزي وإن كانت الروايتان تختلفان. ويذكر ابن يحيى وجود ستة مراكب كبيرة ويشير إلى ما قيل بأن حاكم بيروت (الافرنجي) السابق كان بينهم. ونزل الفرنجة وجرت معركة ضارية لم يعهدوا مثلها[١].

وفي سنة ٧٠٦ / ١٣٠٦ مر أسطول الفرنجة قرب بيروت دون أن يهاجمها ربما لتذكّره ما حدث في الحملة السابقة. فوصل صيدا وقام الفرنجة بأعمال النهب والقتل كما أخذوا عدداً من الأسرى. وقاومهم المسلمون وقتلوا منهم جماعة. وحضر إلى صيدا نائب صفد الأمير شهاب الدين بن صبح قبل وصول العسكر الشامي فلحق بالأسطول وافتدى الأسرى جميعهم بمبلغ خمسمائة درهم للأسير[٢].

أما مبلغ الفدية للأشخاص الأكثر أهمية فكان أكبر من ذلك بكثير. وفي جمادى الأولى سنة ٧٠٢ / كانون الثاني ١٣٠٢ غزا الفرنجة الدامور الواقعة على الساحل بين بيروت وصيدا. وكان فيها أميران من آل بحتر مع رجالهما قدما إليها لتفقد مزارعها. فقرع فريق من الغزاة بابها ليلاً ولما فتحا أسر أحدهما وقاومهما الآخر حتى قتل. وحين عرفوه فيما بعد ندموا على قتله إذ خسروا فديته ذلك أنهم حصلوا على ثلاثة الآف دينار فدية لأخيه[٣].

وفي سنة ٧٣٤ / ١٣٣٣ دخلت مرفأ بيروت شواني افرنج جنوية للاستيلاء على مركب تابع للكثيلان. فجرت معركة استمرت يومين في أزقة المدينة وعلى الشاطىء قتل فيها جماعة من الجنود والرجال وتمكن الجنويون من أخذ المركب والاعلام السلطانية من البرج. وبعد هذه الحادثة اضطر الأمير ناصر الدين وأقاربه إلى الإقامة في بيروت[٤].

(١) صالح بن يحيى، ص ٧٢.
(٢) صالح بن يحيى، ص ٢٩.
(٣) صالح بن يحيى، ص ٩٥.
(٤) صالح بن يحيى، ص ٩٧.

حاول الجنويون بعد خمسين سنة أي في سنة ٧٨٤ / ١٣٨٢ الاستيلاء على بيروت ولكنهم صدّوا. وكانت تعميرة للجنوية قد نهبت صيدا ووصلت أخبار ذلك إلى دمشق. فأُرسِلت قوات إلى بيروت لتعذر وصولها إلى صيدا في الوقت المناسب. واتفق وصول العساكر الشامية إلى بيروت مع اقتراب الجنويين منها. فلم ينزلوا إلى البر وتظاهروا بالسفر إلى قبرص. وعليه عادت العساكر إلى دمشق تاركة قوة صغيرة معها بعض عشائر من البقاع. فعاد الجنويون في اثني عشر مركباً كبيراً. وكان في مرفأ بيروت مركبان للبندقية استولى عليها الجنويون وشحنوها بالرجال ورموا على المدافعين بالجروخ والمدافع. ثم نصبوا سقايل من المراكب إلى البر ونزلت منهم فصائل إلى الشاطىء الواحدة تلو الأخرى. وكان على أحداها مقدم من كبارهم وبيده سنجق، فصعدوا إلى خرائب القلعة القديمة حيث كانوا ينوون رفع السنجق إشارة إلى أنهم ملكوا البلد. وكان سيف الدين يحيى والد المؤرخ صالح على رأس المدافعين وبجانبه فريق من المقاتلين الشجعان. فصدموا الوحدة التي تحمل السنجق وطرح يحيى حامل السنجق أرضاً. ورُدّ المهاجمون الذين نزلوا إلى البر على أعقابهم. وفي اندفاعهم نحو مراكبهم انهارت السقايل وغرق منهم كثيرون. وقد «نسبوا كسرة الفرنج إلى الأمير يحيى وعُرفت به». ولما وصلت عساكر الشام إلى بيروت عشية ذلك اليوم كان قد فات الأمر ورأوا الشواني في البحر على بعد راجعة إلى بلادها[١].

ويورد المقريزي وابن حجر العسقلاني خبر هجوم الجنويين على بيروت. وبينما رواية المقريزي لاتتعدى السطرين وتنسب النصر للعسكر القادم من دمشق فإن ابن حجر يروي الحادثة بتفاصيل أكثر لكنها مشوشة. ويقر ابن

(١) صالح بن يحيى، ص ٣١ - ٣٢، ١٩٤ - ١٩٥.

حجر بأن أهل بيروت صدوا الهجوم قبل وصول العسكر[١].

ومن المفيد مقارنة هاتين الروايتين مع ما رواه صالح بن يحيى. فروايته أوفى ويمكننا قبولها على أنها تعطي الصورة الصحيحة ذلك أن صالحاً كان قريباً من الأحداث التي يرويها ونظراً لصدقه الواضح في مؤلفه.

وكان الفرنجة في سنة ٧٦٧ / ١٣٦٥ بقيادة ملك قبرص قد غزوا الاسكندرية ونهبوها. واشترك في الحملة البنادقة والجنويون والافرنسيون إلى جانب البحرية القبرصية وسفن من رودس يتراوح مجموعها كلها بين سبعين وثمانين سفينة. واستمرت أعمال القتل والنهب والحريق في الاسكندرية طيلة سبعة أيام. «وكانت ثروة الاسكندرية خيالية وجنّ الغزاة أمام رؤية غنائم وافرة كهذه». وكان السلطان شعبان صغيراً فزحف يلبغا وصي السلطنة على الاسكندرية. فأخلى الغزاة المدينة حاملين معهم ما استطاعوا من ثروتها فضلاً عن خمسة الآف أسير[٢].

لقد كان الدافع للحملة على الاسكندرية روح صليبية، ذلك أن ملك قبرص طالب بالأرض المقدسة وقام بشن غزوات على الساحل الشامي.

وفي سنة ٧٦٩ / ١٣٦٧ صد أهالي طرابلس غارة عليها. أما غارة الجنويين على بيروت في سنة ٨٠٦ / ١٤٠٣ فأخذت الناس على حين غرة إذ منذ هزيمتهم الأخيرة قبل عشرين سنة لم يقترب الفرنجة من بيروت. ولم يكن في المدينة سوى أمراء الغرب وعدد قليل من رجالهم. ولكن كثيرين

(١) المقريزي، السلوك، الجزء الثالث، ص ٤٩٩؛ ابن حجر العسقلاني. إنباء الغُمر بأنباء العمر، الجزء الأول، ص ٢٧٤.

(٢) المقريزي، السلوك، الجزء الثالث، ص ١٠٤ - ١٠٨.

Runciman, Vol. 3, p 446; A. S. Atiya, Crusade, Commerce and Culture, p 103.

أخذوا يتوافدون تباعاً وقاتلوا في الشوارع الغزاة الذين نهبوا المدينة قبل أن يعودوا إلى سفنهم عصر ذلك اليوم. وبين الأماكن المنهوبة مستودعات التوابل التي تخص تجار البندقية. وقد أحرقت دار أسرة صالح قرب البحر وكذلك السوق القريب من المرفأ. وأبحر الأسطول الجنوي إلى صيدا فيما سار نحوها بطريق الساحل أمراء الغرب ورجالهم. فانضموا إلى نائب دمشق (الذي أصبح فيما بعد السلطان المؤيد شيخ) واشتبكوا مع المهاجمين الذين كانوا قد نزلوا إلى الشاطىء خارج المدينة. فعاد الجنويون إلى سفنهم وأبحروا[1].

وفي غضون ذلك اجتاح التركمان بقيادة زعمائهم أولاد الأعمى (الذين عرفوا في العهد العثماني باسم بنو عساف) منطقة الغرب وجرى ذلك في عهد الظاهر برقوق أول سلاطين المماليك البرجية. وكان ينازع برقوق أميران هما يلبغا الناصري ومنطاش. فأيد الأمراء البحتريون برقوق بينما اتخذ خصومهم أمراء التركمان جانب المتمردين. وفي غياب البحتريين الذين كانوا مع رجالهم يشاركون برقوق في معركة شقحب جنوبي دمشق التي دُحر فيها منطاش، غزا التركمان الغرب وبيروت. وهزموا أهالي الغرب الذين فقدوا تسعين قتيلاً. وخرّب التركمان عدة قرى في الغرب ونهبوا ممتلكات البحتريين في بيروت[2].

بعد الحملة المدمرة على الاسكندرية تضاعف النشاط في لبنان لحراسة الساحل. وبات لزاماً على أمراء الغرب أن يسكنوا بيروت وبدأت الاستعدادات لغزو قبرص. فبنيت في بيروت السفن وجيء بالخشب من غابة الصنوبر خارج المدينة كما استقدم الصنّاع من مختلف المقاطعات. وأرسلت قوات من دمشق للمساعدة في حراسة الساحل. واستلزم وجودهم

(١) صالح بن يحيى، ص ٣٢ - ٣٤.
(٢) صالح بن يحيى، ص ٢٠٩ - ٢١٠، ٢١٤ - ٢١٥.

نفقات كبيرة من جانب البحتريين الذين أثقل عبئهم يقظتهم المتواصلة ليلاً ونهاراً[1].

وعندما تقرر غزو قبرص عرض الأمراء التركمان على بيدمر نائب دمشق إرسال ألف رجل معدّة للمشاركة في الحملة. مقابل أن يحوّل إليهم إقطاع البحتريين. فوافق بيدمر وكتب بذلك إلى مصر فرسم لهم الأمير يلبغا الكبير بكتابة مثالات بإقطاعات أمراء الغرب. وكان قد توجه إلى مصر لهذا الغرض اثنان من كبار أمراء البحتريين هما سعد الدين خضر وسيف الدين يحيى (والد المؤرخ) واجتمعا بالقاضي علاء الدين بن فضل الله العمري كاتب السر بمصر، وهو صاحب التعريف بالمصطلح الشريف، وكان مقرباً عند الأمير يلبغا فقدمهما له قائلاً: «هؤلاء من غرس الملوك الأوائل إن كان فيهم نفع فقد استحقوا إقطاعهم وإن لم يكن فيهم فحاشا الله أن يكون معروف اسدوه الملوك الأوائل يبطل في أيام الأمير الكبير». فعند ذلك رسم يلبغا بتمزيق مثالات التركمان وأن يستمر أمراء الغرب على إقطاعاتهم.

ولما جاء بيدمر إلى بيروت ليشرف على بناء السفن هرب الأمراء التركمان إلى الروم لعجزهم عن الوفاء بتعهداتهم بموجب إقطاعهم. فأرسل بيدمر يشكر أمراء الغرب عند الأمير يلبغا[2].

بقيت قبرص قاعدة لغزوات القراصنة على سواحل الشام ومصر وللاستيلاء على سفن المسلمين في أعالي البحار. وجرى غزو قبرص، الذي خطّط له منذ وقت طويل، في ثلاث حملات متتالية. كانت الحملة الأولى استطلاعية بدأت في نهاية رمضان سنة ٨٢٧ / آب ١٤٢٤. وفي الصيف

(١) صالح بن يحيى، ص ١٧٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، الجزء الرابع عشر، ص ٣١٥، ٣٢٠.
(٢) صالح بن يحيى، ص ١٨٠.

التالي أبحر من طرابلس أسطول من أربعين سفينة لغزو الجزيرة. ودعي أمراء الغرب للاشتراك في الحملة، وتولى صالح بن يحيى قيادة إحدى السفن الكبيرة. وأدّت الحملة إلى استسلام المدن الساحلية الثلاث: الماغوصة (فاغوستا) ولارنكا واللمسون (ليماسول). وكان الأسرى من الكثرة والغنائم من الوفرة بحيث ضاقت بهم السفن. أما الحملة الثالثة فبدأت من مصر سنة ٨٢٩ / ١٤٢٦ وكانت على نطاق أوسع. ضمت أسطولاً مؤلفاً من أكثر من مائة سفينة مع قوات من مصر وجميع المالك الشامية. واستقل صالح مع أحد الأمراء المماليك سفينة نقل من بيروت بنيت من أجل الحملة ومعها ثلاثمائة رجل بينهم عشرون من الغرب. وقد أعاق سفينتهم هياج البحر وهبوب ريح معاكسة. ولما بلغوا دمياط كانت سفينتهم في حاجة إلى الاصلاح لذا لم يتمكنوا من إدراك الحملة التي أبحرت من فرع النيل عند رشيد. فأكملت هذه الحملة فتح قبرص وتم الاستيلاء على عاصمتها الأفقسية (نيقوسيا) ووقع الملك جانوس في الأسر. وأصبحت قبرص تابعة لمصر[1].

لقد أنشأ المماليك جيشاً قوياً هزموا به الصليبيين وأرغموا التتار على التراجع. وكانوا طيلة قرنين ونصف قرن أقوى قوة في الشرق الأدنى. وفي مستهل القرن الرابع عشر بدأ صعود الأتراك العثمانيين في الأناضول الذين أصبحوا فيما بعد قوة كبرى. إن وجود إمارات محايدة بين الدولة العثمانية والمماليك أجّل التصادم بين الدولتين. ولكن بزوال هذا الحاجز أصبحت الحرب حتمية من أجل السيطرة على المنطقة. وفي ٢٤ آب ١٥١٦ هزم العثمانيون المماليك في مرج دابق شمالي حلب. وكان استخدام العثمانيين للأسلحة النارية حاسماً في نصرهم. أما من النواحي الأخرى فكانت قوة

(١) صالح بن يحيى، ص ٢٤٢ – ٢٥٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الجزء الرابع عشر، ص ٢٦٨ – ٣٠٠.

الجيشين متقاربة. وكان المماليك قد رفضوا إدخال السلاح الجديد إلى جيشهم معتبرين استخدامه مخلاً بشرف القتال. ولما قدم السلطان سليم إلى القاهرة بعد انتصاره حضر أمامه مملوك اشتهر بشجاعته يدعى كرت بك. فأطرى بعبارات بليغة شجاعة المماليك وأشار باحتقار إلى البنادق التي تقتل كما يفعل الجبان. وأخبر السلطان أن موريتانياً عرض تسليح المماليك برصاص من البندقية ولكن السلطان الأشرف قانصوه وكبار المماليك رفضوا هذه البدعة في الحرب التي لاتتفق مع الشجاعة الحقيقية. وصاح الموريتاني إن من يعش سيرى هذه المملكة تزول بفعل هذا السلاح.

ونعود إلى الامارة التنوخية فنرى أنها امتدت في أيام عز الدين صدقة من طرابلس إلى صفد. ولا يعرف سوى القليل عن صدقة الذي توفي سنة ٨٤٨ / ١٤٤٤ أي بعد عشرين سنة من غزو قبرص الذي يختم به صالح ابن يحيى كتابه. ولا يذكر صالح عنه أكثر من أنه كان متولي بيروت وأن خصومه كانوا بني الحمرا وهم عائلة إقطاعية في البقاع قام أحدهم بغارة مفاجئة على منزل صدقة في بيروت. وقد قتل ابن الحمرا بيد أحد أفراد بني حنش وهم عائلة منافسة في البقاع. وقام نائب دمشق بإرسال رأسه إلى صدقة[1].

أما ابن سباط فيضيف أن صدقة كان أميراً جليلاً له التقدم على جميع الأمراء، وله سطوة وحرمة وجاه وعزم وسياسة. وكان مسموع الكلمة عند الملوك والنواب. وكان لنائب دمشق به العناية البالغة. ومسك صدقة درك بيروت وصان سلامة الساحل ضد الفرنجة وغيرهم. وقد حكم من حدود طرابلس إلى صفد بما في ذلك الجبل والساحل. ولم يقتل أو يؤذي أحداً خلال مدة حكمه بالرغم من سعة إقطاعاته وتقليده النيابة الواسعة. وفوق ذلك كان من العدالة بحيث أنه يستخلص الحق ولو كان من ولده. ويروي

(١) صالح بن يحيى، ص ٢٤٨.

ابن سباط حادثة ولده وكان لايزال دون البلوغ عندما ضرب صبياً وكسر له سنًّا. فاستدعى الأمير والد الصبي وخيّره بين أن يخلع أحد أسنان ابنه أو يأخذ خمسمائة درهم حق الجناية على الصبي. فحاول الرجل الاعتذار عن قبول أيّ من العرضين وقال إن ما حدث هو من أخلاق الصبيان. فأصر الأمير وقبل الرجل المال(١).

وكان صدقة شغوفاً بالخيل وقيل إنه كان في اسطبلاته ما ينوف عن ثمانين مهراً ومهرة لم يروّضها راكب.

وهناك على الأقل أمير آخر من الأمراء البحتريين كان متولي بيروت هو جمال الدين حجّي الذي مات بعد الفتح العثماني بقليل. كان له هيبة بالغة مع تواضع في الرضى. أطاعه جنوده ورعاياه وخافه أصحاب المفاسد. وطّد الأمن في المناطق الساحلية وأخضع المتمردين وهابته أكابر الجاورين وخافوا سطوته. وكان يقصده النازحون عن أوطانهم خوف الحوادث فيرتّب لهم راتباً يكفيهم، ويلتجيء إليه الخائف من الحكام فيحميه ممن يطلبه. وكان يأتيه الطلب من ملوك الشام فيدفع من ماله ولا يكلف أحداً شيئاً. هذا ما قاله ابن سباط الذي عاصر الأمير جمال الدين حجّي، وختم بعبارة جامعة لصفات المروءة قائلاً: «وكان يسعف الضعيف ويقوم بنصرة المقهور»(٢).

كانت الامارة البحترية تتمتع بالحكم الذاتي، يحكمها أمراؤها بالوراثة وينفق دخلها في مصالحها ويحمل إلى ديوان الشام قدر قليل(٣). وهناك منشور من مجد الدين آبق حاكم دمشق إلى الأمير بحتر يرسم له أن ينفق عائدات إقطاعه داخل الإقطاع. وليس هناك ما يجعلنا نعتقد أن ذلك لم

(١) ابن سباط، ورقة ١٠٦.
(٢) ابن سباط، ورقة ١١٣.
(٣) صالح بن يحيى، ص ٨٥ وحاشية للمؤلف.

يكن أيضاً سياسة حكام ونواب دمشق الآخرين في هذا الشأن. وأحياناً كان النائب يفرض ضريبة جديدة أو يتقدم بطلب إضافي.

هناك حالتان أُقطعت فيهما الفطرة، وهي ضريبة تجبى في نهاية شهر رمضان، لأشخاص من خارج الغرب. وكانت الأولى في سنة ٧٧٥ / ١٣٧٣ في أيام زين الدين صالح الذي سعى وأبطلها بعد تعب وغرامة أنفقها من ماله ولم يكلف أحداً فيها إلى درهم فرد. وكانت الثانية في عهد السلطان فرج بن برقوق. وقد اقتدى شرف الدين عيسى حفيد زين الدين (المتوفى سنة ٨٢٦ / ١٤٢٣) بما فعله جده موفراً على الناس دفع الضريبة إذ قام هو بدفعها. وبعد ذلك أُلغيت الفطرة(١).

وكان الأمراء يسكنون أحياناً بيروت حيث بنى بعضهم دوراً رحبة واقتنوا الأملاك. وكان أحد الأمراء يملك شارعاً بكامله. وكانت بيروت مدينة تجارية مزدهرة. وكانت الرسوم على تجارة الصادر والوارد تدر دخلاً كبيراً. ولما استعاد المسلمون بيروت بدأت مراكب الفرنج تتردد إليها بالمتاجر تدريجياً. وبعد فترة أخذت هذه المراكب ترد إليها بأعداد كبيرة. ولقد مر معنا أن الجنويين استولوا على سفينة تابعة للكتيلان في مرفأ بيروت كما استولوا في مناسبتين على سفن تابعة للبندقية. وبين الأماكن التي نهبها الجنويون في بيروت مستودعات التوابل التي تخص البنادقة. وقد زاول بعض الأمراء التجارة. وحينما هاجم الكسروانيون الغرب بقيادة علي ابن الأعمى نهبوا ممتلكات البحتريين وبينها سلع: زيت وصابون وأقمشة. وأطلق على أحد الأمراء بالنظر إلى اتساع أعماله التجارية لقب تاجر البيت.

ولكن الأمارة كانت على العموم مجتمعاً ريفياً وعمادها الزراعة

(١) صالح بن يحيى، ص ١٧٨؛ ابن سباط، ورقة ٩٣ و١٠٣.

لدينا معلومات عن طبيعة ملكية الأرض وعن مختلف أنواع الغلال. ومما يُستدل أن الأمراء كانوا يملكون أراضي واسعة إذ كان بعضهم أصحاب ثراء والزراعة كانت المصدر الرئيسي للثروة. وكان من الأمراء من يشرفون بأنفسهم على زراعة أراضيهم. ولم يكن في الإمكان في أرض جبلية إنشاء عزب كبيرة كما لم يستخدم العبيد في الزراعة في مجتمع تحرّم عقيدة الناس الرق. ولقد حوّل سكان الجبل سفوحه إلى أرض صالحة للزراعة فقطعوا الصخور وأقاموا المدرجات لحفظ التربة.

وفيما يتعلق بالمحاصيل فنظراً لعدم وجود معلومات معاصرة فإن اعتمادنا على ما نعلم أنه كان يزرع في أزمنة متقدمة أو متأخرة. وباستطاعتنا أن نفترض أن شجرة التوت كانت تزرع لتربية دودة الحرير التي كانت طيلة قرون موضع نشاط مهم في الجبل والساحل. وفي القرون التي تلت زمن الأمارة التنوخية أصبح الحرير، في عهد المعنيين، محصولاً هاماً لدينا عنه معلومات مستفيضة من عهد الأمير فخر الدين الثاني. أما الزيتونة «الشجرة المباركة»[١] فكانت منذ القدم تزرع في الجبل وفي السهل الساحلي. وزيت الزيتون طعام رئيسي وكان مع الصابون المصنوع من زيت الزيتون سلعة تجارية هامة. وزرعت الكرمة منذ زمن بعيد وهي مهمة ليس فقط لعنبها وإنما للزبيب والدبس اللذين يستهلكهما الناس طيلة العام. أما الخمر فهو طبعاً ممنوع. وكان يزرع بعض القمح وغيره من الحبوب ولكن الجبل يفتقر إلى الأراضي المنبسطة التي تصلح لمثل هذه الزراعة. وفي سنة عمّ فيها القحط ذهب الأمير شرف الدين عيسى إلى مصر حيث اشترى حنطة وأحضرها في البحر إلى بيروت فحصل بها فرح عظيم للناس[٢]. وكانت تحيط ببيروت وصيدا بساتين تنمو فيها مختلف الأشجار المثمرة خاصة البرتقال والموز والبلح.

(١) القرآن الكريم ٢٤: ٢٥. سورة النور. (٢) ابن سباط، ورقة ١٠٣.

أما بشأن القيم الاجتماعية والأخلاقية عند الناس فمعلوماتنا مستمدة من التعاليم التي تفرضها عقيدتهم الدينية. وفي مجتمع ريفي متجانس يرتبط أفراده بروابط عائلية وغيرها يكون الناس أكثر التزاماً بالمبادىء الأخلاقية والعادات الاجتماعية ومراعاة لها مما هي الحال في مجتمع المدن الكبير والمتنوّع حيث بعض الجماعات والأفراد يكونون ممن اجتثّوا من بيئتهم المألوفة. إن صفات العدد الكبير من الأمراء الذين ترجم لهم صالح ابن يحيى وابن سباط تعكس المعيار المقبول من مجتمعهم. فاللياقة طابع الجميع. وكثيراً ما يستخدم ابن سباط في وصفه للأمراء كلمة محتشم وتعني أن الشخص في مظهره وسلوكه يتفق مع المبادىء المتعارف عليها.

ومن المهم ملاحظة أن كثيراً من الأمراء وصفوا بالورع والتقوى والنزعة الروحانية. والأمير الذي كرّس نفسه للحياة الروحية هو السيد جمال الدين عبد الله الذي خصصنا له فصلاً مستقلاً. وكان جمال الدين حجي الثاني يعتبر من الأولياء. وحفظ الكثيرون منهم القرآن الكريم عن ظهر قلب وكانوا يرددونه تكراراً. وكانت رياضة النفس من سمات تقواهم. وتجسدت تقواهم بالإحسان للفقراء، ولمن قسا عليهم الدهر. ومارس أميران الطب وأعدا الأدوية والاكحال والدهونات برسم الثواب[١].

وبرع كثير من الأمراء في الحرف مثل الصياغة والنجارة الدقيقة والحفر على الخشب والتطعيم. وكثيرون اشتهروا بجودة الخط ودرس بعضهم هذا الفن على شيوخ مشهورين. ويبدو أنه كان للبحتريين مجموعة مشهورة من مختلف أنواع الخطوط إذ عندما ذهب الأميران سعد الدين خضر وسيف الدين يحيى إلى مصر لمقابلة القاضي علاء الدين بن فضل الله العمري بشأن إقطاعهم طلب منهما أن يرسلا إليه جميع ما كان عندهم من الخطوط

(١) صالح بن يحيى، ص ٥٥، ١٨٤ - ١٨٥، ابن سباط ورقة ٩٤، ١٠٧.

المنسوبة ففعلا. وكان القاضي نفسه من الكتاب المشهورين بالأقلام السبعة.

وكــان الأمراء في صغرهم يتلقون العــلم من شيوخ ومدرّسين خصوصيين. أما إذا كان أبناء العامة يشتركون في الدراسة معهم فهذا لم يصلنا علم عنه. ولكن في ضوء تشديد المذهب الدرزي على واجب تعليم القراءة للغير فمن المرجح أن التقوى كانت تعني أيضاً إشراك الآخرين في تلقي العلم.

كان التعليم بسيطاً يتألف من علم النحو والصرف وعلم البيان والحساب والمنطق. وكان التاريخ أحب مادة عندهم بعد الشعر. ونظم الكثيرون منهم الشعر. وكان المؤرخ صالح بن يحيى مغرماً بالعلوم وخاصة علم الفلك الذي كان لديه عنه مجموعة من الكتب فضلاً عن كثير من كتب التاريخ ودواوين الشعر بينها ديوان أسامة بن منقذ بخطه[1].

إن الأمير ناصر الدين حسين (ولد سنة ٦٦٨ / ١٢٦٩ وتوفي سنة ٧٥١ / ١٣٥٠)، إلى جانب شهرته كحاكم ساد الازدهار عهده، كان مغرماً بالكتب وعنده مجموعة كبيرة منها. وكان معجباً بالمتنبي ويحفظ عن ظهر قلب معظم ديوانه. وكان يسأل أصحابه عن النسخ القديمة لديوان المتنبي فيحضروها له وقد وجد بين كتبه أربع من أقدم نسخ الديوان. ومدح الشعراء ناصر الدين وصنّف المؤلفون كتباً له. وكتب له الشيخ بهاء الدين محمود شيخ البلاد الشامية في الخط المنسوب درجاً يحتوي على الأقلام السبعة وبالغ في حسن الكتابة في ورق حرير وأهداه إليه[2].

وبنى عدد من الأمراء دوراً فسيحة في عرمون وعبيه وبيروت[3]. وقد

(١) صالح بن يحيى، ص ٢٠.
(٢) صالح بن يحيى، ص ٨٢ – ٨٣، ١١٧، ١٣١ – ١٣٢.
(٣) صالح بن يحيى، ص ١٠٦ – ١٠٩.

فاقهم جميعاً ناصر الدين في هذا الميدان وأنفق مبالغ كبيرة من المال على أبنيته. وناصر الدين حسين هو الأمير البحتري الوحيد الذي يشار إلى سيرته في التواريخ العامة[1].

وكانت تربط الأمراء التنوخيين صلة نسب بعائلة القاضي التي تولى أفرادها القضاء جيلاً بعد جيل. ويذكر ابن سباط أسماء القضاة منذ أول عهد الامارة التنوخية حتى نهايتها عند الفتح العثماني لسورية. وصفاتهم كما وردت في تاريخ ابن سباط هي الصفات المفروضة فيمن يتولى منصب القضاء. إنهم أتقياء وعلماء وذوو مهابة يقيمون العدالة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسعون في الصلح بين الناس. وكان لبعضهم من السعة ما مكّنهم من الإنفاق في سبيل الإحسان على نطاق واسع فكانوا يفرقون الحنطة والقماش على المحتاجين، وكذلك الأدوية التي يحضرونها. وكان من أبرزهم جمال الدين حسن (توفي سنة ٧٦٨ / ١٣٦٦) وهو يذكر أيضاً لبنائه الجسر فوق نهر الصفا الذي يعرف إلى يومنا هذا بجسر القاضي[2].

كان المجتمع في الأمارة البحترية بسيطاً ويظهر أنه كان على العموم قانعاً. وإذا فات هذا المجتمع المشاركة في الانجازات الحضارية للعهد المملوكي كفن العمارة والفنون الجميلة والإنتاج الفكري، فقد تفادى هذا المجتمع الآلام الناجمة عن جشع وطغيان كثير من الحكام وأحياناً عن الضائقة الاقتصادية وفقدان الأمن.

لقد بقي الأمراء البحتريون على ولائهم للماليك حتى النهاية. وعليه فبعد انتصار العثمانيين فقدوا الزعامة التي انتقلت إلى المعنيين.

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، الجزء الثاني، ص ٥٤ – ٥٥؛ المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ٨٣٤؛ المقريزي: خطط، الجزء الثالث، ص ٢١٧ – ٢٧٩.
(٢) ابن سباط، ورقة ١١٧ – ١١٨؛ صالح بن يحيى ص ٢٢٣.

الفصل الثالث عشر

الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي

يدعوه الدروز الأمير السيد أو فقط السيد ويرفقون اسمه بدعاء « قدّس الله سرّه » فهو يلي الحدود الذين أنشأوا العقيدة في المقام عند الموحدين.

ولد في ربيع الأول سنة ١٤١٧/٨٢٠ وهو في عمود نسب الأمراء التنوخيين الذين يرجع نسبهم إلى ملك الحيرة اللخمي المنذر بن ماء السماء الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي. ولما توفي السيد في جمادى الآخرة سنة ١٤٧٩/٨٨٤ كانت عائلته لا تزال تحكم جنوبي لبنان وهو حكم دام أربعة قرون تقريباً وانتهى عند الفتح العثماني لسورية سنة ١٥١٦.

وفيما يختص بسيرته هناك روايتان وجيزتان كتب إحداهما تلميذه أبو علي مرعي وكتب الثانية المؤرخ ابن سباط الذي كان والده في خدمة السيد كمعلم للدين وإمام جامع عبيه. ونشأ ابن سباط نفسه في بيت الأمير غير أنه كان عند وفاة الأمير صغير السن بحيث لا يُعد بين مريديه المشهورين.

إن السيرة التي أمامنا عامرة بالتقوى، وتقوى الأمير السيد جمعت التأمل الروحي والزهد في الدنيا مع التفاني في تعليم وإرشاد الآخرين. وبهذا الجمع بين العزوف عن الدنيا والانقطاع إلى الله تعالى وبين العمل لخير وصلاح عباد الله نال الأمير السيد الأوصاف التي عرف بها: فهو ينبوع

الخيرات ومعدن البركات، العالِم العامل، التقي المفيد، الزاهد، العابد، العارف بالله، الربّاني.

ولقد أظهر السيد منذ الصغر رغبة ملحة في تحصيل العلم ومصاحبة الصالحين. وما بلغ سنّ الرشد حتى كان رسخ فيما نذر نفسه له. وسرعان ما انتشرت شهرته كولي من أولياء الله الصالحين. أما التعليم الذي تلقاه فيمكننا الاستنتاج بشأنه مما نعرفه عن التعليم المتاح للأمراء من أفراد عائلته. فكانوا يدرسون العلوم الدينية واللغة والشعر والتاريخ وبعضهم كالمؤرخ صالح بن يحيى رغب في دراسة العلوم الطبيعية.

غادر السيد عبد الله موطنه مرة واحدة وذلك عندما رحل إلى دمشق حيث بقي عدة سنوات. وهناك أتيح له متابعة دراسته في الدين واللغة والفلسفة والرياضة. وتعني الرياضة هنا مؤلفات الصوفية أهل الرياضة الروحية أي مجاهدة النفس وكبح شهواتها.

ودرس القرآن الكريم وتلاه غيباً ولازم الدرس فيه حتى انطبعت آياته وسوره في قلبه. وكان لدى السيد مكتبة تحوي على أكثر من خمسمائة مجلد وهي مجموعة كبيرة بالنسبة لمكتبة من المخطوطات، وقد أرسل إلى الديار المصرية في طلب بعضها. وحين كتب ابن سباط عن المكتبة كانت محتوياتها قد وزعت. وقد تضمنت شروحات للقرآن وكتب الفقه على المذاهب الأربعة وكتب اللغة والتاريخ والسير ودواوين الشعراء ومؤلفات فلسفية بينها رسائل اخوان الصفاء. ومن الطبيعي أن كتب التصوف كانت بين محتويات المكتبة فإن السيد نفسه كان صوفياً وكثيراً ما اقتبس عن المتصوفة في كتاباته وتعاليمه.

ولقد شغل تعليم الآخرين، كباراً وصغاراً، وقت السيد عبد الله عندما لم يكن مستغرقاً في التأمل والعبادة. وعيّن يوماً في الأسبوع يجتمع إليه

تلاميذه حين كان يبسط لهم العلوم الواسعة ويشرح لهم غوامض الأسرار الروحانية. وكان ديوانه الرحب المعروف لأعيان البلاد يحوّل في ذلك اليوم إلى ندوة للدراسات الدينية. وأمر مريديه البارزين، كلا في مكان إقامته، أن يعين يوماً في الأسبوع لتعليم القرآن والسنة وسيرة الأنبياء والصالحين وإرشاد الآخرين إلى الصراط المستقيم. وكان له تلاميذ كثيرون من أماكن عديدة يأمرون بأمره وينهون بنهيه، وأفاض عليهم من علمه وكساهم من حلمه وأدبهم من آدابه، إلى أن اتصل ذلك بجميع البلاد الشامية، فعند ذلك كثرت الخيرات ونمت البركات وتضاعفت الحسنات.

وأمر السيد بعمارة المساجد في القرى وتجديد الجوامع وإنشاء الأوقاف. وأوقف كثيراً من أملاكه في سبيل الخير. وكانت صلاة الجمعة تقام في كل قرية يؤمن سكانها العدد المطلوب للصلاة الجامعة. وعيّن السيد فقهاء لتعليم الأولاد وكان ينفق من ماله على تعليم الأيتام في جميع أنحاء البلاد القريبة منها والبعيدة.

وبشأن تعليم الصبيان وتربيتهم كتب السيد عبد الله في شرحه للرسالة الخامسة من كتب الحكمة بصدد معنى تسليم المستجيب بكليته للباري تعالى، من ذلك تسليم ولده.

يقول السيد ان في تسليم الولد شروطاً عظيمة، فالولد وديعة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل نقش ومائل لكل ما يمال به إليه. وينبغي تعويده منذ الصغر على البساطة في المأكل والملبس والمفرش وأن يحذّر من حب الذهب والفضة. ويجب أن « يعلّم أن الرفعة في العطاء لا في الأخذ ». وفي المدرسة ينبغي أن يجتهد في حفظ القرآن ودرس أحاديث الأخيار وسير الأبرار لينغرس في قلبه حب الصالحين. وينبغي أن لا يُسامَح في ترك الطهارة

والصلاة ويُعلَّم كلما يحتاج إليه من حدود الشرع. ويجب أن يُكرّم على الفعل المحمود ولا يكثر عليه العقاب والملامة إذا قصّر كي لا يسقط وقع الكلام في قلبه. وبعد الفراغ من المكتب ينبغي أن يؤذن له أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه في التعليم يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغّص عيشه حتى يطلب الحيلة للخلاص منه. وينبغي تعليم البنات القراءة كالصبيان. يؤكد السيد ذلك إذ يقول: « فالأب ملزم التزاماً ضرورياً بأن يعلم ولده ما ينبغي عليه من أمر الكتابة والقراءة ومعرفة الحلال والحرام إن كان ذكراً أو أنثى، ويحرَّم عليه تحريماً شديداً إهمال ولده بلا تعليم الخط ذكراً كان أو أنثى ». ويكرر السيد هذا التأكيد في شرحه هذا فيقول: « فلا يحل لأحد أن يهمل نفسه بلا تعليم الخط ويحرم عليه أيضاً إهمال ولده أو زوجته بلا تعليم الخط ».

وفيما يتعلق بتعليم المرأة، وخاصة التعليم الديني، وبحقوقها وواجباتها، فإن السيد كتب شرحاً مطولاً على « شرط الإمام »[1] الرسالة التي أوضح فيها حزمة الالتزامات المتبادلة للزوج والزوجة. وقد توسع السيد في شرح المبادىء التي تضمنتها الرسالة مؤكداً على المساواة بين الزوج والزوجة وواجب الزوج في تهيئة الفرصة لزوجته لتتعلم وتتقدم في المعرفة[2].

وكان السيد مستعداً دوماً لتعليم كل من يسعى للتعلم سواء كان كبير السن أم صغيراً وإعطائه من المعرفة حسب قدرته على الاستيعاب.

والعلم في نظره مثل المال ينبغي وضعه في خدمة الآخرين. فالمال عند الإنسان وديعة من الله تعالى وأداء الوديعة هو صرفها في واجبها وبذلها في محلها. فبعد أن يقيم الإنسان عِوَز نفسه على طريقة الاعتدال يجب عليه أن

(١) الرسالة ٢٥ من رسائل الحكمة.

(٢) أنظر الفصل السابع عشر.

ينفق المال على عباد الله الصالحين المضطرين. وكما أنه حرام على صاحب المال إمساكه عن الصدقة والبر كذلك حرام على صاحب العلم والمعرفة إمساك الإفادة والفضيلة عن مستحقيها لأن بذل العلم لمستحقيه فرض لازم من رب العالمين. فالمفيد يعلم المستفيد زكاة علمه. وإذا لم يفعل، مع القدرة على ذلك، يكون دخل تحت كلام ارطاطاليس الحكيم حيث قال: ضنُّ الرجل بالعلم والحكمة المقرّبين إلى السعادة من أشدّ القسوة وأعظم الأثم[١].

وفي رسالة إلى أحد مريديه يقول السيد: والحكم جازم بأن العالِم إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالِم. فلا يغتر الإنسان بتشدقه واستطالته وحذاقته وقوته في المناظرة والمجادلة فإنه جاهل ليس بعالِم إلّا أن يتوب الله عليه ويرجع يعمل بما يعلم.

وفي هذا المعنى جاء في «الشريعة الروحانية»: «وقليل من العلم مع العمل به أنفع من كثير من العلم مع قلة العمل به. فرحم الله من علِم وعمل وعلّم، وقرأ وفهم وفهّم، ووصل وأوصل، وكان وسيطاً بالحق، ناطقاً بالصدق، مقترناً بالتوفيق»[٢].

وفي رسالة معاذلة النفس المنسوبة إلى هرمس والتي تضمنها كتاب «الشريعة الروحانية»، يخاطب هرمس النفس قائلاً: «واعلمي أن الإنسان لم يُخلق لمعنى من المعاني إلا للعلم والعمل به»[٣].

إن السيد وإن لم يكن تولى منصب القضاء فإن غزارة علمه وتقواه جعلته موئلاً لطالبي العدالة. وهابه الناس وأطاعوه أكثر مما هابوا وأطاعوا

(١) شرح الرسالة الخامسة.

(٢) الشريعة الروحانية، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٣) الشريعة الروحانية، ص ٣٤.

حاكماً أيّاً كان. وكانت سلطته الخلقية بمثابة حافز لعمل الخير ورادع عن عمل المنكر. وفي ممارسته مهمة القضاء ابتغى تحقيق الرسالة التي كرّس نفسه لها كمعلم ومرشد. كان الأخصام يأتونه من أقاصي البلاد، من صفد في الجنوب وحلب في الشمال، ومن طرابلس إلى دمشق. وبعد أن يستمع لقصة كل من الخصمين كان يبدأ بالمواعظ اللطيفة ثم يحكم بينهما بما يراه شرعاً أو مصالحة، فيسري حكمه من غير إكراه ولا إجبار ويرجع الخصمان راضيين شاكرين متصادقين بعد العداوة. وكان أهل الذمة يأتون إليه في اختلاف بينهم في أمور الدنيا فيتمثلون ما يحكم به ويرجعون راضين بقضائه.

وساد الأمن البلاد تحت العين الساهرة للسيد وتلاميذه الكثيرين. يقول ابن سباط: وتجنب المفسد الفساد واللص السرقة، وكانت الفواكه تسقط من الشجر ولا يتعرض لها أحد. وصارت البلاد في أحسن حال من الرخاء وطيب العيش. وكان أنجع عقاب الإبعاد عن مجالس الذكر التي أنشأها السيد في أنحاء البلاد وأوقف لها الوقوفات. فمن كذب أو سرق شيئاً ولو كان يساوي دانقاً أو شرب مسكراً أو ظلم أو تعدى على أحد أو ارتكب خطأً ما، كان يحرم عليه دخول تلك المجالس. فصار ذلك أشد هيبة عند الناس من قصاص الحكام، وهابوا مخالفة أوامره أكثر من مهابتهم سطوة الملوك الدنيوية. ورسم السيد أن من ثبت عليه ذنب من الذنوب العظيمة يُنفى ولا يكلمه أحد ومن جرت منه هفوة يحاسب عليها ويوعظ. أما التلاميذ الكبار فمن عُرف عنه أنه جارَ على أحد يستدعيه السيد إليه، فيكون قدوم ذلك التلميذ عليه أشد من قدومه على ضرب السياط. وكان السيد في مطالبته تلاميذه الذين في مراكز السلطة الحرص على التقيد بموازين العدالة يحذو حذو الإمام الأوزاعي الذي كان شديد الحساب على الحكام المنحرفين عن نهج العدالة. وقد كان للسيد عبد الله هذا القدر

العظيم من السلطة الأخلاقية لأنه « كان لا يأمر بشيء حتى يفعله ولا ينهى عن شيء حتى يجتنبه ».

كان السيد مثالاً حيًّا لإيمانه الذي تجلى بأروع ما يكون عند وفاة ابنه الوحيد سيف الدين عبد الخالق في يوم زفافه. وكان سيف الدين وهو في العشرين من عمره متبحراً في العلم ومثالاً للتقوى وكان يرجى منه في مستقبل الأيام كل الخير لما تحلى به من مزايا الخلق والعقل. وكانت وفاته خطباً عظيماً ارتجت له البلاد وقدمت حشود الناس من كافة الأنحاء لمشاطرة السيد هذا المصاب العميم. فوقف أمام هذه الحشود ثابتاً في عقيدته راسخاً في إيمانه ومتواضعاً أمام الله مستسلماً لمشيئته ومتحلياً بالصبر الجميل. ووعظ الناس، ومما قاله: « سبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلّا بالله له البقاء الدائم وهو العالم الحاكم وهو الواهب والآخذ وأمره الحازم والنافذ، فله الحمد على ما أولى والشكر على ما أبلى ». وبعد دفن ولده عاد إلى المنزل وأمر بإحضار الطعام للجموع، وجلس للناس يعظهم كعادته بآيات الله وأخبار الأنبياء وسيرة الصالحين. وجعل موت ولده أدباً وعبرة. وكان يردد الآية الكريمة: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾[1].

وساد البلاد جو مفعم بالخير ناجم عن تعاليم السيد ومواعظه وقيام مريديه بنشر تعاليمه والعمل بمضمون الآية: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[2]. ويقول مؤرخ سيرة السيد: « وكانت البلاد لا تسمع في ذلك الزمان إلّا هذا

(١) القرآن الكريم، ٢: ١٥٥-١٥٦ سورة البقرة.
(٢) القرآن الكريم، ٣: ١٠٤ سورة آل عمران.

حفظ وهذا عَلِم وهذا فَهِم، والدنيا كأنها شابة وزمانها كأنه ربيع وريحه عطر والخير يانع والشر ذابل ».

ومع هذا كان هناك من عارض السيد إما عن سوء فهم لتعاليمه أو بغرض تشويه معانيها فنسبوا إليه أنه أمر بمنع الناس من تعلم الحكمة وهذا إفك وبهتان. وقد بعث السيد إلى مشايخ وادي التيم كتاباً يحذرهم مما نقل عنه المرجفون بأنه أمر مشايخ البلاد بإغلاق باب الرحمة وصدهم عما ينبغي عليهم من حفظ الحكمة، ويقول: فالأمر في ذلك بضد ما نقل إليهم من الكلام المحرف المكذوب. فهو « قائل عن لسان العلم والحكمة أن لا ينبغي فتح باب الرحمة إلاّ لمن صرف نفسه عن الشبهات والمحرمات واتبع الهدى وتجنب الباطل وصفت نيته وخلصت سيرته ». وفي هذا الكتاب يشير السيد إلى ما نُسِب إليه من أنه جعل الشراب في رتبة الكبائر، وهذا ما لم يتصوره. بل إنه شدّد في النهي عن شرب الخمر وعصره وحمله وبيعه لأنه يغطي العقل ويجعل النفس كالسفينة بلا رئيس في مهب الرياح.

ولما أشاعوا عنه هذه الأباطيل تنحى عنهم إلى بلاد الشام وسكن دمشق. وكان له من المحبين والمستفيدين والمريدين عدد كبير، وعاونه تلاميذه في نشر الخير بالقول والعمل. ثم عاد إلى موطنه وذلك قبل سنة ٨٧٤ / ١٤٦٩ تاريخ وفاة ولده.

ألّف السيد عبد الله عدداً من الكتب والرسائل، فكتب شروحات على ثلاث من رسائل الحكمة هي الميثاق والكشف وشرط الإمام[1]. فالميثاق هو العهد الذي يأخذه المستجيب على نفسه، وكشف الحقائق يتناول العقيدة، ورسالة شرط الإمام مرّ ذكرها أعلاه. وألّف السيد كتاب « الكمالات » وهو شرح لصفات العقل الكلي. وكتاب « سياسة الأخيار » وفيه يرشد

(١) الرسائل ٥ و١٣ و٢٥.

أصحاب الكلمة والرياسة إلى ما يجب عليهم في سياسة الاخوان من الرعاية والرأفة ولمّ الشمل والتربية الدينية. فضلاً عن رسائل إلى مريدين وإلى جماعات المؤمنين. وقد صنّف قاموساً للغة العربية ذكره الأشرفاني بين المصادر التي اطلع عليها في تأليف كتاب عمدة العارفين.

إن كتابات السيد مفعمة بروح صوفية، فقد اتبع خطى الصوفية في الوصول إلى معرفة الله. وبعد أن تغلب على شهوات الجسد بلغ درجة القربى من الله.

في شرحه على الميثاق حيث يقرّ المستجيب بتسليم روحه إلى الباري تعالى، يقول السيد إن من تسليم الروح أن يحاسب الإنسان نفسه في كل لحظة وعلى كل أمر ويزن جميع أقوالها وأفعالها بميزان الحكمة ويقابلها بأوامرها. فالنفس حين إبداعها قابلة للخير والشر قبولاً متساوياً وبعد ذلك فقبولها للخير على قدر رجحان طبائع العقل وامتزاجها بحكمة الله تعالى.

ويقول: خُلقت النفس للعبادة والتوحيد. وقبل أن يتسنى لها بلوغ هذه الغاية عليها أن تتخلص من الظلمة التي فيها والتي هي بمنزلة السباع الضارية إذا هاجت أهلكتها. وعليها أن تعلم أن الشر لا يأتيها إلاّ من قبل ذاتها. وفي النفس الجامعة للقوى الحيوانية قال النبي: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». فينبغي على الإنسان أن يبقى في كفاح مستمر معها فيوبخها ويعاقبها ولا يرمي سوط التأديب من يده ساعة واحدة. فمتى قهرت النفسُ الشهوات أصبحت خاشعة لله، مراقبة لباريها، سائرة إلى معرفته، فيمنّ عليها الصفاء والإشراق.

وكما يرى الصوفيون أن الطريق إلى الله تمر بمقامات ينجزها الإنسان بعمله وأحوال يضفيها الله على السالك كذلك يرى السيد عبد الله أن عمل

الإنسان مقروناً باللطف الإلهي هو الطريق إلى الله. وفي ذلك كتب السيد: فلا يقول أحد أو يعتقد أنه وصل إلى الهداية في الدنيا والثواب والنعيم في الآخرة بمجرد عمله فقط ولا بمشيئة الله فقط بل الوصول إلى خير الدنيا والآخرة هو بصالح الأعمال وخالص النيات وصدق الأقوال وإعانة الله تعالى وتوفيقه وتسديده ومشيئته. وفي شرحه لما جاء في إحدى رسائل الحكمة: «فتمسكوا بما اقتبستموه من مكنون التوحيد والحكمة وداوموا بقوة اليقين على قرع باب الرحمة يتجلى لعقولكم البار العلام»، يقول السيد: قرع الباب هو بالعلم والعمل. فالقرع من العبد والتجلي من الرب وهو أعظم الإنعام.

وفي كتاب إلى عبد القادر ريّان أحد المريدين، يقول السيد: وقاعدة السعادة في الدين والدنيا أن يستشعر العبد حضور خالقه في سرّه وطويته وظاهره وباطنه. فلا يقرع الباب قارع بخالص سريرته إلاّ فتح له وشاهد العظمات. وتأتي المشاهدة بعد الانصراف عن كل ما هو سوى الله. ويذكر السيد قول أبي يزيد البسطامي أن بين العبد والمعبود خطوتين، الأولى الاستعانة بالله في محق ظلمته وشهوته. فإذا تجردت النفس من ذلك صارت نيّرة جوهرية صافية نقية عالمة مضيئة. فحينئذ تخطو الخطوة الثانية وهي اتصالها بباريها واتحادها بنور عظمته وكمال التذاذها بجماله وجلاله، وهذا هو الدين الصحيح.

لقد كان السيد فيما كتبه وفي سلوكه دائم الاستشعار بحضور باريه، دائم التطلع إلى نعيم المشاهدة، موقن أن العبد لا يحجبه عن الرب إلاّ خبيث الأعمال، وأن النفس إذا صفت من الأخباث الباطنة والظاهرة صارت كالبلور الصافي وكالمرآة الصقيلة قابلة لشعاع الأنوار الربانية، ولاح فيها جمال التوحيد وشاهدت باريها في جوهرها اللماع الصافي.

إن مشاهدة الجلال ثمرة الرضى بفعل الرب. ومعنى الرضى الإيمان واليقين أن أفعاله جميعها حكمة لاعبث فيها وحق وصدق لاباطل فيه وعدل لا جور فيه. فإذا رضي العبد بفعل الرب ولم يعترض أثمر له رضاه بحكم خالقه رضى خالقه عنه وهذا أقصى الأماني وغاية الغايات[1].

(١) شرح السيد على الرسالة الخامسة.

الفصل الرابع عشر

فخر الدين الثاني المعني

بعد الفتح العثماني لسورية تولت السلطة في جنوبي جبل لبنان أسرة درزية جديدة هي الأسرة المعنية وهي فخذ من قبيلة ربيعة الكبيرة التي موطنها الجزيرة في أعالي الفرات.

وقد حارب معن الصليبيين في شمالي سورية إلى جانب إيلغازي بن أرتق حليف طغتكين حاكم دمشق. ولقد أصابا نجاحاً كما كابدا هزائم قبل أن ينتقل معن إلى البقاع الذي غادره بأمر من طغتكين ليستقر في جنوبي لبنان لمساندة الدروز الذين كانوا يدافعون عن تلك المناطق ضد الفرنجة.

واستقر معن وعشيرته في الشوف وكانت إذ ذاك أرضاً مقفرة. فرحب التنوخيون بالمعنيين وساعدوهم في بناء المنازل والتخلي عن سكنى الخيام. كما استوطن الشوف لاجئون من المناطق التي يحتلها الافرنج فعمرت البلاد وانتشرت القرى وأقيمت بعقلين التي أصبحت مركزاً درزياً هاماً. وتوفي معن سنة ١١٤٨/٥٤٣ وخلفه ابنه منذر.

وفي القتال ضد الصليبيين كان المعنيون حلفاء للتنوخيين وناسبوهم بالزواج. وقد عرفوا باسم رمطوني نسبة إلى رمطون القرية التي سكنوها في مقاطعة الغرب[1].

(١) ابن سباط، تاريخ، ورقة ١١٦.

فتح العثمانيون سورية سنة ١٥١٦ ولما قدم السلطان سليم إلى دمشق وفد عليه أمراء المناطق فقلد السلطان الأمير قرقماز بن الأمير يونس بن معن حكم الشوف والأمير جمال الدين اليمني الأرسلاني الغرب[1]. وكان تعيين السلطان أمراء دروز على منطقة درزية بمثابة اعتراف بالوضع القائم منذ القدم وهو استقلال الدروز تحت حكم أمرائهم.

ولم يمر وقت طويل حتى اصطدم الدروز بالسلطات العثمانية. ففي سنة ٩٣٠ / ١٥٢٣ زحف خرّم باشا حاكم دمشق على الدروز فأوقع بهم الهزيمة ونهب وأحرق قرى الشوف. وكان سبب هذه الحملة تمرد الدروز عليه وقتلهم صوباشيته وجماعته. ولم يعرف سبب هذا التمرد. على أنه يفترض أن الحاكم ومعاونه أرادا التدخل في شؤون الدروز فكانت المقاومة. إن هذه الحادثة التي جرت في أوائل العهد العثماني في سورية كانت نذيراً بما سيحدث مستقبلاً ذلك أن علاقات الدروز بحكام الولايات كانت تتسم بالثورة إذا ما حاول هؤلاء الانتقاص من حريتهم.

ومع ازدياد قوة الأمير المعني ازدادت بالتالي مخاوف والي دمشق. ففي سنة ١٥٤٤ تحايل الوالي مصطفى باشا على فخر الدين الأول فاستقدمه إلى دمشق حيث قتله غدراً. لذا كان ابنه قرقماز وحفيده فخر الدين الثاني حذرين جداً من الوقوع في إغراء الحضور عند والٍ أو وزير عثماني.

ولم يكن على الأمير المعني أن يحذر الخطر فقط من العاصمة الإقليمية بل كان عليه أن يحترس أيضاً من دسائس زعماء المناطق المجاورة التي تثيرها الغيرة والنزاعات الشخصية.

ففي سنة ١٥٨٥ هوجمت قافلة كانت تحمل الجزية من مصر إلى اسطنبول ونهبت قرب جون عكار شمالي طرابلس. فاتهم أعداء المعنيين،

(١) الدويهي، البطريرك اسطفانوس، تاريخ الأزمنة، ص ٣٢٦.

آل سيفا أمراء عكار وابن الفريخ في البقاع، الدروز بهذا العمل على الرغم من أن الحادثة وقعت خارج بلادهم. فصدر الأمر إلى ابراهيم باشا والي مصر بمعاقبة الدروز. ولما دعا الوالي الأمير قرقماز لمقابلته في البقاع رفض الأمير الدعوة متذكراً مصير والده عندما قبل دعوة مماثلة من باشا عثماني آخر. فقتل ابراهيم مشايخ العقّال الذين ذهبوا لمقابلته في عين صوفر نيابة عن جماعتهم وخرّب بلاد الدروز حاملاً معه ثروات جمة. أما قرقماز فلجأ إلى الأحراش حيث مات.

وخلّف قرقماز ابنين صغيرين هما فخر الدين ويونس فتعهدهما خالهما الأمير التنوخي سيف الدين وأشرف على تربيتهما بمعاونة والدتهما وكانت سيدة فذة جليلة القدر. أما الرواية أن والدتهما عهدت بهما إلى عائلة الخازن في شمالي جبل لبنان فقد اختلقت في القرن التاسع عشر. ولما بلغ فخر الدين رشده تولى إرث أبيه.

كانت الدولة العثمانية عندما تولى فخر الدين السلطة قد تجاوزت أوج عزها. وكان آخر السلاطين العظام، السلطان سليمان القانوني، قد توفي سنة ١٥٦٦. ولقد حكم فخر الدين من سنة ١٥٩٠ إلى سنة ١٦٣٣. وخلال هذه المدة توالى على العرش السلطاني ستة سلاطين خلع أحدهم وقتل آخر وحكم ثلاثة منهم خمس سنوات. والسلطان القوي الوحيد بينهم كان مراد الرابع الذي حكم من سنة ١٦٢٣ إلى سنة ١٦٣٩[1].

وقد انعكس ضعف الحكومة في اسطنبول على الولايات حيث تحدى الحكّام السلطة المركزية وتمرد الزعماء المحليون ودبت الفوضى في صفوف الجنود. وتمثل هذه الحالة ما حدث عندما خاطب الصباحيون السلطان. ففي شهر رجب ١٠١٢ / كانون الأول ١٦٠٣ التمس فيلق الصباحيين من

(١) F. Wüstenfeld, Fachr ed-din der Drusenfürst und seine Zeitgenossen, pp 11-48.

السلطان توجيه دعوة لعقد الديوان من أجل النظر في حالة السلطنة التي سادها التمزق والعصيان. فانعقد الديوان وحضره المفتي والعلماء وغيرهم. ثم تكلم مندوب الصباحيين قائلاً: « مولاي، نتيجة للحرب التي رأيت من الضروري شنّها بعيداً فقد بهت مجد العائلة المالكة وانحدرت كرامتها وديست السلطنة من أدناها إلى أقصاها واستولى المتمردون والعصاة على العالم بأسره »[١].

وكان علي جان بولاد حليف فخر الدين زعيماً ثائراً من الذين تتناولهم قصتنا. ونظراً للدور البارز الذي لعبه الجنبلاطيون في تاريخ الدروز بعد استقرارهم في لبنان فمن المناسب تقديمهم في هذا السياق.

إن جد الجنبلاطيين هو جانبولاذ ابن الأمير قاسم الكردي المعروف بابن عربو. وكان جانبولاذ (المتوفى سنة ١٥٧٢) حاكماً على كلّس وعزاز إلى الشمال من حلب حيث اللصوص وقطّاع الطرق. فقضى على اللصوصية وأعمال الشقاوة ووطد الأمن والنظام في السنجق الذي كان يحكمه كما اشترك في فتح رودس تحت قيادة السلطان سليمان القانوني. ونوّه به في مرسوم موجه « إلى بكلر بك دمشق » مؤرخ في ١٥ جمادى الأولى ٩٦٧ / ١٢ شباط ١٥٦٠ بخصوص حاكم سابق لنابلس سلّم أسيراً إلى « فخر الأمراء جانبولاذ دام عزه ». وقال عنه مؤلف تراجم أعيان القرن الحادي عشر / السابع عشر « وكان له صيت شائع وهمة علية »[٢].

وقد خلفه على سنجق كلّس وعزاز ابنه حسين الذي طلب منه حاكم حلب نصوح باشا المساعدة في وضع حد لفتنة الانكشارية.

(١) Na'ima, Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1669, translated from the Turkish by Charles Frazer, vol, I, pp 212-213.

(٢) المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، الجزء الثالث، ص ١٣٦.

كان الانكشارية في بدايتهم من الجنود المدربين والمنضبطين يدخلون الجيش بموجب فريضة دورية تتناول فتياناً من الشعوب الأوربية التي تحكمها الامبراطورية العثمانية. ولم تكن هذه المؤسسة مفتوحة لأولاد المسلمين وكان ممنوعاً على الانكشارية الزواج قبل أن يتقاعدوا من السلك كما لم يكن يسمح لهم بمزاولة التجارة أو ممارسة الحرف. غير أنهم ما لبثوا أن فقدوا انضباطيتهم وطابعهم الحربي وبات الكثيرون منهم يجندون من بين الحرفين في المدن[١].

وتمكن انكشارية دمشق في نهاية القرن السادس عشر من السيطرة على حلب. وفشلت جميع محاولات الوالي لإخراجهم منها على أنه تمكن أخيراً من طردهم بمساعدة حسين باشا. ولكنه بعد أن تخلص من الانكشارية انقلب على حسين الذي هزم نصوحاً في موقعتين جرت بين قواتهما.

وقام السردار سنان باشا، الذي كان يقود جيشاً عثمانياً يقاتل الفرس في الشرق، بعزل نصوح من حلب وعيّن حسيناً مكانه. ومقابل ذلك دفع حسين للسردار سبعة آلاف قطعة ذهبية وتعهد بأن يرسل إلى اسطنبول سنوياً ستمائة ألف قطعة ذهبية وأن ينضم إلى السردار في قتال الفرس[٢].

أصيبت حملة سنان في سنة ١٦٠٤ بكارثة وكان حسين قد أبطأ في الانضمام إلى الحملة. وعندما ذهب لمقابلة السردار في وان كان يترقب المديح لأنه أنقذ الفيلق الذي بإمرته. غير أن سناناً في سورة غضبه قتله.

(١) H. A. R. Gibb and Harold. Bowen, Islamie Society and the West, vol. I, pt. 1. p 181.

(٢) المحبي، خلاصة الأثر، الجزء الثاني، ص ٨٤ – ٨٧؛ الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، الجزء الثالث ص ٢٦٦ – ٢٧٦.

وكان حسين قد حُذّر من الذهاب إلى مقابلة السردار غير أن كبرياءه أبت عليه ذلك(١).

يقول المحبيّ (المتوفى ١١١١ / ١٦٩٩) في وصفه لحسين باشا « وكان له مروءة وفتوة ومحبة للعلماء والصالحين إلا أنه كان ظالماً لاحتياجه إلى الانفاق على قواته ».

وقد تجمعت قوات حسين وأتباعه حول علي ابن أخيه عندما ثار في حلب. وقاد الجيش الشامي الذي أرسل لقتاله يوسف باشا سيفا حاكم طرابلس الذي دفع مبالغ طائلة ليتولى القيادة. وانتصر علي انتصاراً تاماً في المعركة التي جرت قرب حماه فهرب ابن سيفا إلى طرابلس حيث جمع كنوزه ومنها أبحر إلى حيفا ملتجئاً إلى أحمد بن طربيه(٢).

سعى علي باشا بعد انتصاره هذا إلى نيل مساعدة فخر الدين المعني في الخطوة التالية ضد ابن سيفا. فالتقى الأميران في البقاع وقررا المضي إلى دمشق حيث ذهب يوسف سيفا بعد مغادرته حيفا. وخيّما في عراد على مقربة من دمشق. وكان معهما أحمد شهاب أمير وادي التيم ويونس حرفوش أمير بعلبك. وبينما بقي يوسف سيفا داخل المدينة متظاهراً بالمرض، عمل علي جانبولاذ على اضعاف قوات دمشق وذلك بالقيام بتدابير سرية مع زعمائها. فلم تكد المعركة تبدأ في ١٥ جمادى الآخرة ١٠١٥ / تشرين الأول ١٦٠٦ حتى تداعت قوات دمشق مما جعل علي يقول « العسكر الشامي ما قاتلنا وإنما قابلنا للسلام علينا »(٣).

(١) البوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، الجزء الثاني، ص ٢٧١.
(٢) البوريني، تراجم الأعيان، الجزء الأول ص ٢٢٨ – ٢٢٩، الجزء الثاني، ص ٢٧٢.
(٣) المحبي، خلاصة الأثر، الجزء الثاني، ص ١٣٦ – ١٣٧؛ البوريني، تراجم الأعيان، الجزء الثاني ص ١٢.

أما يوسف سيفا فقد تسلل من المدينة قاصداً حصن الأكراد. واتهم علي جانبولاذ الدمشقيين بالتستر على هرب ابن سيفا بالرغم من معرفتهم أنه ليس بينه وبينهم أي خلاف ذلك أن خلافه كان مع ابن سيفا الذي كان قد دفع خمسين ألف دينار ذهب ليتولى قيادة القتال ضده. وكان الدمشقيون فرضوا على ابن سيفا أن يودع لدى القاضي مائة ألف قرش تدفع لجانبولاذ مقابل السماح له بالرحيل. ومنع علي باشا جنوده من دخول دمشق على أنه أطلق لهم العنان في نهب جوارها.

ثم زحف علي جانبولاذ شمالاً وعسكر مقابل حصن الأكراد وخيّر يوسف سيفا بين القتال والصلح. فاختار سيفا الصلح وأن يدفع إلى جانبولاذ مبلغاً اتفق عليه. وأقر الأميران صلحها بإجراء عقود زواج بين أفراد من أسرتيهما(١).

أما فخر الدين فعاد إلى بلاده وكان من أسباب تحالفه مع علي جانبولاذ ضد يوسف سيفا العداء القائم بين المعنيين والسيفيين الذين خلفوا آل عساف التركمانيين في حكم طرابلس وعكار. وكان ابن سيفا يعمل على توسيع منطقته جنوباً قريباً من المعنيين وما كان هذا ليقبل به المعنيون. وفي سنة ١٥٩٨ دحره فخر الدين عند نهر الكلب. وقبل ذلك تورط ابن سيفا في اتهام الدروز كذباً بمهاجمة القافلة التي كانت تحمل الجزية من مصر إلى الباب العالي وأدت إلى الحملة العثمانية على بلاد الدروز.

وعاد علي جانبولاذ إلى عاصمته حلب وهو أقوى حاكم في سورية. ولمدة سنتين حكم دولة مستقلة امتدت من أضنة في الأناضول إلى حماه(٢).

(١) المحبي، خلاصة الأثر، الجزء الثالث، ص ١٣٨ – ١٤٠؛ البوريني، تراجم الأعيان، الجزء الثاني ص ٢٧٨.
(٢) يقول البوريني: كان حكمه نافذاً من أضنه إلى غزة. الجزء الثاني ص ٢٨٢.

وانتحل لنفسه رمزي الملكية في الإسلام: سك النقود والدعاء له في خطبة صلاة الجمعة.

وفي سنة ١٦٠٧ عقد جانبولاذ اتفاقاً مع فردينان الأول غراندوق تسكانا وكان ذلك مما زاد في عزم السلطنة على عزله. فأرسلت قوة كبيرة بقيادة الصدر الأعظم مراد باشا وجرت معركة ضارية بين الجانبين قرب ممر بغراس انتهت بهزيمة جانبولاذ.

كانت سورية في عهد فخر الدين تضم ثلاث ولايات: حلب والشام (دمشق) وطرابلس. وكانت بلاد الدروز تابعة لوالي دمشق.

استهل فخر الدين حكمه كأمير على جنوبي جبل لبنان وصيدا ومن هذا المنطلق عمد إلى توسيع سيطرته ونفوذه. أما منطقة سيطرته فكانت كسروان على الساحل في وسط لبنان بينما عمل على بسط نفوذه إلى مناطق حوران وعجلون ونابلس الجبلية التي كانت سلطة الحكومة العثمانية على سكانها واهية[1]. وكان شهابيو وادي التيم حلفاءه في مسعاه لتحقيق مطامحه. أما آل سيفا الذين سعى ليحل مكانهم فكانوا أعداء له. وفي البقاع كان الزعماء الحرافشة مذبذبين بين الصداقة والعداوة. وكان له بين زعماء العشائر في المناطق الجبلية حلفاء وأتباع.

وفي علاقاته مع الولاة العثمانيين، الذين كانوا يتبدلون باستمرار، ومع الحكومة في اسطنبول والشخصيات العثمانية التي كانت تزور سورية أو تمر بها، كان فخر الدين واسع الكرم في إنفاق الأموال وتقديم الهدايا. وكان يدفع الإتاوة التي عليه إلى الباب العالي في حينها وكان له وكيل مقيم في إسطنبول يزوده الأمير بأموال سخية لقضاء مصالحه.

(١) P. M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922, pp 115-116

وقد ساد القانون والنظام بلاد الدروز. وعمد فخر الدين إلى مطاردة الخارجين على القانون من البدو لحفظ سلامة المواصلات وخاصة طريق الحج من غاراتهم.

وهكذا فإن فخر الدين لم يهمل تنفيذ التزاماته تجاه مولاه السلطان. أما نزاعاته مع الولاة ومن خلالهم مع الحكومة المركزية فقد نجمت عن تخوّف هؤلاء الولاة وحسدهم من تنامي قوته.

لقد كان فخر الدين طموحاً وقد تمتع بالصفات اللازمة لتحقيق طموحه الكبير وهي الشجاعة والعزيمة والقدرة الفذة على متابعة أهدافه.

في سنة ١٦١٢ عزل والي دمشق حافظ أحمد شيوخ حوران وعجلون أصدقاء فخر الدين واحل مكانهم خصومهم. فلجأ الزعماء المعزولون مع عائلاتهم وأتباعهم إلى فخر الدين طالبين مساعدته. فأوفد الأمير معهم ابنه علي على رأس قوة اصطدمت بجيش دمشق والبدو المؤيدين للحكومة في مزيريب جنوبي دمشق وأوقعت بهم الهزيمة وأصبحت حوران والجولان تحت سيطرة فخر الدين. وعندما حاول حافظ، قبل ذلك، إخضاع زعيم البقاع ابن حرفوش والأمير أحمد شهاب أمير وادي التيم أمدهما فخر الدين بمساعدة فعّالة. كما هزم يوسف سيفا وضم كسروان وبيروت. وتوالت الشكاوى على العاصمة بأن فخر الدين يوسع سلطته ويرمم القلاع ويقوم بإنشاء جيش قوي[1].

كان الصدر الأعظم حينذاك نصوح باشا والي حلب سابقاً الذي لم يغفر لفخر الدين حلفه مع علي جانبولاذ. وألحّ حافظ على نصوح بإرسال حملة ضد فخر الدين مغرياً إياه بغنائم وفيرة إذ أبلغ الوزير «أن بلاد ابن معن

(١) الخالدي، تاريخ الأمير فخر الدين المعني ص ٧-٩؛ المحبي، خلاصة الأثر، الجزء الأول، ص ٥. البوريني، تراجم الأعيان، الجزء الأول، ص ٢٠٧-٢٠٩.

عامرة وأهلها متكاثرة، ويتحصل منها أموال جمة »[1].

وفي سنة ١٦١٣ تشكل تحالف ضد فخر الدين من أعدائه المحليين ووالي دمشق والحكومة في اسطنبول وأُرسل جيش قوي لقتاله كما أبحر أسطول إلى الساحل اللبناني. وحاول فخر الدين عبثاً مصالحة حافظ أحمد فأرسل لهذه الغاية وفدا إلى دمشق بين أعضائه مؤرخه أحمد الخالدي[2].

أمر فخر الدين ابنه علي بالذهاب إلى البرية حيث كان ينوي الانضمام إليه والإقامة بين البدو إلى أن تنقضي الأزمة. وبدأ الرحلة عندما أدرك أن حافظاً قد أرسل قوات لمسك الطرق. فعاد أدراجه ونزل إلى الساحل من حيث أبحر إلى أوربا. ولقد تردد كثيراً حتى وهو يهبط إلى المركب[3].

وقبل سفره اتخذ الأمير تدابير للدفاع عن البلاد وإدارتها خلال فترة غيابه. وقد اختزن في قلعتي بانياس والشقيف الذخيرة والمؤن وأوصى محافظي القلاع بعدم الاستسلام حتى ولو كان ذلك ثمناً لحريته في حال وقوعه في يد الحكومة العثمانية.

وتولى علي إمرة قلعة بانياس واعترف به كأمير بينا تولى يونس شقيق فخر الدين إدارة الشوف وأيد بإخلاص الأمير عليا « سيد الناس ».

وعقب سفر الأمير فخر الدين عين حافظ حاكماً على صيدا كما أعاد بيروت وكسروان إلى يوسف سيفا ومنح الغرب والجرد والمتن إلى الشيخ مظفر علم الدين اليمني[4].

(١) الخالدي، تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٧.
(٢) الخالدي، تاريخ ص ١٢-١٣.
(٣) الخالدي، تاريخ، ص ١٥ - ١٨.
(٤) الخالدي، تاريخ، ص ٢٠، ٣٥.
A. Ismail, Documents Diplomatiques et Consulaires, vol, 8, p 401.

ثم حاصر حافظ قلعة الشقيف بجيش من خمسين ألفاً فضلاً عن حلفائه المحليين. وتقع القلعة على قمة تلة صخرية ضيقة تنحدر بشدة أكثر من ألف قدم شرقاً إلى نهر الليطاني. ويتخذ المنحدر غرباً شكلاً حاداً إلى أن يبلغ سهلاً صغيراً تقع فيه قرية أرنون. وبدأ الحصار في تشرين الأول ١٦١٣ وطيلة ستين يوماً لم تهدأ النار نهاراً وليلاً. وكان المدافعون يردون على النار بالمثل ويقاومون بضراوة.

ولما فشل أمام قلعة الشقيف قرر حافظ تخريب بلاد الدروز. وعندما صعد العسكر ليحرقوا قرية غريفة في الشوف اجتمع جمع كبير من القرى المجاورة وكسروهم. ولكن الجموع التي احتشدت لتدمير الشوف كانت من الكثرة بحيث أن المشايخ والأعيان نصحوا الأمير يونس بإيفاد والدته إلى حافظ أحمد عند قلعة الشقيف ليصير على يدها مصلحة بلاد الشوف. وصحب والدة الأمير ثلاثون من المشايخ العقّال. ففرض حافظ دفع ثلاثمائة ألف قرش نصفها للإبقاء على الشوف والنصف الآخر مقابل رفع الحصار عن قلعة الشقيف. وكضمانة لتسديد هذا المبلغ أخذ معه إلى دمشق والدة الأمير « معظمة محبورة ». ويشير مؤرخ هذه الأحداث إلى نقطة مضيئة في هذه الصورة فيقول: « ومع ذلك كان الرخاء موجوداً. لأن الغلال في القرى كانت بلا حد ولا قياس »[1].

وفي أيلول ١٦١٤ غادر حافظ أحمد دمشق على رأس حملة جديدة ضد الدروز. ومن معسكره في البقاع الغربي أرسل قوات للانضمام إلى الشيخ مظفر في مهاجمة الشوف. وجرت المعركة في الباروك ولم تكد الشمس تغرب حتى كان جيش حافظ ورجال مظفر قد هُزموا كما انتصرت قوات المعنيين في معركة أخرى جرت عند بسري. غير أنها ما لبثت أن تفرقت

(١) الخالدي، تاريخ، ص ٢٠ - ٢٥.

في وادي التيم عندما أُرسل جيش مؤلف من ١٢ ألف مقاتل إلى الشوف. فانسحب الأمير يونس وحليفه الأمير علي شهاب إلى قلعة بانياس. فقام هذا الجيش الذي كان فيه الشيخ مظفر وابن سيفا بحرق قرى الشوف ونهبها كما دمر قصر آل معن في دير القمر. أما حافظ فسار إلى قرية نيحا لسبرغور قلعتها (تيرون)، فوجدها منيعة لاتجدي معها آلات الحصار[١].

ثم تحرك حافظ من معسكره في البقاع لمحاصرة قلعة الشقيف. وفي الطريق بلغته أنباء مقتل نصوح. وأصبح الأميرال محمد باشا الصدر الأعظم الجديد وكان فخر الدين قد أهداه هدية قيمة عندما استدعي من مصر. وعليه أمر حافظ قواته بالعودة إلى ديارها وذهب هو إلى دمشق حيث ما لبث أن استبدل بشركس محمد باشا صديق آل معن الذي أمر بإطلاق سراح والدة الأمير وأصدر عفواً عن فخر الدين.

وكان قد مرّ على وجود فخر الدين في إيطاليا سنة إذ وصل إلى ليفورنو من أعمال دولة تسكانا التي كان يحكمها الغراندوق قزما الثاني الذي دعاه للمجيء إلى فلورنسا. واستقبل قزما ضيفه بالترحاب والتكريم وأنزله في قصر فخم هو القصر العتيق. وأثار وصول فخر الدين إلى فلورنسا اهتماماً كبيراً في أوربا. وكثرت التكهنات حول الغرض من زيارته ونتائجها المحتملة على المطامع الأوربية في المشرق وفي الامبراطورية العثمانية عامة. فنشطت المطامع ذات الطبيعة الصليبية. وانتشرت حينذاك فكرة مضحكة أن الدروز أخذوا اسمهم من الكونت دي دزيه (De Dreux) الذي التجأ مع أتباعه إلى الجبال بعد هزيمة الصليبيين فاختلطوا بالسكان وهكذا وُجد الدروز. والواقع أنه عند قدوم الصليبيين إلى سورية كان قد مضى نحو قرن على وجود جماعة الدروز. ولم تقبل الجماعة بين صفوفها

(١) الخالدي، تاريخ، ص ٣٥ – ٣٨؛ Ismail, Documents, vol. 8, pp 402-403

دخلاء بعد إقفال باب الدعوة أي بعد ربع قرن من بدئها.

كان فخر الدين كريماً سمحاً مع الوافدين من الغرب إلى بلاده. وقد أساء المبشرون الأوربيون فهم تسامحه فتوهموا أنه يشاطرهم آراءهم وأهدافهم فأشاعوا أن الأمير كان مستعداً للمساعدة في حملة صليبية لانتزاع الديار المقدسة من الأتراك.

ومع أن الروح الصليبية في أوربا نشطت بعد إخراج العرب من الأندلس وتألفت في أيار سنة ١٥٧١ الرابطة المقدسة ضد الأتراك فإن العالم المسيحي لم يكن في وضع يسمح له بتحقيق الوحدة المطلوبة للقيام بمثل هذا المشروع. فالبندقية خرجت من الرابطة المقدسة بعد موقعة ليبانتو بقليل وعقدت في آذار ١٥٧٥ معاهدة مع الباب العالي. أما فرنسا فكان يسودها نزاع داخلي بعد أن اعتنق ملكها هنري الرابع المذهب البروتستانتي. واسبانيا كانت مهتمة بالفتوحات في شمالي افريقيا أكثر من القيام بمغامرات بعيدة في الشرق. وبلغت الهيمنة الاسبانية في أوربا درجة ثقيلة الوطأة حتى على البابوية. وكان البابا بصفته حاكماً زمنياً متورطاً في النزاع السياسي والعسكري حول مقاطعاته وفيما وراءها. وشغلت حرب الثلاثين سنة أوربا الغربية كلها بينما كان البحر الأبيض المتوسط مسرحاً لأعمال القرصنة التي استهلكت الحماس الذي كان في أوقات أخرى يتجه نحو حرب صليبية[١].

أما فخر الدين فكان ينظر إلى سفره إلى أوربا كما لو أنه ذهب إلى الصحراء أو أي مكان قصي آخر بعيداً عن مسرح النزاع إلى أن تخبو

(١) F. Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Vol. 2, pp 890, 1234; L. Ranke, The History of the Popes, Vol. 2, pp 46, 59-60; Fisher, Barbary Legend, War, Trade, and Piracy in North Africa 1415-1830, pp 69-75.

الأزمة وتحدث تغييرات بين الوزراء والولاة تأتي إلى السلطة بأشخاص أقل عداء أو ربما محابين له مما يؤدي إلى عقد مصالحة.

وكانت فلورنسا مكاناً ملائماً لإقامته. ومع أن آل مديشي كانت لهم مطامع في المشرق فإن دوقية تسكانا لم تكن مبعثاً للخوف كما قد يكون الأمر بالنسبة إلى دولة كبيرة. وكانت تسكانا بلداً مستقراً ومزدهراً وشكلت مع البندقية أهم دولتين تجاريتين في البحر الأبيض المتوسط.

كان فخر الدين قد عقد سنة ١٦٠٨ اتفاقاً مع الغراندوق فردينان الأول. وقبل ذلك بسنة عقد فردينان اتفاقية مع علي جانبولاذ وأصبح للفلورنسيين سوقاً في حلب. وفضلاً عن المزايا التجارية كان فخر الدين يأمل أن يحصل على السلاح لتعزيز مركزه في تعامله مع السلطات العثمانية وأعدائه المحليين مقابل منح الفلورنسيين امتيازات تجارية ومنح سفنهم حق اللجوء إلى مرافئه وبيع القمح إلى تسكانا بالرغم من الحظر السلطاني على تصدير القمح إلى أوربا. أما الروايات التي تصوّر فخر الدين كعميل لاوربا في مشروع لفتح سورية والبلاد المقدسة فلا ينبغي أخذها مأخذ الجد.

في أوائل سنة ١٦١٤ أرسل قزما الثاني أمير تسكانا بعثة إلى لبنان للاستقصاء وإعداد تقرير عن الأحوال في بلاد الأمير فخر الدين. وعادت البعثة في نيسان ومعها الشيخ يزبك العفيف من وجهاء الشوف الذي أرسله الأهلون ليعرب للأمير عن صادق ولائهم ورجائهم بأن يعود إلى بلاده. وقد أيد مبعوثو قزما ولاء الناس لأميرهم وذكروا أن البلاد عامرة بالسكان ومزدهرة. وفيما كان الأتراك يسيطرون على السواحل كان علي ابن الأمير وأخوه يونس يسيطران على الداخل. وزار مبعوثو قزما حصون بانياس

والشقيف وتيرون ووجدوها منيعة[١]. وكون قزما أرسل بعثة لاستقصاء الوضع الاقتصادي والعسكري والسياسي في لبنان يدل على مطامحه التي كانت تتجاوز التبادل التجاري. أما فخر الدين فكان يأمل من السماح لبعثة أجنبية بجرية الاستقصاء إلى حد فحص حصونه بالحصول على السلاح من تسكانا في حالة نشوب حرب مع الحكومة العثمانية. ولكن في الصراع الأخير بين الأمير والسلطنة سنة ١٦٣٣ لم يطلب ولم ترد أية مساعدة من وراء البحر.

إن معلوماتنا قليلة عن فترة إقامة فخر الدين في إيطاليا. وإذا كان قد دوّن انطباعاته فلم يصلنا منها شيء. ولاريب أن رجلاً بمثل ذكائه المتوقد وعقله المستنير قد اهتم كثيراً بكل ما شاهده كما أن إحساس فخر الدين بالجمال قد عزّزته الكنوز الفنية التي تحويها فلورنسا. وقد أعجبته الفيلات والمزارع في ريف تسكانا واتخذها نموذجاً لقصوره وحدائقه. كما تأثر بأسلوب الزراعة فيها وسعى إلى إدخال ذلك إلى بلاده واهتم كذلك بالعمل المصرفي في فلورنسا كما شاهده في مصرف مونتي دي بياتا (مصرف الرحمة).

حمل فخر الدين ذكريات حارة لحسن الضيافة التي أحاطه بها قزما والتي ردّها بالقدر الوافي عند عودته إلى بلاده. غير أن مشاعر وزراء الغراندوق تجاه الأمير لم تكن بمثل مشاعر سيدهم. وقد شعر أنهم يرغبون في رحيله. ولذا غادر فلورنسا عندما وصلته دعوة ملك اسبانيا لزيارة مقاطعاته في صقلية ونابولي. وفي صقلية يصبح أكثر قرباً من بلاده.

ومن صقلية انتقل فخر الدين إلى نابولي برفقة الدوق نائب الملك الاسباني. وهنا سعى الدوق للاستفادة من الأمير فأرسل إليه وفداً من الأعيان ليطرحوا عليه بعض الأسئلة.

(١) قرألي، الخوري بولس، فخر الدين المعني الثاني، الجزء الثاني ص ٢٠٠ - ٢٠٥.

لما سألوا الأمير كم من الناس ينضم إليهم إذا ذهبوا إلى بلاده، أجابهم أنه لايكفل أحداً، لاأخاه ولا ولده ولا أهل بلاده. ورداً على سؤالهم: إذا لم ينضموا إليهم ألا يبيعونهم ذخيرة، كان جواب الأمير قاطعاً إذ قال: أنتم تعرفون قوة دين الإسلام وقوة آل عثمان، فمن أراد أن يقهر القوتين لايتكل على شراء ذخيرة من الناس. فتكلموا فيما بينهم بلسانهم وهزوا رؤوسهم من هذا الجواب، ثم سألوه كم كان يجمع من العسكر في بلاده. فقال يوم كان المنصب عليه والحكم والحكومة في يديه كان يجمع ما يزيد عن عشرة الآف رجل غير الذين يمكثون في البلاد، وأضاف: «وأما اليوم ما لي حكم إلاّ على نفسي». فتعجبوا من جوابه وتركوا الكلام معه، ومن ذلك اليوم لم يعودوا يهتمون به كعادتهم وأبطلوا النفقة المقررة له فاضطر أن يبيع صيغه وحوائج أخرى وينفق على نفسه وعياله.

وخلال إقامته في ايطاليا كان فخر الدين يمارس الشعائر الدينية ويصوم رمضان. وكان لديه إمام يؤم الصلاة ومؤذن. وقد زاره يوماً وهو في نابولي بعض الرهبان والأعيان وقالوا له: أنتم تصلون جماعة وعملتم مئذنة. فأجابهم الأمير: هذا صحيح، نحن نصلي. فقالوا نحن لانمنعكم من صلاتكم.

وفيما بعد اجتمع الدوق بالشيخ ناصر الدين الذي كان مع فخر الدين وسلمه كتاباً من ملك اسبانيا إلى الأمير مضمونه: إن أراد الأمير فخر الدين أن يدخل في ديننا نعطيه حكماً على قدر ما كان أعطاه سلطان المسلمين في بلاده وأزيد. وإن لم يرض بذلك فله أن يبقى إذا أراد أو يعود إلى بلاده. فرد الأمير يشكر الملك ويقول: «ما جينا لهذه البلاد لاكرامة دين ولا كرامة حكم ولا حكومة». ولكنه احتمى عندهم لما جاءه عسكر لاقبل له به وهو يشكر حمايتهم ورعايتهم له. إذا أرادوا له أن يبقى عندهم فهو قاعد «بتوابعه على حاله». وإن أرادوا له السفر إلى بلاده «فهو المراد

لأن له أهل وتوابع وبلاد»(١).

وحدث أن وصلت سفينة من صيدا حاملة رسالة من والدة فخر الدين تحثه على العودة كي تراه قبل أن تموت. وعندما بعث الأمير بالرسالة إلى الدوق وافق على سفر الأمير الذي كان في شوق شديد إلى الرحيل لدرجة أنه أرسل في اليوم التالي عائلته إلى المركب ومعها تابوت ابنته الذي كان يحتفظ به داخل غرفة مختومة. ولكن الدوق كان يؤخر سفرهم. وطيلة ثمانية أيام ظلوا على ظهر المركب في جو حار وهم صائمون رمضان بينما يوالي فخر الدين طلب الإذن بالسفر. وقبل أن يصدر الدوق الإذن بسفرهم جرى الحديث التالي بينه وبين الأمير.

سأل الدوق: إلى أين يذهب الأمير. قال إلى صيدا. من حاكم صيدا؟ الجواب: ولدي. ولما سأله إن كان لايخاف من ولده وأهله وأهل بلاده، رد الأمير أنه ما فارقهم على بغض ولا على عداوة. فقال الدوق: إذا كان لايخاف منهم ألا يخاف من السلطان. أجاب الأمير أنه لايريد شيئاً من السلطان وكل ما يريد رؤية والدته وأهله. وأخيراً سأل الدوق. هل سيذهب الأمير إلى اسلامبول. أجاب: لو كان يقصد الذهاب إلى اسلامبول لما جاء إليهم. عندئذ صرّح له بالسفر(٢).

لقد ذكرنا هذه الأحاديث مفصلة بين فخر الدين ومضيفيه في ايطاليا تصحيحاً للصورة المشوهة التي رسمها للأمير الحالمون بحملة صليبية. إن فهماً صحيحاً لعلاقات فخر الدين مع أوربا ينتظر النشر الكامل مع التمحيص للوثائق المتعلقة بهذا الموضوع والموجودة في محفوظات فلورنسا ومحفوظات أوربية أخرى.

(١) الخالدي، تاريخ، ص ٢٣٤ – ٢٣٦.
(٢) الخالدي، تاريخ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨.

عاد فخر الدين إلى بلاده بعد غياب دام خمس سنوات من أيلول ١٦١٣ إلى تشرين الأول ١٦١٨. واستقبل كما يستقبل حاكم محبوب طال أمد غيابه عن رعاياه المخلصين. وخلال الخمس عشرة سنة التالية حتى نهاية عهده في سنة ١٦٣٣ شيّد فخر الدين دولة واسعة الأطراف منفتحة على العالم نَعِم شعبها بحكم عادل ومستقر تمتع الناس في ظله بثمرة جهودهم وخيّم عليهم السلام وساد الانسجام فيما بينهم.

خلال غياب فخر الدين كان ابن سيفا انضم إلى حافظ أحمد في الحملة على الشوف واشترك في أعمال حرق قراه ونهبها. فلم يبطء فخر الدين في معاقبته إذ سار في فصل الشتاء إلى شمالي لبنان، «ولم يكن ابن سيفا يعتقد أن فخر الدين يسافر في كوانين» وحاصر يوسف سيفا في معقله الجبلي عكار حيث كان قد التجأ، وفرض عليه تسوية تنازل بموجبها للأمير عن منطقة جبيل والبترون. وفي حملات تالية أكمل الأمير ضم ممتلكات يوسف سيفا الباقية جاعلاً جميع جبل لبنان تحت سيطرته ومادًّا سلطانه حتى طرابلس.

وعندما حاول يونس حرفوش أمير البقاع منع أهالي الشوف من فلاحة أراضيهم في السهل ضم فخر الدين البقاع الغربي وهرب يونس أمامه. وأدّى استيلاء الأمير على قرية قب الياس ذات الموقع الستراتيجي الهام إلى سيطرته على طريق بيروت - دمشق[1].

ومرة ثانية طلب مشايخ حوران وعجلون عون فخر الدين لاستعادة مشيخاتهم. وفي هذه المرة عمد فخر الدين، بدلاً من إرسال جيش لمحاربة سلطات دمشق من أجل إرجاعهم إلى مناصبهم، إلى الكتابة إلى اسطنبول ملتمساً إعادتهم بموجب فرمان سلطاني. وقد استجيب طلبه وتقررت مناصبهم عليهم.

(١) الخالدي، تاريخ، ص ١٣٤ - ١٣٧.

وفي سنة ١٦٢٣ صدقت الحكومة العثمانية على حكم الأمير فخر الدين على صفد ونابلس وعجلون[1]. وفي السنة نفسها التقى أعداء فخر الدين واقنعوا مصطفى باشا والي دمشق على محاربته. وقاد الوالي جيشاً مؤلفاً من اثني عشر ألف مقاتل وانضم إليه يونس حرفوش وعمر سيفا مع رجالهما فضلاً عن رجال بعض القبائل وزعمائهم.

وكان حلفاء فخر الدين الأميرين محمد وأحمد شهاب من وادي التيم. وقد سارا إلى عنجر بانتظار فخر الدين الذي لدى وصوله كانت المعركة قد بدأت بين رجال وادي التيم وعساكر الدولة. ورتّب فخر الدين قواته في أربعة أقسام. فكان معه رجال منطقتي الغرب والمتن وفريق من مرتزقة السكمان فيما قاد ابنه الأمير علي رجال الجرد وفريقاً آخر من السكمان. وكان أخوه الأمير يونس على رأس رجال الشوف بينما قاد أحد أعوان فخر الدين الموثوق بهم القسم الرابع المؤلف من الشيعة. وقد أطبقوا من جميع النواحي على قوات الوالي وحلفائه وكان النصر سريعاً وحاسماً وذلك نهار الأربعاء في ٨ محرم سنة ١٠٣٣ / أول تشرين الثاني ١٦٢٣. فقد تم أسر الوالي وفر حلفاؤه وعندها تقهقر العسكر مسرعين إلى دمشق. وكانت غنائم المعركة من الوفرة بحيث نال كل فرد نصيبه ولم يبق أحد بلا مكسب. وقد عامل فخر الدين وابنه علي مصطفى باشا بكل احترام وأُرسل في موكب إلى قب الياس. وثبّت الوالي الأمير فخر الدين في ممتلكاته وأقطعه بالإضافة منطقة غزة. ثم قفل عائداً إلى دمشق[2].

وفي سنة ١٦٢٤ اعترف فرمان سلطاني بسلطة فخر الدين الواسعة وأطلق عليه لقب سلطان البر وثبّته حاكماً على عربستان من حد حلب إلى حد القدس[3].

(١) الخالدي، تاريخ، ص ٨٧-١٤٣.
(٢) الخالدي، تاريخ، ص ١٤٦ - ١٥٦.
(٣) الخالدي، تاريخ ص ٢٤٢.

وقام فخر الدين هذه السنة بجولة تفقدية في أقاليمه فشيّد ورمم القلاع وتأكد من أن الأمور تسير على ما يريد. وتطلّع إلى خارج حدوده إلى فتوحات أخرى وربما تطلع نحو السلطنة إذ كان يقول: « السلطنة نقل تخم [وكلما] حكمنا بلاد نتقوى في رجالها وأموالها [وننقل] إلى غيرها »[١].

وخلال هذه السنة انقطع القمح من الشام وحصل الغلاء واستغاث الناس بفخر الدين. فبعث إلى حوران بطلب كميات وافية من القمح وأمر أن يباع رطل الخبز بمصريتين. وعندما قدم إلى دمشق خرج السكان كباراً وصغاراً لاستقباله داعين له بالنصر وطول البقاء[٢].

لقد أنشأ فخر الدين جيشاً قوياً ومنضبطاً وكان يتألف في معظمه من فلاحي الجبل الذين كانوا عموده الفقري. واستأجر جنوداً من السكمان ليبقى في البلاد وقت الحرب عدد كاف من الفلاحين للقيام بأعمال الزراعة. أما بشأن السلاح فلدينا وثائق تعود إلى سنوات قبل حكم فخر الدين تتعلق بحصول الدروز على الأسلحة والثمن الذي دفعوه لشرائها. ففي وثائق من محفوظات الدولة العثمانية مؤرخة سنة ٩٨٥ / ١٥٧٧ إن الدروز في لبنان والجليل حصلوا على كميات وافرة من البنادق من قبرص ومن الانكشارية في دمشق وكذلك من أصحاب الإقطاعيات ومن بينهم أقارب لهم. وبلغ من اهتمام الدروز باقتناء السلاح حتى أنهم كانوا يدفعون فيه أثماناً باهظة. وكانت بنادق الدروز تفوق تلك التي تستعملها قوات الدولة جودة ومداها أبعد[٣]. وخلال حملة ابراهيم باشا على الشوف في سنة ١٥٨٥ تم جمع ثمانمائة بندقية وهذا على الأرجح جزء من السلاح في يد الدروز غير الذي أخفوه[٤].

(١) الخالدي، تاريخ ص ٢٤٤.
(٢) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٢٣٨ – ٢٣٩.
(٣) Uriel Heyd, Ottoman Documents on Palestine, pp 81, n. 3, 82, n. 2, 94, n. 4.
(٤) Hammer, Histoire de l'Empire Ottoman, vol. VII, pp 167-169.

كان الجيش أحد أعمدة الدولة. أما العامل الأهم في أمنها واستقرارها فكان حكم الأمير المستنير.

كان التسامح الديني أبرز صفات فخر الدين وعهده. وكان الموارنة أكثر المستفيدين من تسامحه. فلم يتمتعوا فقط بحرية تامة في ممارسة عقيدتهم بل منحهم فخر الدين أيضاً امتيازات كانت حتى ذلك الحين وقفاً على المسلمين وبينها الانخراط في الجيش. ولقد لجأوا إلى بلاده فراراً من ظلم آل سيفا في شمالي لبنان. واعتبر النصارى فخر الدين حامياً لهم. وفي خلال حكمه بدأوا يهاجرون بأعداد كبيرة إلى جنوبي جبل لبنان[١].

ولم يكن تسامحه عن عدم مبالاة دينية بدليل أنه بنى على نفقته الخاصة المساجد وكان يحضر الصلاة في الأعياد الإسلامية كما كان في بلاطه علماء. وغالباً ما ساهم في تكاليف الحج إلى بيت الله الحرام واشترط مرة أن يكون أحد أولاده أمير الحج[٢].

وكان فخر الدين يتولى بنفسه زمام الحكم « يباشر تدبير مملكته بنفسه ويضبط أموالها ويتقن أمورها بقوة حدسه، قوي العزم، شديد الحزم، حسن التدبير »[٣]. وفي الحالات الخطيرة كان يستشير أعيان البلاد. وكانت والدته أقرب مستشاريه إليه وكان يكنّ لها احتراماً كبيراً ويقف على رأيها قبل الإقدام على أي عمل خطير.

وتميز حكمه بالعدالة ومثال على ذلك تقدير الضرائب التي كانت تفرض بإنصاف على سائر الجماعات وتجبى في أوقات معينة وبحسب مقدرة

(١) Ismail, Le Liban au Temps de Fkhr-ed-Din II, 15900-1633, P 65.
(٢) الخالدي، تاريخ، ص ٨٧، ١٩٨.
(٣) الخالدي، تاريخ، ص ٤.

الناس على الدفع. وكانت تحفظ قيود إحصائية للسكان وللماشية والأشجار المثمرة[١].

وتوطدت في عهد فخر الدين ركائز الأمن وكانت حملاته على المغيرين للسلب والنهب مثار ثناء من جانب الحكومة العثمانية. ويتضمن قرار صادر في ١١ شوال ١٠١٣ / ٢ آذار ١٦٠٥ تقديراً لتصرف فخر الدين، سنجق بك صفد، ويوصيه بمواصلة جهوده للحفاظ على البلاد وتأديب البدو وتوفير الخير والطمأنينة للأهلين وتنشيط الزراعة وتنمية الازدهار[٢].

إن حملات فخر الدين ضد البدو كانت أيضاً مبرراً لتوسيع نطاق دولته. وللحفاظ على الأمن وتعزيز التجارة عمد فخر الدين إلى بناء الحصون على الطرق الرئيسية وحشد الحاميات العسكرية فيها. كما بنيت الخانات لنزول المسافرين والتجار مع بضائعهم. وفي أوائل سنة ١٦٣١ أرسل غراندوق تسكانا بعثة تجارية وصلت بينما كان فخر الدين في البقاع يشرف على بناء حصن في القاع قرب بعلبك حيث تمر القوافل القادمة من بلاد العجم إلى حلب ودمشق ومن القاهرة إلى حلب واسطنبول. وهنا كان البدو يترصدون القوافل لسلبها أحمالها. وكان الأمير يبني حظيرة كبيرة للجمال يحيط بها سور عال وخاناً لإيواء التجار ومسجداً وحصناً لحماية الطرق من سطو البدو. وحفرت قناة لجر الماء من مكان بعيد[٣].

وفي مناسبة أخرى وجد ڤراتسانو رئيس البعثة فخر الدين يضع حجر الأساس لجسر على نهر الأوّلي قرب صيدا. وقد بنى للأمير مهندسون من

(١) Puget de Saint Pierre Histoire des Druzes, pp 28-29.

(٢) Heyd, Ottoman Documents on Palestine, p 53.

(٣) قرأ لي، فخر الدين المعني الثاني، الجزء الثاني، ص ٢٩٧-٢٩٩.

تسكانا جسوراً في صيدا وبيروت وعلى نهر الكلب[١].

وكان فخر الدين يرى في أساليب الزراعة المتبعة في تسكانا مثالاً من المستحسن الاقتداء به. وقد سعى إلى تحسين نسل الماشية بتهجينها مع سلالة ماشية تسكانا الممتازة كما طلب مجيء بستاني ومهندس ري وست أو ثماني أسر من الفلاحين المهرة للقيام بأعمال الزراعة كما تزاولها في تسكانا. ورغب أن تجلب كل أسرة معها معداتها الزراعية وزوج أو زوجين من أجود أنواع الأبقار وكلّف الأمير وكيله بدفع ثمنها. ومن الترتيبات المتخذة لقدوم هؤلاء الفلاحين توفير المنازل لسكنهم وعائلاتهم وترتيب القسس للقيام بخدمتهم الدينية. ومتى رغبوا في العودة إلى بلادهم أعادهم الأمير على نفقته[٢].

لقد كانت الزراعة المصدر الرئيسي لثروة البلاد. وكثرت في السهل الساحلي البساتين والحدائق الممتلئة بمختلف أنواع الأشجار المثمرة. وكان وادي البقاع المشهور منذ القدم بخصوبة أرضه مصدراً للغلال. أما المنطقة الجبلية فقد حوّلها العمل الدؤوب والتعلق بالأرض إلى تربة معطاء. وكان القطن من بين محاصيلها. أما مفخرة محاصيلها فكان الحرير الذي تنتجه دودة القز التي تتغذى بورق شجر التوت. وقد أمر فخر الدين بزرع عشرات الألوف من أشجار التوت في الجبل والسهول الساحلية كما اهتم كثيراً بزراعة أشجار الزيتون. وكانت أشجار التوت والزيتون ودوالي العنب الركائز الرئيسية للزراعة في الجبل.

ونشطت التجارة وكان الأمن السائد ضماناً ضد مخاطر اللصوصية وقطع

(١) قرأ لي، فخر الدين المعني الثاني، الجزء الثاني، ص ٣١٩-٣٢٠.
H. Maundrell, A Journey from Aleppo to Jerusalem 1697, p 36.

(٢) قرأ لي، فخر الدين المعني الثاني، الجزء الثاني، ص ٥٢.

الطرق كما أن عدل الأمير منع وقوع تجاوزات من قبل الموظفين. وكانت سياسة فخر الدين المستنيرة نقيضاً لمسلك ابن سيفا. ففي سنة ١٦٢٢ استولى حاكم طرابلس على غليونين (مركبين) فرنسيين وقتل بحارتها. فغادر التجار الفرنسيون والبنادقة طرابلس. وعندما أصبحت طرابلس في سنة ١٦٢٧ تحت حكم فخر الدين انتعشت التجارة واستأنفت المدينة مركزها كميناء لحلب[١].

وكانت السلع المتداولة متنوعة، منها ما كان ينتج محلياً ومنها ما كانت تحمله القوافل من دمشق إلى صيدا أو من حلب إلى طرابلس ومنها إلى صيدا. وكان الحرير والقطن أهم المنتوجات المحلية كما كان ينتج الصابون بكميات وافرة. وقد تضمنت هدية فخر الدين إلى الصدر الأعظم سنة ١٦١٢ حمولة ثلاثة مراكب من الصابون[٢]. وكان القطن يصدّر زغباً وخيوطاً. أما الحرير فكثر الطلب عليه من جانب معامل فلورنسا وليون. وكان الحرير الذي تنتجه بلاد الدروز أفخر من حرير فارس والهند[٣]. وبين الصادرات المهمة الأخرى الزيت والزبيب ورماد عكا الذي كان ينتج من عشبة برية تحصد في فصل معين وتكوّم في حفر كبيرة ثم تحرق ويحوّل الرماد إلى حجارة من أحجام مختلفة تستخدم في صناعة الصابون والزجاج النقي.

وكانت صيدا مركز التجارة الرئيسي في شرق البحر الأبيض المتوسط. أما المراكز الأخرى فكانت بيروت وطرابلس وعكا. وكان القسم الأكبر من التجارة في أيدي الفرنسيين الذين كان لهم قنصل مقيم في

(١) الخالدي، تاريخ، ص ١٢٨.
(٢) الخالدي، تاريخ. ص ٨.
(٣) Ismail, Documents Diplomatiques, vol. I, p 27; Puget de Saint Pierre, Histoire des Druzes, p 194.

صيدا. وكان يجري نقل تجارة تسكانا وغيرها من البلدان الأوروبية تحت العلم الفرنسي. ولم تعين فلورنسا قنصلاً لها في صيدا إلا في سنة ١٦٣٠ غير أن إقامته كانت قصيرة ولم يخلفه قنصل آخر.

وبنى فخر الدين في صيدا خاناً كبيراً للتجّار وغيرهم من الأوربيين. وتضمن الدور الأرضي القائم حول ساحة واسعة غرفاً لخزن السلع. ويعلوه رواق مسقوف يفتح على غرف إقامة النزلاء. وكان في الساحة حوض ماء كبير جرّت إليه المياه في قناة كانت أيضاً تمون بالماء بنايات أخرى كثيرة في المدينة[١].

لقد كان فخر الدين بنّاء عظيماً. فقد شيّد القلاع من أقصى البلاد إلى أقصاها، من قرب حلب إلى صلخد في حوران ومن تدمر إلى انطاكية. وبنى خانات لنزول المسافرين عبر الطرق البرية وخاناً للتجار القادمين بطريق البحر. ويعكس جمال قصوره وروعتها ما كان يتمتع به من ذوق رفيع. وكان قصره في صيدا عندما شاهده دارفييه في سنة ١٦٥٨ مقراً للحكومة والوالي التركي. وكان البناء، وكله مبني من الحجارة المنحوتة، يغطي مساحة واسعة، وهو مصمم حسب الطراز الشرقي التقليدي يحيط بفسحة مكشوفة تظللها الأشجار وتزينها فسقية في الوسط. وكانت سقوف أجنحة الدور الأرضي مقنطرة. وتفتح على الفسحة قاعة واسعة تطل نوافذها الخلفية على حديقة زهور وأشجار مثمرة. وهذه القاعة كانت الديوان وفيها مقعد من الحجارة المنحوتة على طول جوانبها الثلاثة ومغطّى بالسجاد الفاخر مع مساند. كما زيّنت أجنحة الدور العلوي بزخارف هندسية وكتابات زخرفية وآيات من القرآن الكريم بأحرف من ذهب. ويحيط بهذا الدور شرفات تطل على الريف والبحر[٢].

(١) D'Arvieux, Mémoires du Chevalier d'Arvieux, vol, I, pp 312-321
(٢) D'Arvieux, Mémoires vol. 1, p 303-309.

أما قصر فخر الدين في بيروت فقد دمره الأتراك حقدا على الأمير إذ كان معظمه خراباً في سنة ١٦٩٧ حينما مر ببيروت الرحالة الانكليزي موندريل. ومع ذلك فقد كان مثيراً للإعجاب وكانت حدائقه واسطبلاته وساحات (أفنية) الخيول وعرين الأسود والوحوش الأخرى على حد تعبير موندريل « جـديرة بمقام أمير من العالم المسيحي ». وفي المدخل سبيل للماء من المرمر رائع الجمال. وفي الجانب الشرقي من الحديقة قامت مصطبتان الواحدة فوق الأخرى تظللها أشجار البرتقال وتؤديان إلى اكشاك ومنازل صيفية وأجنحة أنيقة وممتعة. وفي حديقة أخرى كان يوجد عدة قواعد للتماثيل. وفي طرف من الحديقة ارتفع برج المراقبة. أما أجمل المناظر جميعاً فكانت حديقة أشجار البرتقال وهي عبارة عن أرض واسعة مربعة الزوايا ومقسمة إلى ستة عشر مربّعاً أربعة في كل صف تتخللها ممرات. ويحيط بكل مربع حجارة نحتت فيها أقنية لمرور المياه إلى سائر أرجاء الحديقة. وتظلل الممرات أشجار برتقال ضخمة ومتناسقة رتّبت باتقان لامزيد عليه[١].

وذوق فخر الدين في تجميل البيئة امتد إلى رعاياه الذين قلّدوه وتعهدوا بعناية زراعة تربة خصبة ووافرة الإنتاج. وكانت بيروت إذ ذاك مدينـة جميلة وكان يمكن للمرء بعد ذلك بسنين من مشاهدة صفوف طويلة من أشجار البرتقال والليمون تسيّج حدائق الزهور حول منازل السكان[٢].

ونظراً لسعة اهتمامات فخر الدين ولذكائه الفذ وعقله المنفتح فمن المعقول الافتراض بأن الأمير كان يجد متعة في قراءة الكتب وأنه اقتنى مجموعة منها. ومما يدل على اقتنائه الكتب ما ورد في مخطوطة محفوظة في

(١) Maundrell, Journey, pp 39-41.

(٢) D'Arvieux, Mémoires, Vol, 2, p 337.

الفاتيكان كانت تخص الأمير والتي أمر بتجديدها في سنة ١٠٠٨ / ١٥٩٩. وقد كتب الفنان، الذي قام بهذا العمل، في الصفحة الأولى ضمن إطار جميل، العبارة التالية بأحرف من ذهب: « أمر بتجديد هذا الديوان فخر الأمراء المعتبرين الأمير فخر الدين بن قرقماس بن معن ليكون في خزائنه عمّرها الله ببقايه، خدمة الفقير محيي الدين النقاش ». كما كتب التاريخ في بيت شعر[١]. وهذه المخطوطة هي ديوان الشاعر الغنائي بهاء الدين زهير الذي عاش في مصر في العصر الأيوبي.

يقول المحبي الذي عاش في القرن السابع عشر أن شهرة فخر الدين بلغت الآفاق حتى قصده الشعراء من كل ناحية ومدحوه. وقد شاهد المحبي مدائحه في كتاب يبلغ مائة ورقة وأكثرها قصائد مطوّلة[٢].

كذلك أثارت شهرة الأمير اهتمام الدولة العثمانية العدائي. وكلما عظمت قوته ازدادت شكوك العثمانيين ومخاوفهم من فخر الدين. فقد شيد من الحصون ما لايقل عن ثلاثين حصناً في مختلف أنحاء البلاد، كان اثنان منها: القلعة قرب حلب والقلعة المشرفة على انطاكية مدعاة تخوّف خاص. وبلغ من القوة « مبلغاً لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة »[٣]. وكان قد أعطى دليلاً على استقلاله حين منع الجيش العثماني العائد من حرب العجم سنة ١٦٣٢ من قضاء فصل الشتاء في أراضيه[٤].

تولى العرش العثماني في هذه الأثناء سلطان نشيط بعد سلسلة من السلاطين الضعفاء. فأنعش مراد الرابع النشاط العسكري لامبراطوريته وأعد حملة على بغداد التي كانت قد وقعت تحت سيطرة الشاه عباس

(١) قـرألي: فخر الدين المعني الثاني، الجزء الثاني ص ٢١-٢٢.

(٢) المحبي، خلاصة الأثر، الجزء الثاني، ص ٢٩ - ٣٠، والجزء الثالث، ص ٢٦٧.

(٣) المحبي، خلاصة الأثر، الجزء الأول، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٤) Hammer, Histoire de l'Empire Ottoman, vol 9, p 223

الصفوي سنة ١٦٢٣. وكان فخر الدين قد أقام صلات مع الصفويين لموازنة نفوذ العثمانيين، كما فعل السلاطين المماليك قبل قرن من الزمن. وفيما كان مراد يستعد لحملته إلى الشرق قرر إزالة الأمير المعني الذي كان يمثل تهديداً وراء الجيش العثماني. فكان أن أرسل قوة ضخمة براً وبحراً لاخضاع فخر الدين أدّت إلى إنهاء حكمه.

إن فخر الدين المعنى الثاني هو بطل لبنان دون منازع. ويجل اللبنانيون على اختلاف انتماءاتهم المذهبية والسياسية ذكراه. فبعضهم يعتبره أبا للاستقلال والوطنية اللبنانية. ويرى فيه دعاة الوحدة العربية رائد القومية العربية والمدافع عن العروبة ضد الأتراك. على أن اضفاء مطامح وانجازات قومية سواء لبنانية أم عربية على فخر الدين فيه مفارقة تاريخية ذلك أن القومية هي ابنة القرن التاسع عشر وولدت في أوربا بعد قرنين من عهد المعني الكبير. أما إنجاز فخر الدين البارز فكان توحيد جبل لبنان للمرة الأولى في تاريخه ورغبته الملحة وجهوده لصهر مختلف عناصر السكان في مجتمع يسوده الوئام.

ولقد أقام فخر الدين بشجاعته الشخصية ودهائه دولة واسعة الأرجاء سكانها عرب وعمودها الفقري جبل لبنان وخاصة قطاعاه الأوسط والجنوبي. غير أنها كانت امارة معنية وكان جبل الشوف، نواة الدولة، يعرف بجبل معن. وان القول بأن فخر الدين أنشأ أمارة شخصية لا يقلل في شيء من عظمته. فإن طموحه الشخصي بخلاف مطامع معاصريه كان يصحبه اهتمام حقيقي فيما يعود بالخير على رعاياه. ووازن سلطتَه عدلُه ونزعة الخير فيه.

وفي عصر فقد منذ مدة طويلة الاتصال بالتجديد والإبداع وفي مجتمع ضاق أفقه وانحصرت خبرته وتطلعاته كان فخر الدين واسع الأفق عالي الهمة. فقبل محمد علي بقرنين اعترف بتقدم أوربا وأدرك الحاجة للتعلم من الغرب.

الفصل الخامس عشر

الدروز من سنة ١٦٣٣ إلى سنة ١٨٤٠

بلغت قوة الدروز وازدهارهم الذروة في عهد الأمير فخر الدين الثاني. أما في القرنين اللذين أعقبا ذلك فقد أخذ هذا النفوذ في التقلص والازدهار في الهبوط.

وتولى اثنان من عائلة فخر الدين هما ملحم ابن أخيه وأحمد بن ملحم الحكم، باستثناء فترات قصيرة، خلال الثلثين الأخيرين من القرن السابع عشر.

بعد رحيل فخر الدين عينت السلطات العثمانية علي علم الدين من التنوخيين اليمنيين أميراً على الجبل. فنهب ودمّر ممتلكات المعنيين القيسيين وأتباعهم. وقتل الأمراء البحتريين في دورهم في عبيه. وهكذا انقرضت هذه الأسرة العريقة.

والقيسيون واليمنيون حزبان يعودان في الأصل إلى انقسام القبائل العربية إلى عرب الشمال وعرب الجنوب وكانا يعرفان بعدنان وقحطان. ولم يكن بين الفريقين في الجاهلية تميز حاد. كما لم يكن بينهما تنافس على أساس هذا الانقسام. وقد ظهر التنافس في أوائل عهد الأمويين بين قبيلة كلب الجنوبية، التي كانت تربطها صلة قرابة بالمصاهرة مع الأمويين، وبين قبيلة قيس الشمالية التي كانت تغار منها. وفي الحرب الأهلية التي

نشبت بعد موت الخليفة الثاني يزيد بن معاوية اقتتلت قيس وكلب متحازة كل منها إلى أحد المطالبين بالخلافة وهما عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم الأموي. وقد انتصر الأمويون في معركة مرج راهط جنوب دمشق غير أن العداوة بين قيس ويمن هزت الأسس التي ارتكزت عليها سلطة الأمويين[١].

وحملت القبائل تنافسها إلى الأقاليم من خراسان في الشرق إلى الأندلس في الغرب. وكان هذا التنافس ينفجر عداء في أوقات وأماكن مختلفة منها بلاد الدروز في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وكان البحتريون قيسيين في حين كان أقاربهم آل علم الدين يمنيين. ولما تولى المعنيون السلطة أيدهم البحتريون. ومع أن الحزبية القيسية – اليمنية عربية في الأصل فلم تنحصر في المجتمعات العربية. فكان آل سيفا الأكراد في عكار وأتباعهم ينتمون إلى اليمنية. وفي سنة ١٥٨٥ تآمروا مع ابن الفريخ الزعيم اليمني في البقاع ضد الأمير قرقماز المعني واتهموه والدروز بنهب القافلة التي كانت تحمل الإتاوة المرسلة إلى اسطنبول.

وعندما زحف حافظ أحمد سنة ١٦١٣ على الدروز انضم إليه الشيخ مظفر علم الدين وقام مع ابن سيفا بحرق مقر المعنيين في دير القمر ونهب الشوف. وفي سنة ١٦١٦ أثناء غياب فخر الدين في أوربا دحر الأمير علي وعمه الأمير يونس تحالفاً يمنياً في الناعمة الواقعة على الطريق الساحلي إلى صيدا. وفي ذلك اليوم انتصر المعنيون في ثلاث معارك أخرى جرت في قرى من الجبل: عبيه في الغرب وأغميد في الشوف وعين داره في الجرد[٢].

(١) Wellhausen, The Arab Kingdom and its Fall, pp 180-182; W.R. Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, pp 8, 74.

(٢) الخالدي، تاريخ، ص ٥١ – ٥٢.

ولما عاد فخر الدين صفح عن الشيخ مظفر الذي كان يقيم في قرية في أراضي آل سيفا وأعاده إلى أملاكه في مقاطعة الجرد. وقاتل مظفر ورجاله تحت راية فخر الدين في معركة عنجر سنة ١٦٢٣[١].

وخلال ما تبقى من عهد فخر الدين ظلت هذه الحزبية منضبطة وإن كان للقيسيين المركز الأقوى. وبعد إزالة فخر الدين أيد العثمانيون اليمنية وعينوا زعيمها حاكماً. ولكن في سنة ١٦٣٥ أي بعد سنتين حشد الأمير ملحم القيسية وأطاح بعلي علم الدين. فاتهم والي دمشق الأمير فخر الدين الذي كان يعيش مكرماً في الأسر في اسطنبول بإثارة الاضطرابات. فقتل الأمير واثنان من أبنائه. وعاش من بعده ابنه الأصغر حسين الذين تقلد منصباً عالياً في الامبراطورية العثمانية[٢].

وسالم الأمير ملحم ولاة دمشق طيلة عشرين عاماً ولم يتعكر صفو السلم سوى مرة واحدة عندما سار الوالي إبشر باشا لمقاتلة الدروز سنة ١٦٥٠ بتحريض من علي علم الدين ولكن ملحم هزمه في وادي القرن عند المدخل الشرقي لسهل البقاع[٣].

وفي سنة ١٦٦٠ أي بعد سنة من وفاة ملحم تشكلت مقاطعة جديدة قاعدتها صيدا من الأقاليم الساحلية لولاية دمشق وذلك من أجل مراقبة أشد على جبال الدروز.

زار لبنان أثناء حكم الأمير ملحم سائح فرنسي أعجب بالأمير وأضفى عليه صفات حاكم مثالي. يقول بيجيه دي سان بيير أن الأمير ملحم حكيم ومطبوع على حب الخير وهو حاكم عادل يشرف بنفسه على القضاء فينصف

(١) الخالدي، تاريخ، ص ٧٥ – ٨٨.

(٢) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٣٣٧.

(٣) المحبي، خلاصة الأثر، الجزء الرابع، ص ٤٠٨–٤٠٩.

الجميع، إن الغني والفقير سواسية أمامه. ونوابه في مزاولتهم أعمال القضاء أبعد ما يكونون عن الفساد والرشوة. وهو إداري قدير يعاونه رجال مشهود لهم بالمقدرة والاستقامة. وهو يعترف بالجدارة ويشجعها ويكافىء صاحب الفضيلة ويعاقب مرتكب الرذيلة. وقصره مشرع أمام جميع رعاياه ويمكن لأي واحد منهم الوصول إليه. البلاد مزدهرة والفضل في غناها يعود لحكومة رشيدة وشعب مجتهد. ولاحظ المؤلف الوئام الذي يسود سكانها الذين يعيشون كشعب واحد(1).

في أيام أحمد بن ملحم عادت الخلافات بين قيس ويمن ثانية إلى الظهور. وقد أحرز الأمير أحمد نصراً كبيراً على اليمنية سنة ١٦٦٦ في واقعة الغلغول عند برج بيروت فقتل مقدمهم ابن الصواف وهرب أمراء آل علم الدين إلى دمشق. وبهذا النصر ضعف كثيراً مركز اليمنية(2).

وفي منتصف القرن السابع عشر جاء الشفاليه دارفييه، الذي أصبح فيما بعد قنصلاً لفرنسا في حلب، وأقام عدة سنوات في صيدا عند قريب له كان قنصلاً فيها. وتحدث دارفييه عن ازدهار التجارة ووفرة الطعام ورخص الأسعار(3). وكانت صيدا المرفأ الرئيسي لتجارة الصادر والوارد. وكان للتجار المقيمين فيها وكلاء في بيروت وطرابلس وعكا والرامه. وكان فيها ثلاثة خانات رحبة لإقامة التجار من أجانب ومحليين. واحتل الفرنسيون المركز الأول بين الأوربيين في التجارة مع المشرق. وكان للبيوت التجارية في مرسيليا وليون مندوبون يقيمون في صيدا ولبعضهم وكلاء في بيروت. وكانت التجارة مربحة إلى درجة أن هؤلاء المندوبين

(1) Puget de Saint Pierre, Histoire des Druzes, PP 102, 127-160.

(2) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٣٤٣.

(3) D'Arvieux, Mémoires, Vol. 1, p 331, Vol. 2, p 355.

كانوا يتقاعدون بعد سنوات قليلة جامعين ثروات طائلة. ومارس دارفييه نفسه التجارة وجنى أرباحاً وافرة. وأرسلت شعوب أوربية أخرى كالإنكليز والهولنديين والبنادقة سفناً إلى صيدا ولكن لم يكن لهم فيها قناصل أو مندوبون(1).

ونشط التبادل التجاري بين دمشق والمدن الساحلية: بيروت وصيدا وطرابلس، وكانت القوافل تحمل إلى هذه المدن منتوجات دمشق وإلى دمشق السلع الواردة من وراء البحار. وكانت دمشق تصدّر القطن خيوطاً ونسيجاً وأقمشة الحرير الرائعة التي اشتهرت دمشق بصنعها. وساعدت سلامة الطرق في نمو النشاط التجاري. وكانت الرحلة بين دمشق وصيدا تستغرق يومين ونصف اليوم على طريق آمنة تمر بريف جميل، كما ذكر دارفييه الذي قام بهذه الرحلة في سنة ١٦٥٩. ونظراً للأمن السائد فكان يمكن للإنسان أن يسافر بمفرده في أي وقت شاء دون أن يضطر للإنضمام إلى قافلة.

وبقي الحرير والقطن كما في أيام فخر الدين أهم المنتوجات المحلية والصادرات الرئيسية. وكان زغب القطن يباع في الصيف فور جمعه. أما الغزل فيتم في الشتاء حين يتوفر للنساء الوقت لغزل القطن إذ يكنّ في الصيف منهمكات في العمل في الحقول. وكان سوق القطن يقام في صيدا يومي الاثنين والثلاثاء في كل أسبوع من أمام الخان الكبير عبر المدينة إلى البحر(2).

وكان دود القز يربّى في الجبل من كسروان إلى الشوف وعلى امتداد

(1) D'Arvieux, Mémoires, Vol. 1, pp 331, 464, Vol. 2, p 355, Vol. 3, pp 341-345.

(2) D'Arvieux, Mémoires, Vol. 1, p 323.

الساحل. ويتنوّع الحرير حسب المناطق التي ينتج فيها. فبعضه رفيع ولمّاع وبعضه أكثر متانة. وأجمل الحرير كان يدعى «الشوفي» نسبة إلى الشوف حيث كان ينتج[١].

وقبل نهاية القرن هبطت صادرات الحرير إلى فرنسا إذ نمت في فرنسا زراعة شجرة التوت وبات الإنتاج الفرنسي من الحرير أقل كلفة من الحرير المشترى في صيدا أو بيروت. على أنه كان للحرير اللبناني سوق واسعة في دمشق وحلب والقاهرة حيث كانت توجد مصانع عدة للنسيج. وقد استمر تصدير كميات كبيرة من غزل القطن إلى فرنسا إذ كان الغزل الذي يصنع في فرنسا من الزغب المستورد أقل جودة من الخيوط التي تغزل محلياً والتي كانت «غايةً في البياض والنعومة واللين»[٢].

ولما كان الحرير مصدر دخل هام للفلاحين فقد كانت مساحات كبيرة من الأرض المزروعة مخصصة لزراعة أشجار التوت. ولم يماثل انتشار شجرة التوت سوى شجرة الزيتون والكرمة. وكانت التلال المنخفضة والسهل الساحلي مغطاة ببساتين الأشجار المثمرة، وقد أبهج منظرها السائحين في القرنين السابع عشر والثامن عشر اللذين وصفوا البساتين الخصبة الممتدة على مسافات واسعة ومختلف أنواع الأشجار ووفرة ثمرها. وكان هناك بعض الزراعة التي تعتمد على الأمطار في الجبل والسهل الساحلي على أن ما ينتج من القمح لم يكن يكفي سوى جزء من الحاجة المحلية.

كان الأمير أحمد آخر الحكام المعنيين وقد توفي سنة ١٦٩٧ دون عاقبة. فاجتمع العقّال ووجهاء الجبل في السمقانية الواقعة في قلب بلاد الدروز لاختيار أمير. واختاروا الأمير بشير شهاب ابن شقيقة آخر حاكم

(١) Ismail, Documents Diplomatiques, Vol. 1, p 16; D'Arvieux, Vol. 1, p 335.

(٢) Ismail, Documents Diplomatiques, Vol. 1, pp. 21-27.

معني. وكان الشهابيون أمراء وادي التيم قدموا إليه في القرن الثاني عشر من حوران حيث كانوا مقيمين منذ الفتح العربي. ولم تقر الحكومة العثمانية هذا الاختيار بل أيدت الأمير حيدر شهاب ابن ابنة أحمد المعني. وكان هذا التأييد لحفيد الأمير أحمد بدافع من الأمير حسين المعني أصغر أبناء الأمير فخر الدين والذي تولى الرتب السامية في الدولة العثمانية وكانت عرضت عليه الوزارة فأباها. ومن المناصب التي تولاها السفارة إلى الهند. وكان الأمير حسين بن معن توقف في لبنان وهو في طريقه إلى الهند فاستقبله الأمير أحمد حاكم البلاد وأقاربه الأمراء الشهابيون ودعوه إلى العودة وتولي إمارة الجبل. فرفض هذا العرض مؤثراً البقاء في اسطنبول[١]. أما بشأن حاكم لبنان الجديد فقد تم الاتفاق على أن يتولى الأمير حيدر شهاب هذا المنصب وأن يستمر الأمير بشير وصياً إلى أن يبلغ حيدر سن الرشد.

والشهابيون مدينون في حكم الجبل إلى قرابتهم للمعنيين ولاختيار أعيان البلاد لهم الذين كانوا في ذلك الوقت في غالبيتهم الكبرى من الدروز. وحتى نهاية حكمهم في سنة ١٨٤٢ كان الأمير الشهابي يحمل لقب أمير الدروز.

وخلف حيدر بشيراً سنة ١٧٠٧ وما فتىء أن ووجه بثورة قادها أمراء آل علم الدين اليمنيون ومستشارهم محمود أبو هرموش. وبقي الأمير حيدر طيلة عامين مختبئاً في جبل الهرمل. وفي غضون ذلك كان القيسيون يجمعون قواتهم ويستعدون لإعادته إلى الامارة. فجاء حيدر إلى قرية رأس المتن وأقام مع أحد كبار أنصاره المقدم حسين أبو اللمع. وهنا تجمع زعماء القيسية وأتباعهم. وحشدت اليمنية قواتها في عين داره واستغاثوا بوالي

(١) المرادي، سلك الدرر، الجزء الثاني، ص ٥٩ - ٦٠.

صيدا الذي حضر بعسكره إلى حرش بيروت وبوالي الشام الذي قدم بعسكره إلى قب الياس في البقاع، وجرى الاتفاق أن تطبق هذه القوات مع يمنية عين داره على القيسية المحتشدين في رأس المتن من جميع الجهات. وقبل أن يطوقهم خصومهم شن القيسيون هجوماً كاسحاً على عين داره فحطموا القوات اليمنية وقتلوا منهم عدداً كبيراً بينهم أمراء آل علم الدين. ولما رأى باشا صيدا وباشا دمشق أن كل شيء قد انتهى عاد كل منهما إلى مقر حكمه[١].

وكان لمعركة عين داره عواقب بعيدة المدى، فقد قضت على اليمنية كقوة سياسية في لبنان وأدت إلى هجرة عدد كبير من الدروز اليمنية إلى حوران حيث وضعوا أساس مجتمع ما لبث أن نما سريعاً في العدد والعدّة حتى أصبح قوة تحسب حسابها قبائل البدو المجاورة وحكومة دمشق. وقد أنقصت الهجرة إلى حوران حجم المجتمع الدرزي في لبنان وحل مكان المهاجرين الموارنة النازحون من شمالي لبنان فازدادت بذلك نسبتهم العددية في بلاد الدروز. على أن سيطرة الدروز السياسية بقيت. أنهم لم يربحوا فقط المعركة للأمير الشهابي بل كانوا أيضاً ملاّك الأرض. وكانت ملكية الأرض قاعدة صلبة للقوة السياسية. واستمروا طيلة المئة سنة التالية المصدر الرئيسي لقوات الحكام[٢].

وبعد معركة عين داره كافأ الأمير حيدر العائلات المتزعمة التي أعاده انتصارها إلى امارة لبنان فعينهم مقاطعجية على المقاطعات التي كان فيها مقرهم. فرقّي مقدمو المتن آل أبو اللمع إلى رتبة أمير. وأضيفت مقاطعة

(١) الأمير حيدر الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، الجزء الأول، ص ١٢ – ١٤؛ الراهب حنانيا المنيّر، الدر المرصوف في تاريخ الشوف، مجلة المشرق، المجلد ٤٨ إلى ٥١.

(٢) D. Chevallier, La Société du Mont Liban à l'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe, pp 17, 34.

جزين إلى الشيخ قبلان القاضي الذي كانت أراضيه وكذلك مركز سلطته في الشوف. وفيما بعد وسّع آل جنبلاط الذين خلفوا الشيخ قبلان اقطاعياتهم حتى شملت القسم الأكبر من جنوبي لبنان. أما الأمراء الأرسلانيون الذين زُعم أنهم انحازوا إلى اليمنية فقد نزعت منهم مقاطعة الغرب الأعلى وأعطيت إلى آل تلحوق، واحتفظ الأرسلانيون بمنطقة الغرب الأدنى مع بلدة الشويفات. وكانت اقطاعيات آل نكد وآل عماد وآل عبد الملك مناطق المناصف والعرقوب والجرد على التوالي. واحتفظ الأمير لنفسه بعدة قرى هي دير القمر وعين داره وبتلون ونيحا وعماطور وكانت تدفع إليه مباشرةً الضرائب المفروضة عليها وليس بواسطة أصحاب الإقطاع.

توفي الأمير حيدر سنة ١٧٣٢ فخلفه ابنه ملحم الذي تخلى عن الامارة سنة ١٧٥٤ لأخويه منصور وأحمد وقد حكما معاً حتى سنة ١٧٦٣ حينما حاول كل منهما الانفراد بالحكم. وفي النزاع بين الأخوين توزع تأييد الزعماء الدروز على الجانبين. وإذ ذوت الحزبية القيسية – اليمنية بعد معركة عين داره برزت حزبية جديدة هي الجنبلاطية – اليزبكية نسبة إلى الشيخ علي جنبلاط والشيخ عبد السلام يزبك العماد. وبينما أيد الشيخ علي الأمير منصور انحاز الشيخ يزبك إلى الأمير أحمد. فاستنجد منصور بوالي صيدا الذي وصل بالعساكر إلى بيروت استعداداً لمساعدته. فهرب أحمد من دير القمر وعاد منصور إليها. وهذا المثال لأمراء شهابيين يتنازعون الامارة وأحزاب تجر إلى ساحة الصراع وغالباً ما تحرض المتنافسين ووالٍ يتدخل أصبح النموذج الذي ملأ صفحات تاريخ الخمسين سنة التالية وأكثر، غير أن هذا النزاع الذي نحن بصدده انتهى نهاية سلمية أكثر من نزاعات أخرى. وقد توسط علي جنبلاط ويزبك العماد لمصالحة

منصور وأحمد. فتخلى هذا الأخير عن حقه بالإمارة وسكن دير القمر(١).

في سنة ١٧٧٠ تنازل منصور عن الحكم إلى يوسف النجل الأكبر لملحم. قدم يوسف إلى الباروك حيث اجتمع إلى جمع من الأمراء والأعيان ومشايخ الد[illegible]. وحررت إلى والي الشام عريضة تنبئه باتفاقهم على تولية الأمير يوسف مقاليد الامارة(٢).

وخلال ما تبقى من القرن الثامن عشر وفي العقدين الأولين من القرن التاسع عشر كان هم الحاكم الأكبر مقاومة مؤامرات أفراد أسرته للاستيلاء على الامارة وتحييد العائلات الإقطاعية الذين بتأييدهم المتنافسين على الامارة من الشهابيين كانوا يقوّون مركزهم على حساب الحاكم. وكان همه الثاني والملح أيضاً الحصول على أموال كافية من الضرائب لارضاء مطالب الوالي، وهي مطالب زادت زيادة لاتحتمل حين أصبح أحمد باشا الجزار والي صيدا.

وكان للوالي مصلحة في تشجيع الحزبية والشقاق إذ في كل مرة يُعزَل أمير وينَصّب خلف له كان يُفرض مبلغ من المال يقرر الوالي مقداره.

وكان أمير الجبل يُعيَّن سنوياً مقابل دفع إتاوة إلى الباب العالي بواسطة ممثله والي صيدا (فيما بعد والي عكا التي نقل إليها الجزار مركز الولاية). وكانت القسم الأكبر من الأمارة يرتبط بصيدا وبعدها عكا. لكن نظراً لأن الأمير كان يمنحَ مناطق في ولاية طرابلس، وهي جبيل البترون، كانت قسم من الإتاوة يذهب إلى باشا طرابلس. أما البقاع فكان يتبع دمشق.

(١) الشهابي، لبنان، الجزء الأول، ص ٥٩ – ٦٠؛ الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٣٧٥ – ٣٨٠.
(٢) الشهابي، لبنان، الجزء الأول، ص ٨٨.

كتب بركهاردت الذي زار لبنان في سنة ١٨١٢ أن الأمير كان يدفع ٥٣٠ كيساً (٢٦٥ ألف قرش) منها ١٣٠ كيساً لطرابلس وأربعمائة كيس لعكا. وهذا فضلاً عن مطالب إضافية للباشوات تبلغ ثلاثمائة كيس على الأقل. وكانت هذه المبالغ تدفع عوضاً عن ضريبة الأرض (الميري) التي كان الأمير يجمعها ولا يؤدي عنها حساباً(١).

كان الأمير كبير ملتزمي الضريبة في الجبل. أما المقاطعجية فكانوا ملتزمين ثانويين يجمعون الضريبة في مناطقهم ويدفعون إلى الأمير اتاوة سنوية. وكانت الميري الضريبة الرئيسية. وكان توزيعها على المناطق والنسبة التي يحتفظ بها أصحاب الإقطاعات يتوقفان على توازن القوى بين الأمير والاقطاعيين التابعين له.

ولم تكن الميري ضريبة ثقيلة إذا لم تصحبها تجاوزات. غير أنه كثيراً ما كانت الميري تجبى مرتين أو أكثر في السنة وأحياناً كانت تجبى مقدماً عن سنتين أو ثلاث سنوات. وإضافة إلى ذلك كانت تفرض ضرائب مختلفة وجبايات مخالفة للأصول تثقل كاهل الناس.

كانت هذه الابتزازات تقاوم في بعض الأحيان. كان الأمير يوسف في سنة ١٧٨٢ فرض فريضة عظمى جمع بها أموالاً وافرة؛ وفي افتتاح سنة ١٧٨٣ جعل ضريبة على أشجار التوت. فعندما حاول بعد ذلك أن يفرض ضريبة سمّاها شاشية على البالغين من الذكور طرد الناس جباته وأبطلوا الضريبة(٢).

وتراكمت التجاوزات والتعديات خلال القسم الأخير من القرن

(١) J. L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, p 194
(٢) الشهابي، تاريخ، الجزء الأول، ص ١٣٤ – ١٣٥.
Chevallier, La Société du Mont Liban, pp. 110-111

منصور وأحمد. فتخلى هذا الأخير عن حقه بالإمارة وسكن دير القمر(١).

في سنة ١٧٧٠ تنازل منصور عن الحكم إلى يوسف النجل الأكبر لملحم. ثم قدم يوسف إلى الباروك حيث اجتمع إلى جمع من الأمراء والأعيان ومشايخ الدين. وحررت إلى والي الشام عريضة تنبئه باتفاقهم على تولية الأمير يوسف مقاليد الامارة(٢).

وخلال ما تبقى من القرن الثامن عشر وفي العقدين الأولين من القرن التاسع عشر كان هم الحاكم الأكبر مقاومة مؤامرات أفراد أسرته للاستيلاء على الأمارة وتحييد العائلات الإقطاعية الذين بتأييدهم المتنافسين على الأمارة من الشهابيين كانوا يقوّون مركزهم على حساب الحاكم. وكان همه الثاني والملح أيضاً الحصول على أموال كافية من الضرائب لارضاء مطالب الوالي، وهي مطالب زادت زيادة لاتحتمل حين أصبح أحمد باشا الجزار والي صيدا.

وكان للوالي مصلحة في تشجيع الحزبية والشقاق إذ في كل مرة يُعزَل أمير ويُنَصّب خلف له كان يُفرض مبلغ من المال يقرر الوالي مقداره.

وكان أمير الجبل يُعيَّن سنوياً مقابل دفع إتاوة إلى الباب العالي بواسطة ممثله والي صيدا (فيا بعد والي عكا التي نقل إليها الجزار مركز الولاية). وكان القسم الأكبر من الأمارة يرتبط بصيدا وبعدها عكا. ولكن نظراً لأن الأمير كان يمنحَ مناطق في ولاية طرابلس، وهي جبيل والبترون، كان قسم من الإتاوة يذهب إلى باشا طرابلس. أما البقاع فكان يتبع دمشق.

(١) الشهابي، لبنان، الجزء الأول، ص ٥٩ - ٦٠؛ الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٣٧٥ - ٣٨٠.
(٢) الشهابي، لبنان، الجزء الأول، ص ٨٨.

كتب بركهاردت الذي زار لبنان في سنة ١٨١٢ أن الأمير كان يدفع سنوياً ([illegible] ألف قرش) منها ١٣٠ كيساً لطرابلس وأربعمائة كيس لعكا. وهذا فضلاً عن مطالب إضافية للباشوات تبلغ ثلاثمائة كيس على الأقل. وكانت هذه المبالغ تدفع عوضاً عن ضريبة الأرض (الميري) التي كان الأمير يجمعها ولا يؤدي عنها حساباً(١).

كان الأمير كبير ملتزمي الضريبة في الجبل. أما المقاطعجية فكانوا ملتزمين ثانويين يجمعون الضريبة في مناطقهم ويدفعون إلى الأمير اتاوة سنوية. وكانت الميري الضريبة الرئيسية. وكان توزيعها على المناطق والنسبة التي يحتفظ بها أصحاب الإقطاعات يتوقفان على توازن القوى بين الأمير والاقطاعيين التابعين له.

ولم تكن الميري ضريبة ثقيلة إذا لم تصحبها تجاوزات. غير أنه كثيراً ما كانت الميري تجبى مرتين أو أكثر في السنة وأحياناً كانت تجبى مقدماً عن سنتين أو ثلاث سنوات. وإضافة إلى ذلك كانت تفرض ضرائب مختلفة وجبايات مخالفة للأصول تثقل كاهل الناس.

كانت هذه الابتزازات تقاوم في بعض الأحيان. كان الأمير يوسف في سنة ١٧٨٢ فرض فريضة عظمى جمع بها أموالاً وافرة؛ وفي افتتاح سنة ١٧٨٣ جعل ضريبة على أشجار التوت. فعندما حاول بعد ذلك أن يفرض ضريبة سمّاها شاشية على البالغين من الذكور طرد الناس جباته وأبطلوا الضريبة(٢).

وتراكمت التجاوزات والتعديات خلال القسم الأخير من القرن

(١) J. L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, p 194
(٢) الشهابي، تاريخ، الجزء الأول، ص ١٣٤ - ١٣٥.
Chevallier, La Société du Mont Liban, pp 110-111

الثامن عشر بعد تعيين أحمد الجزار والياً على صيدا وطوال حكم الأمير بشير الثاني الذي كثيراً ما كان يجبر على التخلي عن الحكم وكان في كل مرة يشتري عودته من الوالي بثمن باهظ.

وكان من واجبات المقاطعجية وميزاتهم، فضلاً عن جباية الضرائب، المحافظة على الأمن والنظام في مقاطعاتهم. وكان عليهم أن يلبوا مع أتباعهم دعوة الأمير للحرب عندما يطلب ذلك منهم وينفذون حكم القاضي في مقاطعاتهم ما عدا الأحكام الجنائية. وكانوا يتمتعون بحصانات تجاه الأمير الذي لم يكن في وسعه سجنهم أو اعدامهم. وكان عقابهم النفي ومصادرة ممتلكاتهم وإتلافها.

كان يمثل الأسرة الإقطاعية لدى الحاكم شخص واحد معترف به زعيماً لها. وأحياناً كان يتقاسم الإقطاع فرعان أو أكثر من الأسرة الواحدة وفي هذه الحالة كان الأمير يوجه رسائله التي تتعلق بشؤون المقاطعة إلى هؤلاء الزعماء جميعهم.

وكمثال لهذه الرئاسة التعددية في أسرة من أصحاب الإقطاع حكم قضائي ممضي من رؤساء ستة فروع من عائلة أبي اللمع بمقاطعة المتن. والحكم مصدق من الأمير يوسف شهاب الذي حكم بين سنتي ١٧٧٠ و١٧٨٨. وكان القاضي الذي أصدر الحكم جابر بن سليمان أبو عز الدين[1].

وفي عهد الشهابيين كما في عهد التنوخيين كان يتولى منصب قاضي الجبل أفراد من عائلة واحدة يخلف واحدها الآخر. وكان القاضي في

---

(١) توجد صورة فوتوغرافية لهذه الوثيقة بين أوراقنا. وجابر بن سليمان كان أحد القضاة في سلسلة بدأها أبو عز الدين جابر المتوفي سنة ١١٣٠ / ١٧١٧، ومنه أخذت العائلة اسمها، واستمرت سلسلة القضاة هذه دون انقطاع حتى وفاة عمي محمد أبو عز الدين سنة ١٩١٧ وكان عند وفاته رئيساً لمحكمة الاستئناف في جبل لبنان.

العهد التنوخي من عائلة القاضي من قرية بيصور في الغرب. وتولت هذا المنصب في العهد الشهابي عائلة القاضي التي كانت تقطن دير القمر. وفي روايات شفهية أنه في عهد المعنيين كانت هناك عائلة القاضي ومركزها المختارة. والى هذه الأسرة ينتمي الشيخ قبلان القاضي صاحب إقطاعية الشوف.

وتحمل وثائق متفرقة امضاءات قضاة في مناطق مختلفة، ينتمي بعضهم إلى أسر مارس أفرادها القضاء في مناطقهم أجيالاً متعاقبة.

وقد كان أمير الجبل الحَكَم النهائي وهو وحده له حق النظر في القضايا الجنائية. كما أنه وحده الذي ينظر في قضايا تشمل أفراداً من الأسرة الحاكمة. ولا تتضمن الوثائق التي في حوزتنا حكماً قضائياً واحداً نقضه الأمير. أما الوثائق التي نصت على تأييد أحكام القضاة فإنها تحمل إمضاءات الأمير أحمد المعني والأمراء الشهابيين حيدر ويوسف وبشير.

وكان النظام القضائي يقوم على المذهب الحنفي من الشريعة. وكان العرف يؤخذ في الاعتبار في إحقاق الحقوق وتوقيع العقوبات. أما الأمور المتعلقة بالشؤون الشخصية فكانت تنظر لدى المحاكم المذهبية لمختلف الطوائف.

وفي مجتمع ريفي بسيط لم تكن الدعاوى القضائية معقدة وكانت الاجراءات القضائية مبسطة. فكان المتقاضون يحضرون أمام القاضي وكلّ يبرز قضيته. وكان إصدار الحكم يتم في جلسة واحدة إلاّ إذا اقتضى الأمر دعوة شهود.

وفي عهد الأمير بشير الثاني تحوّل القضاء عن عائلة القاضي مرتين. ففي سنة ١٨١٩ عزل الشيخ شرف الدين بن محمد لانغماسه في السياسات الحزبية

وعيّن مكانه القاضي السني الشيخ أحمد البزري. وبعد فترة قصيرة عيّن محمد ابن شرف الدين وبقي في هذا المنصب الى بداية الاحتلال المصري عندما غادر البلاد. وفي سنة ١٨٣٢ عيّن الأمير الشيخ أحمد تقي الدين الذي شغل هذا المنصب حتى نهاية حكم بشير.

وشملت السلطة القضائية للقاضي الجبل كله[1]. وهذا واضح من السجل الذي يتضمن ٢٧٥ قضية فصل فيها الشيخ أحمد تقي الدين بين سنتي ١٢٥٢ - ١٢٥٦ / ١٨٣٦ - ١٨٤٠، فهي تتعلق بمتقاضين من مختلف الطوائف الدينية يقيمون في مناطق ممتدة من كسروان إلى آخر بلاد جزين. وتشمل دعاوي الميراث وقضايا عقارية ومعاملات تجارية. وكان الشيخ أحمد مثل القضاة الذين تقدموه مشهوراً بتمسكه الشديد بالعدالة. ومرة حاول الأمير بشير الثاني أن يجعله يلغي حكماً لم ينطبق على رغبته فكان جوابه: «هذا هو الحق وسعادتك صاحب الأمر».

وكان زعماء مناطق الإقطاع يمارسون السلطة القضائية. وإن زعيماً كبيراً كالشيخ بشير جنبلاط ربما فصل في قضايا أكثر من القاضي.

وكان أصحاب الاقطاعيات يتمتعون بسلطات أخرى كما نرى في صك مؤرخ في جمادى الأولى سنة ١١٧٠ / ١٧٥٦ من الشيخ كنعان نكد، الذي وهب أرضاً إلى رهبان دير الناعمة، وفيه أن السخرة مرفوعة عن شركائهم واجرائهم وعن بقرهم ودوابهم وقلم الميري مرفوع عن خدمهم ورعيانهم. وجميع الرهبان والعاملون بالدير في حماية الشيخ النكدي وكذلك من يدخل الدير وكان مظلوماً فلا يسمح أن يمسك في الدير[2].

(١) كان الشيخ يعقوب حبيش (الذي أصبح البطريرك يوسف حبيش) يقيم حوالى سنة ١٨١١ في دير القمر مدداً طويلة للمرافعة بالشريعة عند الشيخ شرف الدين القاضي مع خصم له اسمه الشيخ شمسين لعله من بيت الخازن. مشاقة، منتخبات ص ٤٤.

(٢) بليبل، تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية، الجزء الثاني، ص ١٩٨ - ٢٠١.

إن هبة الأرض من قبل زعماء الدروز لإقامة الأديرة عليها هو أحد الأمثلة على العلاقات الودية التي دامت زمناً طويلاً بين الدروز والمسيحيين الذين كان الموارنة يؤلفون القسم الاكبر منهم.

وفي الكتابة عن العلاقات بين الدروز والموارنة فإنه من المفيد أن نذكر ما كتبه في هذا الموضوع الأب لامنس اليسوعي وهو مستشرق معروف. كتب لامنس: عاش الدروز والموارنة حتى نهاية القرن الثامن عشر في تفاهم طيب وكان يحكمهم نفس الأمراء من تنوخيين ومعنيين وشهابيين، الذين عاملوا رعاياهم الموارنة بأكبر قدر من التسامح. وكانوا يؤثرون اختيار موظفيهم ومديري أعمالهم من بينهم. وفي حروب الدروز الأهلية كان الموارنة يشاركون في كلا المعسكرين مما يثبت أنهم في ذلك الحين لم يكونوا يعرفون الصراعات العرقية والدينية التي نشبت في وقت لاحق. ويتابع لامنس: إن هذا التوافق الحسن أخذ يتغير حوالى سنة ١٧٥٦ عندما اعتنق أميران من الأسرة الشهابية، التي كانت تحكم الجبل حينذاك، المسيحية. ولكن فقط في القرن التاسع عشر وبضغط من النفوذ الأجنبي تحولت هذه الاختلافات إلى صراعات شرسة بلغت ذروتها في مجزرة سنة ١٨٦٠[1].

وكان عدد المسيحيين ضئيلاً في جنوبي لبنان عند الفتح العثماني في سنة ١٥١٦[2]. ولم يكن الموارنة في القرن الخامس عشر قد تجاوزوا نهر ابراهيم. فكانوا في مناطق البترون وجبيل حيث عاشوا إلى جانب الشيعة

(١) H. Lammens, Frère Gryphon et le Liban au XV Siècle, Revue de l'Orient Chrétien, 1899 pp. 77-78, n. 2.

(٢) الخوري قسطنطين الباشا، فصل في أحوال النصرانية في لبنان بأول عهد بني عثمان، المسرّة، تموز سنة ١٩٢٣، ص ٣٨٥ - ٣٩١.

والتركمان[1]. وفي عهد الأمير فخر الدين أخذوا يهاجرون بأعداد كبيرة إلى جبل الدروز مستفيدين من سعة تسامحه ومن الأمن الذي ساد بلاده. وترك البطريرك الماروني يوحنا مخلوف كرسيه في قنوبين بشمالي لبنان هربا من مظالم الحكام ولائذاً بحمى فخر الدين. فأنزله الأمير قرية مجدل المعوش وبنى له داراً وكنيسة، وأقام البطريرك وجماعته فيها وقدم النصارى وسكنوا القرية.

وكالموارنة فقد سمح للروم الارثوذكس والروم الكاثوليك الذين هاجروا من داخلية سورية بالإقامة بحرية في القرى الدرزية.

ويتفق الرحالة الذين زاروا بلاد الدروز والأجانب الذين أقاموا فيها على التنويه بالوئام الذي ساد العلاقات بين مختلف الطوائف الدينية التي كانت تعيش في ظل السلام الدرزي.

ومن مظاهر كرم الدروز تجاه النصارى الذين يعيشون في وسطهم منحهم الأراضي من قِبل العائلات الإقطاعية لبناء الكنائس والأديرة. ومن الطريف أن الشيخ كنعان أبو نكد لما وهب أرضاً في الناعمة لإقامة دير عليها اشترط أن لايكون شفيع الدير راهباً عجوزاً أو امرأة « بل يكون صاحب مراجل ». فلم ير الرهبان قديساً يفوق القديس جرجس « بمراجله » فأنشأوا الدير على اسمه واستحسن الشيخ هذا الاختيار[2].

أما الأرض التي أقيم عليها دير مشموشة قرب صيدا فكانت هبة من الشيخ قبلان. ويقول مؤرخ الرهبانية المارونية أن هذا الشيخ كان قبلان أبو هرموش. ان الرجل الشهير بهذا الاسم هو قبلان القاضي صاحب إقطاعية الشوف والمالك أراضي واسعة في مشموشة وجوارها. وقد حصل

(1) Lammens, Revue de l'Orient chrétien, 1899, pp 82-83.

(٢) بليبل، تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية، الجزء الثاني، ص ١٩٨ - ٢٠١.

الرهبان فيما بعد على أرض من عائلة أبو هرموش تقع في قرية بتدين اللقش القريبة. ومن الذين وهبوا ارضاً لهذا الدير أميرة لم يذكر اسمها وقيل إنها زوجة الأمير أحمد آخر الحكام المعنيين[1].

ولقد وهب الشيخ قبلان القاضي أرضاً لأقدم دير كاثوليكي في جنوبي لبنان وهو دير المخلص القائم في جون فوق صيدا. فقد وهب في سنة ١١٢١ / ١٧٠٩ وسنة ١١٢٤ / ١٧١٢ أملاكاً واسعة للدير ولإعالة الرهبان. وكان يوقع على سندات نقل الملكية قبلان.

وقد ثبّت الشيخ علي جنبلاط، الذي تزوج ابنة الشيخ قبلان وورث إقطاعه الهبات السابقة وأنعم على الدير بهبات جديدة ووضعه تحت حمايته. ويذكر رهبان دير المخلص حتى هذا اليوم بالعرفان الشيخ قبلان القاضي والشيخ علي جنبلاط اللذين يعود إلى إحسانهما إنشاء هذا الدير ونموه. ودير المخلص هو الدير الرياسي وكل أديرة الأشواف التي كان يقال لها أدير جبل الدروز تابعة له[2].

وتمشيًا مع تقاليد عائلته ساعد الشيخ بشير جنبلاط بتجديد بناء دير مشموشة للطائفة المارونية في إقليم جزين « وأحسن إلى هذه الطائفة في جميع مقاطعاته »، فبلغ ذلك بابا رومية الذي بعث إليه رسالة شكر[3].

عمل غالبية المسيحيين الذين استقروا في جنوبي لبنان في الزراعة التي كان يزاولها معظم السكان. ولقد تضررت الزراعة نتيجة الهجرة الدرزية إلى حوران بعد معركة عين داره. ولما كان المهاجرون الجدد من بيئة

(١) بليبل، تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية، ص ٢٣٩ - ٢٤٢.

(٢) الباشا، لمحة تاريخية في الرهبانية الباسيلية المخلصية، ص ١١ - ٢٣.

(٣) الأب روفائيل كرامة، مصادر تاريخية لحوادث لبنان وسوريا من ١٧٤٥ - ١٨٠٠ م، ص ١٦١.

زراعية فإنهم عملوا في الأرض وهكذا ساهموا في زيادة الإنتاج والازدهار.

وكانت العائلات الإقطاعية، وفي مقدمتها العائلة الجنبلاطية، تملك قسماً كبيراً من الأراضي الزراعية.

كان الجنبلاطيون كما مر معنا حكام سنجقي كلّس وعزاز منذ بداية العهد العثماني. وحكم أحدهم وهو علي باشا حلب وقسماً كبيراً من داخلية سورية. وقد تفرقت العائلة بعد هزيمته أمام الجيش العثماني. وجاء جنبلاط ابن سعيد مع ولده رباح إلى بيروت سنة ١٦٣٠ حيث رحب بهما الأمير فخر الدين صديق علي باشا وحليفه. ونزل إلى بيروت أعيان الجبل ودعوهما إلى الشوف حيث استقرا في قرية المزرعة.

وتزوج علي بن رباح ابنة قبلان القاضي التنوخي زعيم المنطقة. وقد توفي الشيخ قبلان سنة ١٧١٥ ولما لم يكن له عقب فقد أوصى، كما تقول إحدى الروايات، أملاكه الواسعة للحاكم بينما جاء في رواية ثانية أنه أوصى ثلاثة أرباع أملاكه للأمير والربع الباقي لإبنته. فحضر أعيان الشوف عند الأمير حيدر وطلبوا أن يكون الشيخ علي مكان الشيخ قبلان أي شيخ المشايخ وأن يسلّم له أملاك الزعيم المتوفي وعرضوا على الأمير مقابل ذلك خمسين ألف قرش. فقبل حيدر نصف هذا المبلغ ومنح الإقطاع إلى علي الزعيم الذي اختاره الناس.

وكان هذا الاختيار موفقاً. فالشيخ علي جنبلاط، لما كان يتمتع به من الصفات الذاتية ولأهمية إقطاعه، كان أهم زعيم في الجبل خلال القرن الثامن عشر. وفضلاً عن مركزه الزمني فقد اشتهر بتقواه. واننا لنكبر تسامحه الديني إذ هو صادر عن مؤمن شديد التعلق بمذهبه. وان أريحيته تجاه الأديرة وحمايته لمتلكاتها والمقيمين فيها لهي تعبير عن رحابة نظرته

الدينية. وقد حكم الشيخ علي الشوف نحو ثلثي قرن حتى وفاته سنة ١٧٧٨. وعاش [illegible] وكان يرتدي زي العقّال النسّاك: اللفة المدورة، وعباءة من الصوف وحزام من جلد أسود.

امتدت املاك علي جنبلاط من ساحل البحر في منطقة صيدا إلى سهل البقاع. ويعود تاريخ أملاك آل جنبلاط في البقاع إلى أيامه وتم تملكها على الشكل التالي: احتاج والي عكا إلى مال وهو يتأهب للسفر إلى اسطنبول. فأرسل وفداً إلى علي جنبلاط ليطلب منه قرضاً بمبلغ ثلاثين ألف قرش ومع الوفد كمبيالة بالمبلغ المطلوب. فأجاب الشيخ علي طلبه لكنه أبى أن يأخذ الكمبيالة فكان لذلك أجمل وقع في نفس الوالي الذي ما لبث أن عيّن والياً على دمشق. فذكر صنيع الشيخ علي ودعاه لزيارته. فذهب الشيخ إلى دمشق مرتدياً زيّه المألوف. وعزز منظر الزعيم الكبير في زي ناسك شهرته في نظر الوالي. ولما سأل الوالي ضيفه عما يستطيع أن يقدمه له طلب الشيخ منحه إقطاعية قرى في البقاع. فأجيب طلبه وما لبث أن قدمت أعداد كبيرة من الفلاحين من منطقة بعلبك وغوطة دمشق إلى هذه الأرض للعمل فيها وتعميرها في ظل الإدارة الصالحة لعلي جنبلاط. وتوافد بعض عشائر الدروز على الشيخ علي طالبين نصيباً في هذه الغنيمة. فمنحوا عدة قرى[1].

ولم تكن الأرض مصدر الثروة فقط بل كانت أيضاً القاعدة لقوة الزعيم. ويقول تقرير معاصر أن علي جنبلاط يمكنه وحده أن يعد للقتال أكثر من ثلاثة عشر ألف مقاتل[2].

في سنة ١٧٧٧ أحدث الأمير يوسف مالاً على البلاد فهاج الأهلون عليه

(١) عارف أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ٨١ – ٨٣.

(٢) Ismail, Documents Diplomatiques, vol. 2, p 253

والتمسوا من الشيخ علي أن يتوسط عند الأمير لإبطاله. ولما أبى يوسف إجابة الطلب دفع الشيخ من ماله الخاص مالاً بقدره وأبطله. فازدادت محبة الناس له ومكانته رفعة[١].

إن الحياة في بلاد الدروز خلال القرن الثامن عشر لم تختلف في جوهرها عما كانت عليه في عهد المعنيين. ولم تكن عوامل النفوذ الأجنبي من سياسية واقتصادية وثقافية قد بدأت تؤثر على المجتمع التقليدي. كانت هناك حروب صغيرة وظلم في بعض الضرائب والأعباء التي فرضها الحكام ولكن الناس كانوا على العموم بخير وهذا ما لاحظه وكتب عنه الرحّالة الذين قدموا إلى البلاد. وكان فولني أكثر الرحالة الأوربيين قوة ملاحظة ونفاذ بصيرة. فقد زار جنوبي لبنان في سنة ١٧٨٠ وقدّر عدد السكان بمائة وعشرين ألفاً وهذا كما قال يساوي عدد سكان أحسن المقاطعات في فرنسا. ولقد تعجب فولني من هذه الوفرة في السكان في مقابل قلة الموارد: فالزراعة يحد من التوسع فيها طبيعة الأرض الجبلية، ولا توجد صناعة، والصادرات محصورة بالحرير والقطن. ثم يتساءل من أين إذاً هذه الكثرة في الناس؟ ويجيب أنه شعاع الحرية الذي يضيء هناك[٢].

وحدث خلال هذا القرن تحوّل في الميزان السكاني. فازداد عدد الموارنة حتى فاقوا الدروز عدداً ولكن الهيمنة الدرزية في شؤون الجبل استمرت. لقد عاش الدروز منذ نشأتهم في السنين الأولى من القرن الحادي عشر ميلادي بمقتضى قوانينهم الخاصة بهم. وكان يحكمهم أمراء منهم. وراعى استقلالهم السلالات المتعاقبة التي حكمت سورية خلال قرون. وفي القرن الثامن عشر كان نظام الدروز الاجتماعي هو القاعدة وبنيانهم السياسي

(١) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ١٣٨.

Volney, Voyage en Syrie et en Egypte, vol. 1. p 460 (٢)

قانون البلاد. وكان زعماؤهم الإقطاعيون يحكمون باسم الأمير[١]. وكان من قوة الشخصية الدرزية أن كلمة دروز كانت تطلق على سكان الجبل بقطع النظر عن انتمائهم الطائفي. وكان الإفرنج الذين زاروا أو عاشوا في هذه البلاد يعتبرون الموارنة فئة مسيحية من الشعب الدرزي[٢]. وعندما سار نابوليون من مصر لفتح سورية عمد وهو محاصر عكاء، ليكسب اللبنانيين إلى جانبه، إلى الكتابة إلى الأمير بشير متعهداً بمنح الاستقلال «للشعب الدرزي الشجاع»[٣]. ولكن الدروز أبوا أن ينحازوا إلى نابوليون. فاجتمعوا في مقام الأمير السيد عبد الله التنوخي في عبيه وقرروا مقاومة الفرنسيين[٤].

إن القناصل والرحالة الإفرنج في كتاباتهم عن جبل لبنان كانوا يقولون جبل الدروز وبلاد الدروز وحكومة الدروز[٥].

سيطر على العقد الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر رجلان هما الأمير بشير شهاب الثاني والشيخ بشير جنبلاط. تولى الأمير بشير حكم الجبل سنة ١٧٨٨ مرشحاً من الجنبلاطيين الذين قادوا المقاومة ضد الأمير يوسف. وحتى يرضي نهم الجزار الشديد فرض بشير على البلاد ضرائب مدمرة[٦]. ووعد يوسف بدفع أتاوة أكبر فأعيد تعيينه ولكنه عزل سريعاً بعد أن تعهد بشير بدفع المبلغ الذي وعد يوسف به. وفي سنة ١٧٩٠ حدثت ثورة اضطرت بشيراً إلى الفرار إلى

(١) Ismail, Documents Diplomatiques, vol. 2, p 150; Kamal Salibi, The Buhturids of the Gharb, Arabica, vol. 8, p 74.

(٢) Ismail, Documents Diplomatiques, vol. 2, p 71, n. 2, p 252, pp 359-361, vol. 4, pp 17-21; Lady Hester Stanhope, Travels, vol. 1, p 333.

(٣) I. de Testa, Recueil des Traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Etrangères, vol. I, p 576.

(٤) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٤٤٩.

(٥) Chevallier, La Société du Mont Liban, p 58

(٦) Ismail, Documents Diplomatiques, vol. 3, p 29

وامتد اهتمامه إلى الدروز خارج لبنان. ففي سنة ١٨١١ ناشده دروز الجبل الأعلى إنقاذهم من طغيان مغامر هو الطبّل علي الذي نصب نفسه زعيماً على قسم كبير من الجبل والسهل. فتشاور الشيخ بشير مع الأمير بشير وأرسل كل منهما أربعين فارساً لجلب الذين يريدون المجيء. وقد استقدم أربعمائة عائلة وزعها في أنحاء الجبل بعد أن أمّن لها ما يلزمها[١].

ولقد بنى الشيخ بشير قصراً فخماً في المختارة جر له المياه في قناة من نهر الباروك عبر أراضي وعرة شقت أجزاء منها في الصخر. وكان القصر مركز المنطقة الواسعة التي شملتها سلطة الشيخ وكان الناس يأتونه من قريب وبعيد لعرض قضاياهم وتسوية خلافاتهم. وكان القصر أيضاً مسرحاً لاحتفالات متكررة وضيافة لاحد لها. وفاق قصر المختارة قصر الأمير في بيت الدين بقاعاته وأفنيته ونوافيره وحماماته وحدائقه واسطبلاته الواسعة وميدانه الرحب. ونظراً للسلطة التي مارسها الشيخ بشير وللأبهة في أسلوب معيشته دعي عمود السما .

وبجانب القصر بنى الشيخ بشير جامعاً على طراز جامع الجزار الشهير في عكا وأوقف عليه وقفية سخية. وقد أغضب بناء الجامع بشير الثاني الذي رأى في ذلك إشارة بأن بشير جنبلاط يسعى لتولي الأمارة. وعندما بلغ الخصام بين البشيرين أشده وهُزم الشيخ بشير دبر الأمير نسف الجامع وتدمير القصر تدميراً تاماً.

لقد عمل بشير الثاني وبشير جنبلاط سوية طيلة ثلاثين عاماً. كان تأييد الشيخ ضرورياً لاستقرار حكم الأمير غير أن قوته وثروته كانتا مصدر خوف وضيق للحاكم. ثم جاء اليوم الذي شعر فيه الشيخ أنه لم يعد بمقدوره السيطرة على الأمير واقترب موعد الانشقاق النهائي. وتضمنت

(١) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ١٤٣ – ١٤٩؛ Stanhope, pp 241-3; Burckhardt, p 205

تقارير القناصل سنة ١٨١٩ شائعات عن سوء التفاهم بين الأمير بشير والشيخ بشير. وأشار القنصل في صيدا إلى احتمال وقوع حرب أهلية[١].

في سنة ١٨١٩ توفي والي عكا سليمان باشا الملقب بالعادل لاستقامة سيرته وخلفه عبد الله باشا الذي طلب أتاوة باهظة. ونشبت ثورة شعبية سنة ١٨٢٠ حملت الأمير بشير على الرحيل إلى حوران وعيّن اثنان من أبناء عمه لحكم البلاد مشاركة. ولما لم يتمكن الأميران من جمع الأتاوة المطلوبة عاد بشير الثاني.

وواصل الوالي ملاحقة طلباته المسرفة. وحدث انقطاع بينه وبين الأمير بشير في أوائل سنة ١٨٢١ تبعته مصالحة. واقتطعت ثلاث مناطق عن الجبل هي جزين وإقليم التفاح وجبل الريحان. وكانت هذه المناطق ضمن إقطاع الشيخ بشير وفيها الكثير من أملاكه الخاصة. لذا كانت خسارة الشيخ بشير أفدح من خسارة الأمير. وذكر القنصل الفرنسي في صيدا أن الأمير تخلى عن هذه المناطق كي يضعف الشيخ بشير[٢].

كان عبد الله يشتهي باشوية دمشق. وفي نزاعه مع واليها درويش باشا انحاز الأمير بشير إلى جانب والي عكا. فعزل الباب العالي عبد الله وبشير الثاني وعيّن درويش على صيدا وملحقاتها كما أنجده بوالي حلب وأضنه. ونصح الشيخ بشير الأمير بشير بالتفاهم مع الحكومة العثمانية ليبقى في منصبه بموافقتها. فرفض ورحل إلى مصر. فاختار الشيخ بشير وأعيان البلاد الأمير عباس وذهبوا جميعاً إلى البقاع لملاقاة درويش باشا الذي قلّد عباساً حكم الأمارة[٣].

(١) Ismail, Documents Diplomatiques, vol. 3, pp 136-7, vol. 5, p 21

(٢) Ismail, Documents Diplomatiques, vol. 3, pp. 139, 142-146

(٣) ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص ٩٥ – ٩٦؛ الشهابي، لبنان ص ٧٢٢ – ٧٢٥.

أما عبد الله باشا فرفض التخلي عن منصبه ودافع داخل عكا بينما [illegible] الحصار حولها. وفي غضون ذلك توسط والي مصر محمد علي لدى الباب العالي للعفو عن عبد الله باشا والأمير بشير فأجيب طلبه ورفع الحصار عن عكا، واحتفظ عبد الله بمنصبه وعاد بشير إلى الجبل.

وخلال وجوده في مصر توصل الأمير بشير إلى اتفاق مع محمد علي لم تعرف تفاصيله. وكتب مؤرخ معاصر أن وجود الأمير بشير عند محمد علي «صار منه نفع كثير لمحمد علي وربما عمل معه رابطة سرية في أخذ بلاد سورية وأنه يكون مساعداً له»[١].

وبعد عودته أخذ الأمير بشير يضايق الشيخ بشير بمطالب مالية باهظة الواحد تلو الآخر ولما جاء الشيخ إلى بيت الدين يصحبه عدد كبير من الاتباع أمر الأمير بإغلاق بوابات القصر. فأصبح الانقطاع بينهما نهائياً والاحتكام إلى السلاح حتمياً. وطلب بشير الثاني من عبد الله باشا أن يرسل له قوات من عكا كما كتب إلى ابنه أمين الذي كان لايزال في مصر لالتماس المساعدة من محمد علي. فأمر محمد علي باعداد عشرة الآف جندي وإرسالهم مع أمين لمساعدة والده[٢].

وفي منتصف كانون الثاني ١٨٢٥ جرت المعركة في السمقانية. وحسم الموقف جنود عبد الله باشا الارناؤوط الذين كانوا مزودين بالمدافع ومتفوقين في العدد. فهزموا رجال الشيخ الجبليين الذين كان سلاحهم البنادق والسيوف[٣]. فغادر الشيخ بشير الجبل وفي طريقه إلى حوران

(١) الدمشقي، ص ٩٨.
(٢) الشهابي، لبنان، ص ٧٦٤ – ٧٦٥؛ الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٤٩٩، ٥٤١ – ٥٤٢.
(٣) أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ١٢ – ٢٤؛ Polk, the Opening of South Lebanon, pp 27-28

اعتقله جنود والي دمشق وأرسل إلى عكا. وأقلق وجوده في عكا، حيث لاقى معاملة طيبة من عبد الله باشا، الأمير بشير الذي كتب إلى محمد علي راجيا بإلحاح قتل الشيخ بشير. وبناء على أوامر محمد علي قُتِل الشيخ في سجن عكا[١].

وانتقم بشير الثاني انتقاماً بلا رادع من الجنبلاطيين ومؤيديهم. فاستولى على أملاك أسرة جنبلاط في الجبل والبقاع وعين على الإقطاع الجنبلاطي رجاله الذين أثار سلوكهم امتعاضاً شديداً. وأُجبر آل جنبلاط على مغادرة الشوف كما نُفي زعماء آخرون[٢].

وبإزالة بشير جنبلاط تم تدمير الإقطاعية الدرزية. إن مصادرة أملاك مشايخ الدروز على نطاق واسع وفرض الأعباء الجسيمة التي أدّت إلى مبيعات اضطرارية أفقدت الدروز قسماً كبيراً من أملاكهم وجردت المقاطعجية من نفوذهم وأفقرت كثيراً من العائلات فاضطر بعضها إلى الهجرة إلى حوران. ومع ذلك فإن بشير الثاني لم يحل نظاماً جديداً محل ذاك الذي دمره وإنما وزّع الإقطاعات على أفراد من أسرته ورجاله. ولما عاد الزعماء المنفيون بعد سقوط الأمير بشير سنة ١٨٤٠ اجتمع الناس حولهم واستقبلوهم بمظاهر الغبطة والابتهاج[٣].

وخلال السنوات العشر الأخيرة من حكمه الطويل بات بشير الثاني أداة لإرادة لاسيطرة له عليها هي إرادة محمد علي والي مصر وابنه ابراهيم.

(١) ميخائيل الدمشقي؛ تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص ٩٩.
(٢) الشهابي، لبنان، ص ٧٧٦ – ٧٧٧؛ مشاقة، منتخبات، ص ١٠٢؛ أبو شقرا، الحركات ص ١٤ – ١٦، ٢٦.
(٣) أبو شقرا، الحركات، ص ٣٢ – ٣٣.

وتطلع محمد علي منشىء مصر الحديثة إلى ما وراء وادي النيل لتحقيق [illegible] ذات أهمية ستراتيجية لمصر يمكن أن تصبح منطقة عازلة بين محمد علي ومولاه السلطان العثماني. وكانت مصر وسورية متكاملتين تجارياً يتبادلان فيما بينهما مختلف المنتوجات من بينها الخشب من سورية الذي كان ذا أهمية خاصة للبحرية المصرية. وكانت سورية ولبنان مصدر قوة بشرية لجيش محمد علي الذي تكبد خسائر في حملاته، وإن كانت ناجحة، في شبه الجزيرة العربية والمورة[١].

وكان بشير الثاني قبل الحملة المصرية على سورية قد نفّر الدروز منه. وبما أنه انحاز إلى جانب محمد علي فقد أيد الدروز الدولة العثمانية. وفيما تحرك الجيش المصري نحو سورية حدث اضطراب شديد في الجبل. وجرى تبادل رسائل بين الزعماء المنفيين والذين ظلوا في لبنان مفادها تجميع الدروز حول الجانب العثماني.

وغادر زعماء الدروز الذين كانوا لايزالون في الجبل لينضموا إلى العثمانيين وعلى رأسهم نعمان جنبلاط ابن الشيخ بشير. وقد عيّن قائد القوات العثمانية، التي أُرسلت لمقاتلة ابراهيم باشا، نعمان جنبلاط حاكماً على الجبل مكان بشير شهاب[٢].

وحوالى نهاية سنة ١٨٣٤ طلب ابراهيم باشا من الأمير بشير تجنيد ألف وستمائة شاب درزي في الجيش. فدعا بشير زعماء المناطق لتقديم العدد

(١) A. J. Rustum, The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria 1831-1841, pp 63-71, 78.

(٢) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، الجزء الأول، رقم ٧٤٨؛ الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، الجزء الأول، ص ١١٧ - ١١٨؛ أبو شقرا، الحركات ص ٣١ - ٣٢؛ مشاقة، منتخبات، ص ١١٢، ١٢١؛ الشدياق، أخبار، ص ٥٦٩ - ٥٧٤.

المطلوب. فرفضوا وحتى أصدقاء بشير الثاني من الزعماء أبلغوه عجزهم عن القيام بهذا الأمر بالنظر إلى المعارضة الشديدة للتجنيد الإلزامي. فجاء بجري بك موفداً من قبل ابراهيم باشا لمعرفة السبب في رفض الدروز تقديم مجنّدين. فتحدث الأمير بشير إلى المشايخ المجتمعين بحضور بجري بك عن ضرورة الانصياع لأوامر ابراهيم باشا لكنهم أُصروا على رفضهم الدخول في النظام، أي الجيش النظامي، وأبدوا استعدادهم للخدمة «كنفر عام» أي عساكر غير نظامية. وعاد بجري بك إلى دمشق تاركاً الجبل في اضطراب شديد[١].

وتعود معارضة الدروز للخدمة العسكرية الدائمة، وهذا ما يعنيه الانخراط في النظام، إلى القلق من أن يؤدي غياب الشباب طويلاً عن بيوتهم وبيئتهم إلى اضعاف قيمهم التقليدية ومعتقداتهم. ومن عواقب ذهاب الشباب أيضاً إضعاف المجتمع كما أنه يضر بالزراعة إذ يحرم الأرض من المزارعين. ولب القضية أن الدروز أبوا الخدمة الإجبارية لحكومة مركزها بعيد عنهم[٢].

وقال ابراهيم باشا تعليقاً على رفض الدروز الانخراط في الجيش: إن الدروز شجعان لايتهربون من الحرب. لكنه يخشى إذا بقيت أسلحتهم في أيديهم أن تكون خطراً على الأمن في البلاد. وهكذا كان نزع سلاحهم قبل تجنيدهم.

وفي حزيران ١٨٣٥ كتب محمد علي إلى ابراهيم ملحاً بوجوب نزع سلاح سكان الجبل لأنهم خالفوا أمر التجنيد[٣].

(١) رستم، صفحة جديدة من الثورة الدرزية، المشرق سنة ١٩٣٧، ص ٤٧٨ - ٤٨٨؛ Ismail, Documents Diplomatiques, vol. 5, p 326

(٢) رستم، المحفوظات الملكية المصرية، الجزء الثالث، رقم ٤٠٢٦ و٤٠٨٣.

(٣) رستم، المحفوظات، الجزء الثالث، رقم ٤١٠٧.

وتداول ابراهيم مع بشير الثاني في التدابير لنزع سلاح الدروز. وفي أوائل تشرين الأول جاء ابراهيم باشا على رأس جيش قوامه ١٨ ألف جندي إلى دير القمر وبيت الدين والجبل المحيط بها. وأصدر الأمير بشير أمراً إلى الدروز لتسليم أسلحتهم خلال ثلاثة أيام وألا أُحرقت مساكنهم. وتوقع ابراهيم باشا الذي كان يعرف شجاعة الدروز أن يقاوموا عملية نزع سلاحهم. غير أن ظهور ابراهيم وجيشه المفاجىء وكون زعماء الدروز في المنفى حالا دون أية مقاومة[١].

ونزع سلاح النصارى بعد أيام قليلة. وعقب نزع سلاح الدروز جند ١٢٠٠ درزي في الجيش. وفي عملية التجنيد هذه كان يطلب من كل قرية تقديم عدد معين من الشبان. واشترك القرويون لجمع المال الذي كانوا يستدينونه أحياناً بفوائد فاحشة لدفعه إلى الذين وافقوا على الخدمة العسكرية[٢].

وفي سنة ١٨٣٧ طلبت حكومة دمشق مائة وسبعين مجنداً درزياً من حوران. فرفض الطلب وهُزمت الحملة التي أرسلت لتنفيذه. ومن المستبعد أن تكون حملة شنّت فقط للحصول على هذا العدد الضئيل من المجندين للجيش بل كانت بالأحرى ذريعة لبسط السيطرة على حوران حيث هاجر كثيرون لتجنب الضرائب الفادحة والتجنيد مما سبّب خسارة في العائدات والرجال في المناطق التي غادرها سكانها. بالإضافة إلى أن حوران وهي بلاد واسعة كانت أصبحت ملجأ للمتمردين والناقمين[٣].

كان ابراهيم باشا يحرز انتصارات باهرة على الجيش العثماني. أما في

(١) سليمان أبو عز الدين، ابراهيم باشا في سورية، ص ١٩٠ - ١٩٢.
(٢) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٥٨٤؛ Polk, The Opening of South Lebanon, pp 175-6
(٣) سليمان أبو عز الدين، ابراهيم باشا في سوريا، ص ١٩٨ - ١٩٩.

حوران فقد هزم الدروز قواته المرة تلو الأخرى. فبعد الحملة الأولى استدرج الدروز إلى اللجاه قوة من ثمانية الآف جندي فقضوا عليهم وتبعثر من سلم محلّقين كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة والمؤن [illegible] المصير ذاته قوة أخرى يتراوح عددها بين تسعة وعشرة الآف جندي في أعماق اللجاه. وإضافة إلى مزايا الدروز العسكرية وتعلقهم بأرضهم، فإن طبيعة أرض اللجاه، وهي منطقة صخرية وعرة، ملائمة لحرب العصابات ولا يجدي فيها التفوق في العدد والعدة[١].

وانتشى الدروز بانتصاراتهم فتغلغل عدد كبير من فرسانهم في قرى الغوطة وحثوا سكانها على القيام معهم لمهاجمة دمشق وإطلاق سراح المجندين من هذه القرى في ثكنات المدينة[٢].

وقد قدم ابراهيم باشا إلى حوران وقاد بنفسه إحدى الفرق الأربع في جيشه المؤلف من عشرين ألفاً والذي جاء به لقتال الدروز. ولإخضاع الثوّار كان لابد من حرمانهم من ينابيع المياه. وجرت معارك ضارية حول آبار المياه. وحارب كل من العسكر والثوار بثبات عزيمة وتكبد الجيش خسائر فادحة.

وأنزل الدروز في معركة من أشرس المعارك قرب قرية داما هزيمة قاسية بابراهيم باشا الذي تمكن بصعوبة من إخراج بقايا جيشه من اللجاه. وقبل أن يلقي الدروز السلاح جرى تسميم آبار المياه[٣].

ولقد تردد صدى انتصارات الدروز في حوران في وادي التيم الواقع في

(١) سليمان أبو عز الدين، ابراهيم باشا في سوريا، ص ٢٠٣ - ٢٠٥.
(٢) رستم، المحفوظات الملكية المصرية، الجزء الثالث، رقم ٥٣١٠.
(٣) يقص الشيخ حسين الهجري من كبار رجال الدين في مخطوطة له موجودة بين أوراقنا الأعمال البطولية التي قام بها الدروز ضد ابراهيم باشا وقد اشترك الشيخ حسين في هذه المعارك.

سفح جبل الشيخ حيث فتحت جبهة جديدة للتخفيف عن دروز حوران. وقاد ثورة وادي التيم شبلي العريان وانضم إليه ألف رجل من دروز لبنان [illegible] وهنا [illegible] في حوران كان عدد القوات التي تقاتل الدروز أضعاف قوات الدروز. وهنا أيضاً حضر ابراهيم باشا على رأس جنوده. وفي المعارك في وادي بكّا وجنعم انهزم الدروز لكن بعد أن ألحقوا بالقوات المهاجمة خسائر جسيمة في قتال شديد الضراوة. وعندما استسلموا عفا عنهم وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم على أن يسلموا سلاحهم فسلّموه وعندهم غيره. ولما ألقى دروز حوران السلاح حصلوا هم أيضاً من ابراهيم باشا على شروط سخية. فقد أعفوا من التجنيد والسخرة والضرائب وأذن لهم بحمل السلاح ومنحوا حق انتخاب شيوخهم؛ كما وعدوا بعدم إقامة حصون في بلادهم[١].

وأثناء حملة حوران اقترح شريف باشا حاكم سورية العام على ابراهيم باشا «تجنيد سبعة أو ثمانية الآف من نصارى جبل الدروز» وأن يسلّحوا بالبنادق الموجودة في عكا ويزحفوا بقيادة خليل نجل الأمير بشير. فاعترض ابراهيم باشا على هذا الاقتراح إذ لايتفق مع كرامة وهيبة الحكومة المصرية[٢]. غير أنه تم تسليح بضعة الآف من المسيحيين لمقاتلة مواطنيهم الدروز.

إن أمر إعطاء السلاح، إن كان صدر إلى بشير الثاني أو إلى المسؤولين المصريين، لاذكر له في المحفوظات المصرية[٣]. وإنه واضح من نص الأمر

(١) مشاقة، منتخبات، ص ١٢٦ - ١٢٧؛ سليمان أبو عز الدين، ابراهيم باشا في سوريا، ص ٢١٣ - ٢٢٠،

Cadalvene et Barrault, Deux Années de l'Histoire d'Orient, 1839-40, vol. 1, p 139

(٢) رستم، المحفوظات الملكية المصرية، الجزء الثالث، رقم ٥٣١٢ و ٥٣٢١.

(٣) Polk, The Opening of South Lebanon, p 288, n. 4.

حسبما جاء في «مذكرات تاريخية» التي نشرها الخوري قسطنطين الباشا عن مخطوطة [illegible] أن الوثيقة [illegible] كلام [illegible] تقول هذه الوثيقة. «فلما حضر الأمر من محمد علي إلى الأمير بشير بنقل السلاح إلى النصارى أصدر هذا أمراً وهذه صورة مضمونه...». إن العبارة «أصدر هذا أمراً» قد أسقطت من النص كما ورد في «الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا». وهذا النص مقتبس من مذكرات تاريخية[١].

إن هذا الأمر كان شؤماً على العلاقات بين الدروز والمسيحيين إذ كان الفريقان حتى ذلك الحين يعيشان معاً في وئام[٢].

إن الاحتلال المصري أسفر في بدايته عن فوائد ملموسة. فقد ساد القانون والنظام المدن والقرى والطرقات. وأمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم ونشطت الزراعة والتجارة. وأمر ابراهيم باشا بزرع آلاف أشجار التوت في سهل البقاع. وكان سهل انطاكية مغطى بأشجار الزيتون كما زرع الساحل في جوار بيروت بأشجار الكرمة، وأدخلت أساليب جديدة في إدارة الحكومة والقضاء والمالية. وكان التسامح الديني والمساواة بين الناس أمام القانون بصرف النظر عن انتمائهم الديني من أسس سياسة

(١) رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، الجزء ٣ - ٤، ص ٢٣١ قسطنطين الباشا، مذكرات تاريخية، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٢) كتب المطران يوسف دريان: أن الموارنة والدروز في جبل لبنان كانوا على أتم صفاء ووئام منذ وجدوا معاً تحت حكم الأمراء المعنيين والشهابيين، مما جعل الموارنة يمتدون في المتن والشوف والغرب ويساكنون الدروز في قراهم وجوارهم بكل سلامة وطمأنينة حتى فتح ابراهيم باشا المصري سوريا. وكان من اشتراك الموارنة في محاربة الدروز في حوران مع عسكر ابراهيم باشا ان تولد الحقد بينهم وبين الدروز وتأتت منها هذه الفتن في جبل لبنان.
المطران يوسف دريان، نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية، ص ٢١٠.

ابراهيم في سورية. وفتحت البلاد أمام التأثير الغربي مما أفاد في نشر التعليم وان كان له تأثير سلبي على الحياة الاقتصادية إذ حلت البضائع الأجنبية محل منتوجات الصناعة المحلية[١].

ثم ما لبثت متطلبات الاحتلال المصري ان فاقت فوائده. فكان طلب المال في ازدياد وكذلك طلب الرجال للانخراط في الجيش. ففرضت ضرائب جديدة وجرى احتكار محصول الحرير. وكان الرجال وحيواناتهم عرضة للسخرة كما فرضت ضريبة على الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٦٠ سنة من جميع الطوائف. كانت هذه الضريبة ثقيلة الوطأة خاصة وأنه كان على البلدة أو المنطقة أن تدفع المقرّر عليها ولو نقص عدد الرجال فيها.

وفي غضون ذلك شعر بشير الثاني بقرب نهاية حكمه فانهمك في تكديس الأموال. ولما نشبت الثورة سنة ١٨٤٠ شملت جميع سكان الجبل من نصارى ودروز وكانت موجهة ضد بشير الثاني وضد الحكم المصري على السواء[٢].

وكان نزاع محمد علي مع السلطان قد أصبح مسألة دولية. وبينما أيدت بريطانيا بقوة السلطان سنة ١٨٤٠ لم تهب فرنسا لمساعدة محمد علي. فدحر اللبنانيون ومعهم الجيش العثماني والبحرية البريطانية ابراهيم. وركب بشير شهاب الثاني سفينة بريطانية أقلته إلى المنفى في مالطا، واصطحب بعض أهله ومعه خزينته ومثمناته.

(١) رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، الجزء ٣-٤، ص ٧٣-٧٥؛ مشاقة، منتخبات ص ١٣٩؛ Cadalvene et Barrault, Deux Années de l'Histoire d'Orient, Vol. 1, pp 9-10.

(٢) مشاقة، منتخبات، ص ١٤٥-١٤٦؛ الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٦٠٢-٦١٠؛ Ismail, Documents Diplomatiques, Vol. 6, pp 295-6; Polk, The Opening of South Lebanon, 156.

أن نقول ان الأمير بشير الثاني لم يكن صديقاً للدروز يعتبر قولاً أقل مما تقتضيه الحقيقة. فقد جرى تجنيد الدروز ونزع سلاحهم بتحريض منه[١]. كما صودرت أملاك العائلات الدرزية البارزة وأفقرت الضرائب والابتزاز المجتمع الدرزي. وأدّى حكم بشير والاحتلال المصري إلى انخفاض كبير في عدد السكان الدروز إذ فضّل الكثيرون منهم الهجرة على الحياة في ظل حكومة معادية لهم. وكتب مبعوث فرنسي إلى لبنان أنه لو بقي حكم بشير المؤيد من حكومة محمد علي عشرين سنة أخرى لكان دروز الجبل قد أصبحوا ذكرى[٢].

وقد بقي الدروز قوة فاعلة ومجتمعاً ذا نفوذ في الجبل إلى حد أثار اعجاب الباحثين، فكتب أحدهم حوالى سنة ١٨٤٠: «أنه يكاد لا يُصدَّق هذه القوة المعنوية وهذا التأثير للدروز في الجبل»[٣].

وصدر مرسوم سلطاني بتاريخ ٦ رجب ١٢٥٦/٣ أيلول ١٨٤٠ بعزل بشير الثاني وتعيين بشير الثالث حاكماً للجبل. والامارة، في هذا المرسوم كما في السابق، هي «امارة جبل الدروز» وحاكمها «أمير الدروز»[٤].

(١) C. H. Churchill, Mount Lebanon, Vol. 2, p 304; Salibi, Modern History of Lebanon, p 47.

(٢) Ismail, Documents Diplomatiques, Vol. 9, pp 131-137.

(٣) F. Perrier, La Syrie sous le Gouvernement de Mehemet Ali Jusqu'au 1840, Vol. 1, p 312.

(٤) رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، الجزء الخامس، ص ١٧٢-١٧٤.

الفصل السادس عشر

المجتمع الدرزي

لقد حافظ الدروز، المجتمع الصغير عدداً، على ذاتيتهم وسط تغيرات واضطرابات متكررة جرت من حولهم منذ نشأتهم قبل ألف سنة تقريباً.

إن عدة عوامل، دينية واجتماعية وجغرافية عملت مجتمعة على الحفاظ على هذا الكيان جاعلة من الدروز مجتمعاً شديد التماسك.

إن الدين هو الرابطة الأساسية التي تربط بين أفراد هذا المجتمع فهو الباعث على نشأة المجتمع ومانح القوة التي دعمت بقاءه. إنه موضع اعتزاز المؤمنين الذين يرون فيه الحقيقة التي تمّ إبلاغها لهم بصفتهم النخبة وائتمنوا على الحفاظ عليها.

وقد عززت الرابطةَ الدينيةَ صلةُ القربى وطبيعةُ البلاد التي يسكنها معظم الدروز. فصلة القربى الوثيقة نشأت من كون الدروز لايتزاوجون إلاّ فيما بينهم. ولما كانت مواطن الأغلبية من الدروز بلاداً جبلية يصعب على الأغراب الوصول إليها فقد أتيح لهم مواصلة نمط حياتهم بحرية وأمان من التدخل الخارجي.

إن الاستقلال والتعلق بالأرض أمران أساسيان في حياة الدروز. وكانوا في مراكز كثافتهم السكانية أسياد أنفسهم يحكمهم أمراء منهم ويملكون الأرض ويمارسون بحرية معتقداتهم وقوانينهم وعاداتهم.

لقد قاتل الدروز باستمرار لحماية استقلالهم والحفاظ عليه. والشجاعة صفة بارزة من صفاتهم يحض عليها الدين. جاء في إحدى رسائل الحكمة: من خشي من بشر مثله سُلّط عليه، وأن الموحد الديان بتوحيد مولاه شجاع غير جبان. والاعتقاد بأن عمر الإنسان محدّد لايزيد يوماً ولا ينقص وأن النفس بعد مفارقتها الجسد تنتقل إلى جسد آخر يعزز الشجاعة ويبدد الخوف من الموت، فما الجسد إلاّ قميص للنفس، والموحدون لايخشون تمزيق أقمصتهم.

وكانت شجاعة الدروز مثار إعجاب الأغراب الذين عرفوهم. فكتب أحد هؤلاء، وكان أقام طويلاً بينهم: «إن شجاعة الدروز من الطراز الأعلى»[1].

وفي سنة ١٨٣٨ كتبت اللايدي هستر ستانهوب التي عاشت وماتت في بلاد الدروز: اعتقد أن الجيش الدرزي لايزيد حالياً عن ألفين وخمسمائة رجل ولكن كل رجل من هؤلاء الألفين وخمسمائة يوازي وحده عشرين»[2].

وابراهيم باشا الذي هزم في حروبه ضد العثمانيين جيوش السلطنة جيشاً اثر جيش ذاق الهزيمة على أيدي دروز حوران الذين دعّمت بسالتهم وعورةُ الأرض التي اختاروها ميداناً للمعركة.

وكلما غامر الأتراك بدخول حوران للاعتداء على استقلال الدروز كانوا يجابهون بثورة مسلحة ترغمهم على ترك الجبل وأهله وشأنهم.

وكانت ثورة الدروز ضد الفرنسيين، التي بدأت سنة ١٩٢٥ وأشعلت

(١) C. H. Churchill, Mount Lebanon, vol, 2, p 312

(٢) Lady Hester Stanhope, Memoirs, vol. 3, p 310

نيران الثورة السورية ضد الدولة المنتدبة، غنية فيما أبرزت من أمثلة على [illegible] فرنسا إذ ذاك في ذروة قوتها العسكرية كما كان البون شاسعاً جداً في المعدات القتالية التي لدى الفريقين. وبينما استخدم الفرنسيون الدبابات والطائرات في الحرب لم يكن لدى الدروز سوى أسلحتهم التقليديـة من بنـادق وسيوف. وفي ظروف كهـذه كانـت انتصاراتهم مثيرة حقاً. وقد كبدوا الفرنسيين خسائر فادحة قبل أن يتمكن هؤلاء من إخماد الثورة بعد سنتين من نشوبها. وقد وصف ضابط فرنسي المقاتل الدرزي بأنه خصم خطير يبدي شجاعة فائقة في الدفاع وفي الهجوم المضاد. وكان الكابتن بورون يسجل خبرته الشخصية حين كتب: في الدرزي يقترن التصوف إلى عضلات محارب. النصر أقل أهمية في نظره من المعركة ذاتها، فهو يرى الثورة، ولو قمعت بالقوة، انتصاراً أخلاقياً إذ تبرز للعالم تعلقه بالاستقلال. ومن أجل المعركة فهو يضحي، غير آسف، بكل ما يملك[1].

ومع أن غيرتهم على استقلالهم جعلت الدروز مستعدين دائماً للقتال فالحرب لم تكن شغلهم الشاغل. ولما كانوا من ساكني الجبال فإنهم اعتمدوا على الأرض في معيشتهم، فكانت الزراعة مهنتهم الرئيسية، عملوا فيها بنشاط وحيوية كما تشهد بذلك مصاطب المنحدرات الجبلية. وقد حوّلوا بالعمل المضني والصبر الشديد المرتفعات الصخرية إلى أرض منبسطة ذات تربة خصبة مرتبة في مدرجات يدعم كل مدرج حائط حجري يمسك التربة ويحفظ المياه من أن تهدر في الوادي. وقد أبهج منظر المدرجات المزروعة الزائرين الأجانب الذين أعجبوا بالجهود التي تغلبت على وعورة الأرض واستفادت من كل شبر من التربة. وكتب أحد هؤلاء، وكان زار البلاد في

(١) N. Bouron, Les Druzes, pp 352, 406

القرن الثامن عشر، ان في الحراثة شرف عند الدروز كما في حمل السلاح[1].

ونظراً لتعودهم منذ الصغر على العمل الشاق في الأرض وعلى حياة لاإسراف فيها، فالمشروبات الروحية محرمة دينياً، يتمتع الدروز بأجسام قوية وصحة ممتازة.

وكما لاحظنا وجود قوى موحّدة في المجتمع الدرزي كانت هنالك كذلك عوامل تفرقة كالمنازعات بين القيسية واليمنية والحزبية اليزبكية-الجنبلاطية. وقد أثارت العشائرية انفعالات عنيفة وصاحب الثأرُ المنازعات العائلية. وبالرغم من ذلك فإن التضامن أساسي في المجتمع الدرزي وله جذور عميقة. ويسود شعور بالأخوة هذا المجتمع الذي يدعوه الدروز « الجماعة ».

ومن القوى التي تعمل للوحدة العقّال. فالمجتمع الدرزي ينقسم إلى عقّال وجهّال تبعاً لسلوكهم بموجب المقاييس الدينية. وكلمة عقال التي تضفى على النخبة الروحية تعكس إجلال الدروز للعقل الكلي أول المخلوقات. والعقال المثاليون يتميزون بتقواهم وحياتهم القائمة على الفضيلة. يتسمون بالوقار والسكينة وفي كلامهم التأني والتروي. والاعتدال يحكم سلوكهم فهم يمقتون التطرف والتهور في أي شكل كان. ومن صفاتهم ضبط النفس وكبت الغضب وجميع المشاعر العنيفة. وهم زاهدون في متاع الدنيا، ومنهم من يرفض المناصب والأحكام ولا يأكلون على موائد الحكام خشية أن يكون من المال الحرام. وبعضهم يمارس التقشف الشديد كالصوم طيلة اليوم والإفطار في المساء على الخبز والماء. وكان الشيخ حسين ماضي (المتوفى سنة ١٢١٥/١٨٠٠) من الأتقياء والزهاد. ومن زهده أنه كان

(١) Puget de Saint Pierre, Histoire des Druzes, p 162

يمتنع عن أكل الفواكه. كان كلما جاء موسم نوع من الفاكهة يتناول منها شيئاً يسيراً ثم يمسك عنها إلى السنة القادمة. ولما سُئل عن ذلك قال إنه لو لم يذق فاكهة خامرته الكبرياء ولو بقي على أكلها ضاع التقشف. ومن العقال المتنزهين من يظل عازباً فإن تزوج فلا يعاشر زوجته التي تكون قد وافقت على ذلك لأنها هي أيضاً من العقّال.

أما الجهّال فصفتهم هذه لاتعني جهلهم العلم والمعرفة. وإنما وصفوا بالجهل لصفات تتعارض مع خُلُق العقال. فالعاقل، ضد الجاهل، لأنه يعقل نفسه ويردها عن هواها، كما قال أحد كبار العقال[1]. ومن صفات الجاهل التهور وسرعة الغضب والحمية المتطرفة وفقدان ضبط النفس. فالجهل هنا يطابق الصفات المقرونة بعصر الجاهلية والتي تنافي الحلم.

والعقال هم حفظة العقيدة لأن لهم وحدهم قراءة وتفسير الكتب الدينية. وهم يرشدون الجهال إلى السلوك الذي يؤهلهم للإطلاع على هذه الكتب والاشتراك في العبادة التي تقام في المجلس ليلة الجمعة وحضور اجتماعات أخرى حيث تقرأ الكتب الدينية وتبحث المسائل الروحانية. إن تعليم الآخرين الحكمة واجب ديني، انه وجه من وجوه التكافل الذي توصي به العقيدة. والجاهل الذي يسعى للدخول في صحبة العقال عليه أن يمضي فترة امتحان يتحقق أثناءها شيوخ بلدته من صلاحه وزكاء سيرته. وإذا انحرف العاقل عن نمط السلوك المتعارف عليه يُبعد أي يُحَرم عليه قراءة كتب الدين ويمنع من حضور الاجتماعات الدينية. والإبعاد رادع عن الانحراف قوي إذ يحمل في طياته وصمة عار تأثيرها بالغ في مجتمع صغير ومتضامن. ووصف السيد عبد الله التنوخي ما يصيب المُبعَد من الهمّ والغم ما يوازي نزع روحه نتيجة انقطاعه عن مرشده وحجب حكمة

(١) ناصر الدين العيد، الدرّة المضيئة.

التوحيد عنه وهجرانه من شيخه وإخوانه والغضب عليه واشهاره مطروداً مبعوداً[1].

وللعقال نفوذ واسع في المجتمع الدرزي. فهم يراقبون بحرص الأخلاقيات والتصرفات. كما أن لهم صوتاً مسموعاً في الشؤون الزمنية. وللعقال دور كبير في صنع السلام. فبواسطتهم كثيراً ما سوّيت منازعات وعولجت عداوات وتمت مصالحات بين العائلات والجماعات المتخاصمة. وكان يستعاض غالباً بدور العقال التوفيقي عن اللجوء إلى المحاكم للفصل في الادعاءات المتضاربة والمتعلقة بحدود الملكية وحقوق مياه الري والميراث وغيرها من الشؤون العائلية والقروية. ونظراً لاهتمامهم النشط بخير الجماعة وكثرة التزاور فيما بينهم، ولو بَعدَت المسافة، فقد كان العقال قوة توحيدية ساهمت في تضامن المجتمع الدرزي.

ومع حرصهم على السلام فقد قاتل العقال في صفوف الشعب في معارك الحرية والاستقلال. فمثلاً الشيخ حسين الهجري الزعيم الديني البارز في حوران كان من أبطال الحروب ضد ابراهيم باشا.

وكان نفوذ العقال واحترام الناس لهم عاملاً في كبح جماح السلطة التعسفية للحكام والزعماء الإقطاعيين. فلما حاول الأمير يوسف شهاب سنة ١٧٨٠ فرض ضريبة جديدة إضافة على الضرائب التي كان جباها عقد عقال البلاد اجتماعاً في السمقانية وساروا بقيادة شيخ العقال يوسف أبو شقرا إلى دير القمر حيث مقر الأمير. فلما دخلوا عليه شكوا من حالة فقر البلاد وهددوه بما سيكون من عواقب. فقال الأمير للشيخ يوسف أن البلاد لاتتسع ليوسفين. فأجاب الشيخ: « المنضاق يرحل ». ودق بعصاه

(١) السيد عبد الله التنوخي. الشرح على الرسالة الثالثة عشرة.

على البلاط وفعل فعله الشيوخ الآخرون حتى ارتجت السراي وتركوه وهو بغاية الخوف منهم[١].

وبعض العقال ينقطع إلى مكان خارج القرية يدعى خلوة حيث يعيش حياة النساك الزاهدين. وأشهر هؤلاء الزهاد الشيخ الفاضل محمد أبو هلال المتوفى سنة ١٠٥٠ / ١٦٤٠. وقد كتب سيرته أحد مريديه الذي شاطره خلوته في جبل الشيخ سنين عدة. وكان الشيخ في عزلته قريباً من الناس إذا دعت الحاجة إلى مساعدته. فإذا حدث خلاف بين أهل ناحية ما سعى في الصلح تارة بنفسه وتارة بإرسال من يحمل نصيحته، وكان دائم السعي في لمّ الشمل بين الإخوان وإعادة الصفاء والوئام. وكان يقطع عزلته في كل صيف لتوجيه وإرشاد الكثيرين الذين كانوا يتوقون لرؤيته وسماعه. وكانوا يأتونه جماعات من أماكن بعيدة كحلب ويقيمون لدى الإخوان في قرية هادئة يحتضنها الجبل. وكانت الاجتماعات تعقد في الصباح وبعد الغداء في الهواء الطلق وتحت الأشجار في بقعة أضفت عليها الطبيعة جمالها والهدوء المؤدي إلى التأمل والعبادة. وفي المساء كانوا يجتمعون في مجلس القرية. وفي هذه الاجتماعات كان الشيخ الفاضل يعلم ويوجه ويشرح وينصح فيصغي إليه الجميع بشوق وانتباه. وكانوا يطرحون على الشيخ الأسئلة وينشدون الإيضاح ويعرضون أمامه المشاكل والمصاعب. فتلقى أجوبته في نفوسهم الارتياح وتقابل تسويته للخلافات بالطاعة. وفيما بينهم، وبينما كانوا ينتظرون قدوم الشيخ إليهم، كان الإخوان يتذاكرون بالخير ويتبادلون الآراء والأفكار. فصارت تلك المدة فرحاً للإخوان وزيارة ينتظرونها من عام إلى عام[٢].

(١) مخطوطة محمد أغا أبو شديد عبد الصمد.

(٢) نشر عجاج نويهض سيرة الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي وآداب الشيخ الفاضل.

يوجد خلوة في كل قرية درزية تقريباً، ومؤسس الخلوة يوقف عليها بعض الأملاك لصيانتها. وغالباً يخصص في الوصايا هبات للخلوة والمجلس في قرية الموصي. وبين وصايا بعض الموسرين ما ينص على توزيع الهبات على الخلوات والمجالس وأهل التقوى وذلك من أقصى البلاد إلى أقصاها. ومن هذه الوصايا وصية الشيخ أحمد أمين الدين صاحب الوقف الشهير. والوصية مؤرخة في رجب ١٢١٨ / ١٨٠٣ وتنص على توزيع مبالغ من المال وكميات من زيت الزيتون في كل سنة إلى المجالس والخلوات والى الأتقياء في جميع أنحاء جنوبي لبنان ووادي التيم والإقليم (الجولان) وغوطة دمشق وتشمل نحو ستين قرية فضلاً عن دمشق وبيروت[١].

وإذا كانت وعورة الجبال وصعوبة المسالك عرقلت التدخلات من الخارج فمن الجلي أن ذلك لم يكن عقبة في طريق الاتصال النشط بين المجتمعات الدرزية مهما كانت مساكنهم متباعدة.

من المعروف عن الدروز المحافظة على الأنساب، ففيهم أمراء ومقدمون ومشايخ وأعيان، ومن المشايخ خمس أسر كانت تتولى اقطاعات، والكثرة من العامة. وجرت العادة أن تتزوج كل فئة فيما بينها. ولكن نظراً إلى العوامل الأساسية الموحدة فالكل تجمعهم خصائص مشتركة.

إن الالتزامات المتبادلة تقرر العلاقة بين الزعماء وأفراد المجتمع. ففي الحرب يتقدم الزعماء المقاتلين ويضربون مثلاً يحتذى في الشجاعة والجرأة. ويسير الناس خلفهم في نظام وطاعة واثقين بقادتهم وشاعرين بوحدة مصالحهم.

(١) إن وصية جدنا سليمان بن جابر أبو عز الدين المؤرخة في ربيع الثاني سنة ١١٧٣ / ١٧٥٩ تنص على هبات إلى مشايخ أجلاء وخلوات ومجالس في ثلاثين قرية في مقاطعات جنوبي لبنان: المتن والغرب والشوف والجرد. وبما أن أحراج الصنوبر متوفرة في المتن والصنوبر محصول مهم فالهبات كانت من الصنوبر عوضاً عن زيت الزيتون مع مبالغ من المال.

ومن مستلزمات الزعامة حسن الضيافة وهي صفة درزية عامة. وعن [illegible] يكون واثقاً من الحصول على المأوى والطعام بسخاء واريحية.

إن حسن الضيافة على نطاق واسع كان سمة أجيال من آل جنبلاط في قصرهم بالمختارة حيث كان وجود مئات من الضيوف على الطعام أمراً مألوفاً. وكان الشيخ لايغادر المأدبة إلاّ بعد أن تنتهي المجموعة الأخيرة من الضيوف من تناول الطعام. حينئذ فقط يترك مقعده.

والضيافة تشمل منح اللجوء لطالبي الحماية. وحماية المستجير التزام مقدس فلا يمكن التخلي عنه ولو عرّض المجير حياته للخطر وأملاكه للدمار على يد مطاردي المستجير. لقد كان لهذه السمة وقع كبير في نفس بركهارت الرحالة الذي عُرف بدقة ملاحظاته، فكتب يقول: « قمت بتحقيقات خاصة عن هذا الموضوع وإنني مقتنع بأنه لايمكن لأي اعتبار للمصلحة أو خوف من القوة أن يحمل الدرزي على تسليم شخص استجار به »[١].

ومن صفات الدروز الشعور بالكرامة، يشترك فيها الرفيع منهم والوضيع. فهي صفة قوم أحرار لم يكن للقوى الخارجية سوى سيطرة ضئيلة عليهم، كما أن علاقاتهم مع زعمائهم تقوم على المصالح المشتركة والاعتماد المتبادل بعيداً عن الخنوع. ويشترك الدروز من جميع الفئات الاجتماعية في كياسة وآداب تجدها في مجتمعات أخرى مقرونة إلى الطبقات الاجتماعية العليا. وقد اندهش المراقبون الأجانب الذين اعتادوا على خشونة الفلاحين من تهذيب الفلاحين الدروز[٢].

وللاحتشام واللياقة في الكلام والمظهر والسلوك أهمية كبيرة عندهم.

(١) Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, p 203

(٢) Volney, Voyage en Syrie et en Egypte, vol. 1, pp. 462-463

والمشهور عن الدروز حفظ اللسان عن التفوه بفاحش الكلام. قال كرنيليوس فانديك، وهو مربي أمريكي قضى حياته بين الدروز، إنه لم يسمع مطلقاً درزياً واحداً تفوه بكلمة غير لائقة.

وبالنسبة لمجتمع ريفي يعيش في مناطق معزولة نسبياً فإن دماثة الدروز تجاه الأجانب صفة جديرة بالذكر. فالطمأنينة التي يلتقون بها الأجانب والمودة التي يظهرونها للغرباء هي صفات شعب واثق من نفسه.

الفصل السابع عشر

المرأة الدرزية

الموحدون إخوة وأخوات، جماعة من المؤمنين والمؤمنات. وفي رسائل الحكمة يُقرَن ذكر الإخوان والموحدين مع الأخوات والموحدات، كما أن هناك أربع رسائل من حمزة وبهاء الدين خصصت للمرأة، منها اثنتان موجهتان إلى النساء واثنتان إلى البنات.

وتتعلق الرسالة الخامسة والعشرين بالزواج وجهها الإمام حمزة إلى الدعاة والقضاة يوضح لهم فيها القواعد التي ينبغي أن تنظم حقوق وواجبات الزوج والزوجة. الرسالة تقيم مبدأ المساواة. فشروط الديانة، كما يقول حمزة، توجب على الزوج الموحد أن يساوي زوجته بنفسه وينصفها من جميع ما في يده. فإن أوجب الحال فرقة بينهم وكان لا بد للمرأة من فرقة الرجل، وعَلِم الثقات تعديها عليه وإنصافه لها، فله من جميع ما تملكه النصف. وإن عرف الثقات أنه محيف عليها خرجت بجميع ما تملكه. أما إذا اختار الرجل فرقتها بلا ذنب لها إليه فلها النصف من كل ما يملكه.

ولقد شرح هذه الرسالة السيد عبد الله التنوخي وأفاض في معناها وما تنطوي عليه. والرسالة شرط وعنوانها «شرط الإمام» يؤكد طبيعتها الملزمة على الموحدين الذين يقدمون على الزواج بنية صادقة للعيش في توافق ومودة وأن يعملوا في حالة الانفصال طبقاً لما يقتضيه العدل والحق.

والرضى في الزواج يكون من الفريقين، فالمرأة ترضى بزواج الرجل من تلقاء نفسها والرجل يختار المرأة بكامل إرادته ورضاه، ان زواج المرأة ضد إرادتها حرام محض.

وفيا يتعلق بمبدأ المساواة فإن قول حمزة «يساويها بنفسه» يعني المساواة في الدين والدنيا. ويشدد السيد عبد الله على واجبَ الرجل تعليم المرأة وإرشادها إلى الخير. فإذا كانت تجهل الخط يعلمها القراءة والكتابة، وإن كانت قارئة يقويها وينشطها، هذا إذا كان قادراً أن ينهض بالإرشاد والإفادة. وإن لم يكن قادراً على ذلك فعليه اصطحابها إلى من هو أعلم منه فيعلمها معاً ويرشدها إلى الدين. «ولا يجوز له السعي إلى الشيخ الرشيد يعلمه الدين ويتركها في شغل بيته تثمّر في دنياه بل يساويها بنفسه حسب الشرط الشريف». وإذا كان الزوجان قريبين في القوة في العلم والنشاط في طلبه فيسعيان معاً للزيادة في العلم والاستفادة. وإن كان هو أقوى وهمته أشد من همتها في طلب العلم والإفادة فيسعى هو الى المفيدين وتستمر هي في بيتها، إلاّ نادراً ترافقه، بشرط أنه مهما تعلم واستفاد فيفيدها من ذلك ويعلمها جهد استطاعته. وإن كانت هي أعلم منه وأرغب وأقوى في تحصيل الحكمة فيكون سعيها إلى المفيدين أكثر، ويرافقها الزوج إذا استطاع أو تذهب مع محرم أو تسعى إلى الإفادة مع غيرها من النساء. ففي التعليم، والواضح أنه يعني التعليم الديني، على الرجل أن لا يفضل نفسه على المرأة بحال من الأحوال. بل التفضيل بالأحرى من نصيب المرأة إذ يقول السيد عبد الله: وإن كانت المرأة لاتعرف الخط ولا هو أيضاً فيجلب لها من محارمها من يعلمها الخط ولو خسر على تعليمها جانباً من رزقه. فيكون بذل الجهد في تعليمها الدين والخط والآداب والواجبات بنفسه أو بغيره، وبذلك سلك سبيل الحق وامتثل الوصية أن يساويها بنفسه.

وكما فرض على الرجل أن يساوي المرأة بنفسه كذلك يجب على المرأة أن تساويه بنفسها في الدنيا والدين إن كانت أغنى وأعلم منه ليقع بذلك النصفة والعدل بينهما.

وطاعة الرجل واجبة على المرأة، والطاعة ثمرة حسن المعاملة. يقول السيد: «على قدر المحبة تكون الطاعة». ويصف السيد المرأة الخيّرة الديّنة العالِمة العاملة بالمرأة الرئيسة. فإذا ظفر الرجل الصالح الديّن العاقل العالِم العامل بمثل هذه المرأة الرئيسة فلتكن عنده عديل نفسه. وبمثل هذه الأوصاف المنعوت بها الرجل الصالح والمرأة الصالحة تكون المصاحبة بين المرأة وزوجها والتآلف والتحابب والتعاون على البرّ والتقوى.

وإذا وقع النفور بين الزوجين يجب أن يعلم الثقات ليسعوا بالوفاق بينهما. وإذا كان لابد من الفراق فللمرأة، أسوة بالرجل، الحق في طلب الفرقة. وأيهما كان المعتدي فللآخر الحق في نصف ما يملكه. وتكون الأحكام في أمر الطلاق بشهادة الثقات الصالحين.

ويشدد السيد على مساواة المرأة بالرجل بتكراره أن الزوج والزوجة مرتبطان معاً بحقوق وواجبات متبادلة وأن المرأة هي أخت الرجل في الدين وعونه في أمور الدنيا وأن حياتهما معاً هي شركة فيما يعود عليهما بالخير دنيا ودينا.

والمساواة حكم يجري في كل المراحل، فلا يتم الزواج إلاّ برضى الفريقين، وفي الحياة الزوجية يساوي الرجل المرأة بنفسه في الدنيا والدين. كما عليها أن تساويه بنفسها. وعند الفراق التساوي لازم. فمن خرج منهما عمّا فُرِض عليه في الشرط فجزاؤه نصف رزقه حتماً. ويختم السيد شرحه بقوله: إن «شرط الإمام» هذا يقيم العدل الكلي المحض بين

الزوجين، فليس في شروطه جميعها مزية للرجال على النساء.

وحث السيد على تعليم المرأة في شرحه للرسالة الخامسة حين قال: والزوجة التي لها همة في الدين ورغبة صادقة في تحصيل العلم الشريف ينبغي أن تتوفر من كثرة الأولاد لتحصل من الدين ما يقربها إلى رب العالمين، فيكسب الرجل منها أجراً عظيماً إذا أراحها من كثرة الأولاد ويكون ذلك سلمًا لها إلى نيل المعالي وتحصيل الحقائق.

إن السيد عبد الله في تأكيده على التعليم الديني للمرأة كان يصدر عن تعاليم مذهب الدروز في هذا الشأن، فمنذ البداية شاركت المرأة مشاركة كاملة في الاستجابة للدعوة وفي نشرها. وكانت الرسائل التي بعث بها حمزة وبهاء الدين تقرأ في تجمعات من النساء مثلما تقرأ للرجال، كما أمر الدعاة بأن يعلموا النساء أسوة بالرجال. وتوصي إحدى الرسائل الداعي بأن يولي اهتمامه تربية البنات الدينية وحثهم على تعلم الحكمة[1].

وعلى المرأة وهي تصغي إلى قراءة الداعي أن تعي ما تسمعه. بذلك يوصي حمزة في «ميثاق النساء» حيث يقول: لتصغين الامرأة إلى القراءة بأذنها وتدبر ما تسمعه بقلبها وتميز معانيه بعقلها ليتبيّن لها حقيقته. وإذا انعجم بعضه عليها فلها أن تسأل الداعي عنه، ويجيبها الداعي إذا كان عنده علم عنه، وإلاّ يعدها أن يسأل من هو أعلى منه. وإذا لزم الأمر يرقى بالسؤال إلى الإمام أو من يقوم مقامه، فإذا عرف الجواب أجابها إن رآها أهلاً لذلك.

وفي رسالة ثانية وجهها حمزة إلى النساء يوصيهن بأن يقابلن ما يتلى عليهن بعقل رصين ولب حصين. إن النساء اللواتي يخاطبهن حمزة سبق أن تفقهن في المذهب الاسماعيلي - الفاطمي وحضرن مجالس الحكمة، وقرأن

(١) الرسالة ٤٧.

كتاب دعائم الإسلام وغيره من الكتب التي ألّفها القاضي النعمان[1].

وفي الأحوال الشخصية [illegible] لا يجوز تعدد الزوجات، كما مُنع التسري والمتعة. «والشريعة الروحانية» إذ تحرم على الرجل الجمع بين امرأتين تعطي قوة القانون للنصيحة التي أسداها الخليفة المعز لدين الله إلى رؤساء قبيلة كتامة بأن يكتفي الواحد منهم بزوجة واحدة[2].

وقد تمتعت النساء الدرزيات دوماً بحق التملك والتصرف بحرية فيما يملكن. وفيما يتعلق بالميراث، فإن لم يكن للمورث وصية تقسم التركة بمقتضى الشريعة الإسلامية طبقاً للفقه السني. غير أن السائد عند الدروز كتابة وصية وتوزيع الإرث عملاً بما تنص عليه[3]. والوصية فرضت على الموحدين لتكون تذكرة دائمة للموت. وجرت العادة أن تقسم التركة بين الذكور ويخصص للاناث مسكن ودخل من الأملاك. وتخصيص الذكور بالتمليك لايقصد به الانتقاص من حق المرأة. وإنما تفاديًا من انتقال أملاك عشيرة أو أسرة إلى غيرها ومنعاً للمنازعات التي قد تنشأ من ذلك الانتقال. وللنساء حق شرعي وأخلاقي على أقرب الذكور إليهن لإعالتهن. وللزوجة حق الوصاية على الأولاد القاصرين. أما الطلاق فكان في الواقع يخضع لإرادة الزوج، وذلك خلافاً لتعاليم السيد عبد الله. غير أن صلة القرابة واعتبارات اجتماعية أخرى كانت تكبح ممارسته. والزيجات على العموم ناجحة وثابتة.

إن تعاليم الدين ومكانة الدروز في الجبل أعطت المرأة الشعور بالثقة والاعتماد على النفس اللذين يتمتع بهما قومها ككل. وليس من قبيل

---

(1) الرسائل ٨ و١٨.

(2) الشريعة الروحانية ص ٢٣٨؛ المقريزي، الخطط. الجزء الثاني، ص ١٦٤.

(3) في كل وصية يخصص مبلغ من المال للفقراء.

الصدفة أن النساء الشهيرات في المجتمع اللبناني كنّ درزيات.

فمنذ بدء الدعوة برزت الست سارة التي [illegible] صانعة للسلام. أوفدها بهاء الدين، وهي ابنة شقيقه، على رأس بعثة إلى وادي التيم عقب الاضطرابات التي أثارها دعاة انحرفوا عن السبيل السوي. وهذه البعثة التي ضمت رجالاً اجلاء لم ترَ ما يدعو إلى عدم الارتياح من أن ترأسها امرأة. ومرة ثانية عيّنها بهاء الدين على رأس وفد تقرر إرساله إلى زعماء القرامطة في البحرين حاملاً إليهم كتاباً يذكرهم بمآثر أسلافهم في سبيل الدعوة ويدعوهم إلى اقتفاء آثارهم. وبعد كتابة هذا الكتاب في صفر سنة ٤٣٠ / ١٠٣٨ ظهرت عقبات أعاقت سفر السيدة فمضى الوفد بدونها. ولم تُذكر العقبات، وقد يكون من بينها فقدان الأمن على الطريق. ولقد كان قراراً جريئاً التفكير بإرسال امرأة في بعثة مهمة عبر المسافات الشاسعة التي تفصل بين القاهرة والبحرين.

ونظراً لندرة المعلومات عن مستهل تاريخ الدروز فليس غريباً أن تكون المرأة الشهيرة الثانية التي نعرف عنها هي الست نسب والدة الأمير فخر الدين المعني الثاني. فقد توفي زوجها الأمير قرقماز قبل أن يبلغ فخر الدين وشقيقه يونس سن الرشد. فقامت، بمعاونة شقيقها الأمير التنوخي سيف الدين، بتربيتهما والمحافظة على إرثهما إلى أن بلغ فخر الدين أشدّه. وكان لها عند فخر الدين أعلى مقام، وعُرف عن الأمير أنه لم يكن يقرر أي أمر خطير إلاّ بعد الوقوف على رأيها.

ومن النساء اللواتي تقدمن على اقرانهن من الرجال الست حبوس أرسلان وقد اشتهرت بسداد الرأي وعلو الهمة. حكمت خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر منطقة الغرب الأدنى وسهل بيروت وذلك مع وجود أمراء أرسلانيين فيهم الكفاءة لشغل هذا المنصب. وكان أعيان الجبل

يفدون إلى دارها في الشويفات للتباحث في شؤون الجماعة وما يعود إلى نفعها. وكان أتباعها المتقاضون للفصل في قضاياهم، فكانت الست حبوس تقضي بينهم وتصدر أحكاماً يلتزمون بطاعتها.

وكانت نساء آل جنبلاط يصرفن بكفاءة المسؤوليات المترتبة عليهن بحكم الزعامة المعترف بها لأسرتهن. وفي بعض الأحيان كانت السيدة، بعد وفاة رب الأسرة، تتولى مسؤولية شؤون العائلة بما في ذلك إدارة أملاكها الشاسعة والقيام بمهات الزعامة. وبهذه الصفة كانت تتلقى الاحترام والطاعة المتوجبة للزعيم. وكانت زوجة الشيخ بشير جنبلاط وابنته سيدتين تقيتين وقديرتين. وقد بنى الشيخ جامعاً في فناء قصره بالمختارة ورتب له وقفية سخية شملت عدة مزارع وضياع، وجعل من بعده زوجته ناظرة على الجامع والوقف وهي مسؤولية توكل عادة للرجال.

وقد تزوجت الست نايفة ابنة الشيخ بشير في عائلة شمس ذات النفوذ في حاصبيا بوادي التيم. وترملت في الثلاثين من عمرها فتولت مقاليد زعامة المنطقة دون منازع إذ كانت تتمتع بالصفات التي تؤهلها لهذه المهمة. وخلال اضطرابات سنة ١٨٦٠ حينما حاصر الدروز قلعة حاصبيا ذهبت إلى القلعة تحت وابل من نيران المعركة وأخرجت منها النساء والأطفال المسيحيين وحمتهم في منزلها[١].

وتمثل تقواها في الإحسان وعمل الخير، ووصلت صدقاتها إلى جبل حوران. وأقامت في أوقات الشدة مركزاً لتوزيع الطعام على الفقراء والمحتاجين من جميع الطوائف. وكانت الست نايفة موضع احترام كبير عند الحكام والناس عامة، على السواء المسيحيين منهم والمسلمين. والشاهد الحي على مبراتها خلوات البياضة التي بنتها على جبل فوق حاصبيا وأوقفت عليها الأملاك لصيانتها.

(١) H. H. Carnarvon, Recollections of the Druzes of the Lebanon, p 29.

وآتبعت الست نظيرة جنبلاط تقاليد نساء عائلتها إذ تولت عند وفاة زوجها في سنة ١٩٢١ مسؤولية الزعامة. وكانت شابة كما كان ابنها كمال وريث البيت العريق طفلاً. وقد تزامنت زعامتها مع حقبة اضطرابات في البلاد. وكان الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان قد بدأ حديثاً وقوبل الحكم الفرنسي في لبنان كما في سورية بامتعاض الدروز. وفي تعاملها مع السلطات الفرنسية كانت الست نظيرة حكيمة ولبقة. وقد عملت جهدها لتجنب صدام كبير بين الدروز ودولة الانتداب. وفي منطقتها الشوف كانت في الواقع حاكمة، وكانت تقضي في المنازعات وتحل الخلافات وتسوي المصالح المتضاربة ودياً. واستخدمت نفوذها لدى السلطات في سبيل الخير العام. إن الوفود القادمة إلى المختارة يومياً، وكثيراً ما كانت الجماهير تملأ قاعات القصر الرحبة، كانت شاهداً على ثقة الناس بزعامتها. ولما تولى كمال جنبلاط في سنة ١٩٤٣ مسؤولياته تلقى من والدته زعامة عالية القدر.

ولم يكن نادراً وجود نساء عُرفن برجاحة العقل وسعة الإدراك، كما لم يكن من غير المألوف أن يطلب الرجال نصيحتهن ورأيهن في الأمور الهامة.

وعُرفت نساء كثيرات بالتقوى. وكان كبار القوم وعامتهم يحترمون التقيات ويسعون لنيل رضاهن ومن اللواتي اشتهرن بالتقوى الست أم علي فاخرة من أسرة البعيني في مزرعة الشوف التي بلغت من التقوى والمعرفة في الدين درجة عالية جداً. عاصرت الشيخ بشير جنبلاط وولده سعيد بك وكلاهما كان يلتمس رضاها وبركتها. وكان كبار رجال الدين

والحكام المعاصرين يسعون لزيارتها والتماس بركتها. وكانت الست فاخرة القاضي من يصور ديّانة وعلى جانب عظيم من الذكاء والاطلاع والمهابة، ولها خط نسخي جميل. كانت تستقبل في مجلسها كبار زعماء الدروز، وكان الشيخ حسين تلحوق الكبير يستشيرها في الأمور الخطيرة.

هذا بالنسبة للنساء البارزات. أما فيما يتعلق بعامة النساء فإنه لم يكن هناك مكان في مجتمع ريفي للمرأة المترفة المرفهة، بل المرأة تشارك الرجل العمل في تدبير أمور المعيشة وتقاسمه حياة متسمة بالاقتصاد والبساطة.

وفيما يتعلق بتعليم المرأة فعلينا أن نعتمد على الاستنتاج. فتأكيد الإمام حمزة في رسائله والسيد عبد الله في شروحاته على التعليم الديني للنساء وقراءتهن الحكمة وفهمها يجعلنا نفترض أنه كان هناك عدد لايستهان به من النساء الدرزيات يعرفن القراءة والكتابة. كما هنالك ملاحظات دونها مراقبون أجانب. فقد كتب بيجيه ده سان بيير في منتصف القرن الثامن عشر أن النساء الدرزيات أحسن تعلماً في الدين من الرجال وهذا يعطي النساء ميزة كبيرة[1]. وكتب الكولونيل تشرتشل أنه في أيام الأمير التنوخي ناصر الدين حسين (٦٦٨ - ٧٥١ / ١٢٦٩ - ١٣٥٠) انتشرت القراءة والكتابة حتى بين الإناث. ويتابع قائلاً: وفي هذا الصدد فإن نساء المشايخ الدروز يحتفظن حتى هذا اليوم (أواسط القرن التاسع عشر) بتفوق ظاهر على بقية جنسهن في طول البلاد وعرضها[2]. وكتب مؤرخ لبناني منذ أكثر من مائة سنة: «وأما نساء الدروز فقلما يوجد بينهم من الجاهلات أو من لا تعرف القراءة»[3]. إنه مما يتفق مع الواقع أن قلة من الدرزيات جاهلات بمعنى

(١) Puget de Saint Pierre, Histoire des Druzes, p 167

(٢) Churchill, Mount Lebanon, vol, 1, p 287

(٣) ميخائيل مشاقة، منتخبات من الجواب على إقتراح الأحباب، ص ١٢٩.

أنه لايتاح لهن الوصول إلى الكتب الدينية، ولكن هذا لايعني أن كثرتهن تعرف القراءة. ويمكن القول بأن معرفة القراءة والكتابة كان أمراً مألوفاً بين نساء الدروز، خاصة عند الأجيال الأقرب إلى زمن السيد عبد الله منه في الأزمنة المتأخرة. ومن الممتع الإشارة إلى وصية امرأة مؤرخة في شعبان سنة ١١٩٠ / ١٧٧٦ كتبتها امرأة من أسرة عبد الصمد من قرية عماطور في الشوف وذيلتها بحاشية امرأة أخرى[1].

ومن النساء من يتفرغن لنسخ الكتب الدينية، وهو عمل مارسته منذ أجيال. وبعضهن، زيادة في التعبد، لايأكلن إلاّ مما كسبت أيديهن من نسخ الحكمة. وهذا العمل يتطلب الخط الحسن.

إن الشجاعة صفة بارزة من صفات المرأة الخلقية، فالدين يحث عليها الرجال والنساء على حد سواء. يقول الإمام حمزة في رسالة وجهها إلى النساء: لايخافن أحد إلاّ ذنبه ولا يرجو إلاّ ربه.

وقد دعم النساء الرجال في وقت الحرب بشجاعتهن وثباتهن وكنّ أحياناً يرافقنهم إلى ميدان القتال وهناك أسماء عدد من النساء اقترنت بالمعارك التي جرت في جبل الدروز ضد الأتراك والفرنسيين.

والفضيلة المميزة للمرأة هي العفة وما يصاحبها من احتشام. وبلغ من اهتمام الرجال بالمحافظة على العرض أنه لم يسمع عن درزي أساء إلى امرأة من نساء العدو في الحرب[2].

(١) هذه الوصية بين أوراقنا.

(٢) Daniel Bliss, Reminiscences, p 149; Henry Jessup, Fifty-Three Years in Syria, vol. 1, p 170.

أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ٦٠ - ٦١.

ومن الصفات المطلوبة في المرأة الرصانة والوقار وعليها الاحتفاظ بالاتزان في السراء والضراء، فلا تفرح بزهو ولا تحزن بصخب. والصبر من أهم خصائص المرأة. وإن أفضل النساء الموحدات «أغناهن عقلاً وأكثرهن صبراً»[1].

وتبقى التقوى أساس الفضائل فهي الهادي إلى الخير والواقي من الخطأ. وفي حياة الأتقياء من النساء الدروز صفاء ينعكس ضياؤه على وجوههن، وهذا الصفاء المضيء نابع من الاتكال على الله والتسليم لمشيئته.

(١) الشريعة الروحانية، ص ٢٢٩.

المراجع

١ - المراجع العربية

أ- المخطوطات

كتب الدروز المذهبية.
مخطوطات وجدت حديثاً تتعلق بالمذهب.
شروحات على رسائل الحكمة للأمير السيد عبد الله التنوخي.
رسائل للأمير السيد.
ابن سباط، **تاريخ**، مخطوطة مكتبة الفاتيكان
الأشرفاني، عبد الملك: **عمدة العارفين**.
زين الدين عبد الغفار تقي الدين، **مجرى الزمان**
ناصر الدين العيد، **الدرر المضيئة**
السجل الأرسلاني
القاضي النعمان بن محمد بن حيون، **المجالس والمسايرات**، مخطوطة جامعة القاهرة.
بيبرس الدوادار، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، المجلد السادس، مخطوطة جامعة القاهرة.

ب- مراجع أولية

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس: **كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء** جزآن/القاهرة ١٢٩٩/١٨٨٢.
ابن الأثير، عز الدين: **الكامل في التاريخ**، ١٤ مجلداً نشره تورنبرج، ليدن ١٨٥١ - ١٨٧١ (دار صادر - دار بيروت ١٩٦٥ - ١٩٦٦).

ابن إياس، محمد بن أحمد: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، الجزء الأول، بولاق سنة ١٨٩٣/١٣١١.

ابن أيبك الدواداري، أبو بكر: **كنز الدرر وجامع الغرر**، الجزء السادس: الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١/١٣٨٠.

ابن أيبك الدواداري، أبو بكر: الجزء التاسع: **الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٣٧٩/١٩٦٠.

ابن بطريق، سعيد: **تاريخ**، نشره شيخو بيروت ١٩٠٩.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** الأجزاء ١ - ١٢ مطبعة دار الكتب المصرية والأجزاء ١٣ - ١٦، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٢٩/١٣٤٨ - ١٩٧٢/١٣٩٢.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، حيدر اباد الدكن، الجزء السابع ١٩٣٩/١٣٥٨.

ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي: **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، حيدر اباد الدكن، الجزء الثامن. لا تاريخ.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد: **إنباء الغمر بأبناء العمر**، القاهرة، الجزء الأول ١٩٦٩/١٣٨٩.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد: **رفع الإصر عن قضاة مصر**، القسم الأول، القاهرة ١٩٥٧.

ابن حمّاد، أبو عبد الله: **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، نشره فندر هيدن، الجزائر ١٣٤٦، باريس ١٩٢٧.

ابن حوقل، أبو القاسم: **كتاب صورة الأرض**، جزآن، الطبعة الثانية. كرامرز، ليدن، ١٩٣٨، ١٩٣٩.

ابن خرداذبه: **كتاب المسالك والممالك**، نشره دي غويه، ليدن ١٨٨٩.

ابن خلدون، عبد الرحمن: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ٧ مجلدات، بولاق ١٨٦٧/١٢٨٤.

ابن خلكان، أحمد أبو العباس: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، جزآن، ١٨٩٢/١٣١٠، مصر.

[illegible]

ابن الزبير، القاضي الرشيد: **كتاب الذخائر والتحف**، تحقيق محمد حميد الدين، الكويت، ١٩٥٩.

ابن سعد، محمد: **كتاب الطبقات الكبير**، ٨ أجزاء، نشره ادورد ساخو، ليدن ١٩٠٤ - ١٩١٨.

ابن شداد، بهاء الدين: **سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، القاهرة ١٩٢٧/١٣٤٦.

ابن شداد، عز الدين: **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٦٢/١٣٨٢.

ابن الصيرفي، أمين الدين: **الإشارة إلى مَن نال الوزارة**، تحقيق عبد الله مخلص، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٢٤.

ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، نشره Ahlwardt مدينة غَرَيْفزوَلد ١٨٥٨.

ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد: **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، تحقيق محمد حامد الفقي القاهرة ١٩٣٨/١٣٥٦.

ابن العديم، كمال الدين: **زبدة الحَلَب من تاريخ حلب**، تحقيق سامي الدهان ٣ أجزاء، دمشق ١٩٥١/١٣٧٠، ١٩٥٤/١٣٧٣، ١٩٦٨/١٣٨٧.

ابن عذاري المراكشي: **كتاب البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، الجزء الأول، ليدن ١٩٤٨.

ابن عساكر، أبو القاسم علي، **التاريخ الكبير** ٥ أجزاء، دمشق ١٣٣٠ - ١٩١٢/١٣٣٢ - ١٩١٤.

ابن الفقيه الهمذاني: **كتاب البلدان**، نشره دي غويه، ليدن ١٨٨٥.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة: **ذيل تاريخ دمشق**. نشره آمدروز، بيروت، ١٩٠٨.

ابن كثير، عماد الدين: **البداية والنهاية في التاريخ**، ١٤جزء، مصر، الجزء الأول سنة ١٣٤٨ الأجزاء ٢ - ٥ سنة ١٣٥١، الأجزاء ٦ - ١٤ لا تاريخ.

ابن ميسَّر، محمد بن علي: **أخبار مصر**. نشره هنري ماسيه - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية مصر ١٩١٩.

ابن النديم، محمد بن اسحق: **الفهرست**، مصر ١٣٤٨/١٩٢٩.

ابن هاني الأندلسي، أبو القاسم: **ديوان**، دار صادر - دار بيروت ١٣٨٤/١٩٦٤.

ابن واصل، جمال الدين، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، ٤ أجزاء: تحقيق جمال الدين الشيال وحسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٧، ١٩٦٠، ١٩٧٢.

ابن الوليد، الحسين بن علي: **رسالة المبدأ والمعاد**، طهران ١٩٦١.

ابن الوليد، الحسين بن علي: **كتاب تاج العقائد ومعدن الفوائد**، تحقيق عارف تامر، بيروت ١٩٦٧.

أبو شامة، شهاب الدين: **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين**. تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧.

أبو شامة، شهاب الدين: **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨/٨٧٠ - ١٨٧١.

أبو شقرا، حسين غضبان: **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية**، تحقيق عارف أبو شقرا، بيروت ١٩٥٢.

أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه: **المختصر في أخبار البشر**، ٤ أجزاء، مصر، لا تاريخ.

أبو الفوارس، أحمد بن يعقوب: **الرسالة في الإمامة**، تحقيق سامي مكارم، دلمار - كرفان ١٩٧٣.

إخوان الصفاء، **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**، ٤ مجلدات، تحقيق خير الدين الزركلي، القاهرة، ١٣٤٧/١٩٢٨.

إخوان الصفاء: **الرسالة الجامعة**، جزآن، تحقيق جميل صليبا، دمشق ١٩٤٩.

إدريس، عماد الدين: **عيون الأخبار وفنون الآثار**، السبع الرابع، تحقيق مصطفى غالب بيروت ١٩٧٣.

الإصطخري، **كتاب المسالك والممالك**، نشره دي غويه، ليدن ١٨٧٠.

الأصفهاني، حمزة بن الحسن: **كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**. نشره غوتوالد، ليبسك ١٨٤٤.

الأصفهاني، عماد الدين الكاتب: **الفتح القسي في الفتح القدسي**. نشره لاندبرج، ليدن ١٣٠٥/١٨٨٧.

الانطاكي، يحيى بن سعيد: **تاريخ**، حرّره كراشكوفسكي وڤازيلياف، باريس ١٩٣٢.

البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز: **كتاب مُعْجَم ما استعجم**، جزآن، نشره وستنفلد، باريس ١٨٧٦.

البلاذري، أبو العباس أحمد، **كتاب فتوح البلدان**، نشره دي غويه، ليدن ١٨٦٦.

البلاذري، أبو العباس أحمد: **أنساب الأشراف**، الجزء الخامس، نشره غويتاين، القدس ١٩٣٦.

البوريني، الحسن بن محمد: **تراجم الأعيان من أبناء الزمان**، جزآن، تحقيق صلاح المنجد، دمشق ١٩٥٩، ١٩٦٣.

البيروني، أبو الريحان محمد: **في تحقيق ما للهند من مقولة**، نشره ادورد ساخو، لندن ١٨٨٧.

تاريخ أخبار القرامطة، لثابت بن سنان وابن العديم وترجمة الحسن الأعصم القرمطي، تحقيق سهيل زكّار بيروت ١٩٧١.

التنوخي، أبو علي المحسِّن: **كتاب جامع التواريخ المسمّى نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة** الجزء الثامن، دمشق ١٣٤٨/١٩٣٠.

التنوخي، أبو علي المحسّن: **كتاب الفرج بعد الشدّة**، تحقيق عبود الشالجي، بيروت ١٩٧٨.

التوحيدي، أبو حيان: **كتاب الإمتاع والمؤانسة**، ٣ أجزاء تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة ١٩٣٩، ١٩٤٢.

الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر**، ٤ أجزاء، دمشق، ١٣٠٣/١٨٨٥.

الجرجاني، علي بن أحمد: **كتاب التعريفات**. نشره فلوجل، ليبسك ١٨٤٥.

الجوذري، أبو علي منصور العزيزي: **سيرة الأستاذ جوذر**، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة مصر ١٣٧٤/١٩٥٤.

الحلاج، حسين بن منصور، **أخبار الحلاج**، نشره لويس ماسينيون، باريس ١٩٥٧.

الخالدي: أحمد: لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، تحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني، ١٩٣٦.
الدمشقي، شمس الدين: كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشره مهرن، ليبسك ١٩٢٣.
الدمشقي، ميخائيل: تاريخ حوادث الشام ولبنان من سنة ١١٩٧ إلى سنة ١٢٥٧ هجرية (١٧٨٢ - ١٨٤١ م)، تحقيق لويس معلوف بيروت، ١٩١٢.
الدويهي، اسطفانوس، تاريخ الأزمنة، نشره فردينان توتل، بيروت ١٩٥١.
الذهبي، شمس الدين: كتاب ميزان الاعتدال، ٣ أجزاء مصر ١٣٢٥/١٩٥٦.
السجلات المستنصرية: سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله، تحقيق عبد المنعم ماجد، مصر ١٩٥٤.
السّراج، أبو نصر الطوسي: اللمع في التصوف، نشره نيكلسون، ليدن ١٩١٤.
السلمي، أبو عبد الرحمن: كتاب طبقات الصوفية، نشره پدَرْسن، ليدن ١٩٦٠.
الشدياق، طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان، نشره المعلم بطرس البستاني، بيروت ١٨٥٩، نشره فؤاد أفرام البستاني، ١٩٧٠.
الشهابي، حيدر: تاريخ ٣ أجزاء تحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني، بيروت ١٩٣٣.
الشيرازي، المؤيد في الدين هبة الله: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق محمد كامل حسين، مصر ١٩٤٩.
صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس وكمال الصليبي، بيروت ١٩٦٩.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، ١٥ مجلداً، نشره دي غويه، ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١.
عريب بن سعد القرطبي: صلة تاريخ الطبري، نشره دي غويه، ليدن ١٨٩٧.
عمارة الحكمي اليمني: تاريخ اليمن. نشره هنري كاي، لندن، ١٨٩٢.
الغزالي، أبو حامد: مشكاة الأنوار، تحقيق أبو العلا عفيفي، القاهرة ١٩٦٤.
الغزالي، أبو حامد: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، القاهرة ١٩٢٧.
الغزي، نجم الدين: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت ٣ أجزاء، ١٩٤٥، ١٩٤٩، ١٩٥٨.

الفارابي، أبو نصر محمد: رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة، نشره ديتريشي، ليدن، ١٨٩٥.
الفارابي، أبو نصر محمد: كتاب السياسات المدنية، حيدر اباد الدكن، ١٣٤٦/١٩٣٧.
قدامة بن جعفر الكاتب: كتاب الخراج، نشره دي غويه، ليدن ١٨٨٩.
القشيري، أبو القاسم: الرسالة القشيرية، جزآن تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، مصر ١٣٨٥ / ١٩٦٦.
القفطي، جمال الدين: تاريخ الحكماء، نشره ليبرت، ليبسك ١٩٠٣.
القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ مجلداً، القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٢.
كرامه، روفائيل: مصادر تاريخية لحوادث لبنان وسوريا من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٨٠٠، تحقيق باسيليوس قطان، بيروت ١٩٢٩.
الكرماني، حميد الدين: راحة العقل، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمي، القاهرة ١٩٥٢.
الكرماني، حميد الدين: رسالة مباسم البشارات، تحقيق مصطفى غالب (الحركات الباطنية في الإسلام). بيروت لاتاريخ.
الكرماني، حميد الدين: الرسالة الواعظة، تحقيق محمد كامل حسين، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥٢.
الكرماني، حميد الدين: كتاب الرياض، تحقيق عارف تامر، بيروت ١٩٦٠.
الكرماني، حميد الدين: المصابيح في إثبات الإمامة، تحقيق مصطفى غالب، بيروت ١٩٦٩.
الكلاباذي، أبو بكر محمد: كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، نشره أرثر جون اربري، مصر ١٣٥٢/١٩٣٣.
الكندي، أبو عمر: كتاب الولاة وكتاب القضاة، نشره رفن كَست، بيروت ١٩٠٨، ليدن ١٩١٢.
الكندي، أبو يوسف يعقوب بن اسحاق: كتاب الكندي إلى المعتصم في الفلسفة الأولى، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة ١٣٦٧ / ١٩٤٨.
المجالس المستنصرية: للداعي علم الإسلام ثقة الإمام، تحقيق محمد كامل حسين، مصر لاتاريخ.

محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الإوزاعي، نشره شكيب أرسلان، مصر ١٩٣٣/١٣٥٢.

المحبي، محمد أمين بن فضل الله: **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ٤ اجزاء القاهرة ١٨٦٧/١٢٨٤.

مذكرات تاريخية، بقلم أحد كتاب الحكومة الدمشقيين، نشرها قسطنطين الباشا، حريصا، لبنان، لاتاريخ.

المرادي، أبو الفضل محمد: **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ٤ أجزاء، بولاق ١٢٩١ و١٣٠١ هـ.

المسعودي، أبو الحسن علي: **كتاب التنبيه والاشراف**، نشره دي غويه، ليدن، ١٨٩٣.

المسعودي، أبو الحسن علي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٩ مجلدات، نشره دي مينارد ودي كورتي، باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧.

مسكويه، أبو علي أحمد: **كتاب تجارب الأمم**، تصحيح هـ. ن. آمدروز، ٣أجزاء، مصر ١٩١٤ - ١٩١٦.

مشاقة، ميخائيل: **منتخبات من «الجواب على اقتراح الأحباب»**، تحرير أسد رستم وصبحي أبو شقرا، بيروت ١٩٥٥.

المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، نشره دي غويه، ليدن ١٨٧٧.

المقريزي، تقي الدين أحمد: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، نشره جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨.

المقريزي، تقي الدين أحمد: **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧.

المقريزي، تقي الدين أحمد: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، الجزء الأول والثاني، نشره مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤، ١٩٥٨.

المقريزي، تقي الدين أحمد: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ٤ أجزاء، مصر ١٣٢٤ - ١٣٢٦.

المنيّر، حنانيا: **كتاب الدر المرصوف في تاريخ الشوف**، مجلة المشرق، بيروت، المجلد ٤٨ - ٥١، ١٩٥٤ - ١٩٥٧.

النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيّون التميمي: **افتتاح الدعوة وابتداء الدولة**، تحقيق وداد القاضي، بيروت ١٩٧٠.

النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيّون التميمي: **تأويل دعائم الإسلام**، جزآن، تحقيق محمد حسن الأعظمي، مصر ١٩٦٩.

النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيّون التميمي: **دعائم الإسلام**، جزآن، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي، مصر ١٩٥١/١٣٧٠.

النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيّون التميمي: **كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة**، تحقيق محمد كامل حسين، مصر، لاتاريخ.

النوبختي، أبو محمد الحسن: **كتاب فرق الشيعة**، نشره هـ. ريتر، استانبول ١٩٣١.

النووي، يحيى بن شرف الدين: **متن الأربعين النورية في الأحاديث الصحيحة النبوية**، مصر، لاتاريخ.

النيسابوري، أحمد بن محمد: **استتار الإمام عبد الله بن محمد وتفرق الدعاة في الجزائر لطلبه**، مجلة كلية الآداب، القاهرة ١٩٣٦.

الهمداني، أبو محمد الحسن: **صفة جزيرة العرب**، نشره مولّر، ليدن ١٨٨٤.

ياقوت الرومي، شهاب الدين: **معجم البلدان**، ٦ مجلدات، نشره وستنفلد، ليبسك ١٨٦٦ - ١٨٧٣.

اليعقوبي، ابن واضح الكاتب: **تاريخ**، جزآن، نشره هوتسما، ليدن ١٨٨٣.

اليعقوبي، ابن واضح الكاتب: **كتاب البلدان**، نشره دي غويه، ليدن ١٨٩٢.

اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى: **ذيل مرآة الزمان**، جزآن حيدر اباد الدكن ١٣٧٤ - ١٩٥٤/١٣٧٥ - ١٩٥٥.

ج- وثائق

رستم، أسد: **الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا**، ٥ أجزاء، بيروت ١٩٣٠ - ١٩٣٤.

رستم، أسد: **المحفوظات الملكية، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير**، ٤ أجزاء، بيروت ١٩٤٠ - ١٩٤٣.

د- مراجع ثانوية:

أبو عز الدين، سليمان: إبراهيم باشا في سوريا، بيروت ١٩٢٩.

الأسود، إبراهيم: **ذخائر لبنان**، بعبدا ١٨٩٦.

الباشا، قسطنطين: **لمحة تاريخية في الرهبانية الباسيلية المخلصية**، بيروت ١٩٠٩.

بدوي، عبد الرحمن: **الأفلاطونية المحدثة عند العرب**، القاهرة ١٩٥٥.

بليبل، لويس: **تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية**،

جودت، أحمد: **تاريخ جودت**، بيروت ١٣٠٨/١٨٩٠.

حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الدولة الفاطمية**، مصر ١٩٥٨.

حسين، طه: **الفتنة الكبرى**، جزآن القاهرة ١٩٤٧، ١٩٥٩.

حسين، محمد كامل: **في أدب مصر الفاطمية**، القاهرة ١٩٥٠.

حقي، اسماعيل: **لبنان مباحث علمية**، بيروت ١٩١٨ وطبعة الجامعة اللبنانية ١٩٦٩.

دريان، يوسف: **نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية**، القاهرة ١٩١٦ ببيروت ١٩١٩.

الدوري، عبد العزيز: **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**، بيروت ١٩٧٤.

الطباخ، محمد راغب: **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، ٧ أجزاء حلب ١٣٤٢ - ١٣٤٥/١٩٢٣ - ١٩٢٦.

عاشور، سعيد عبد الفتاح: **العصر المماليكي في مصر والشام**، مصر ١٩٦٥.

علي، جواد: **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ٨ مجلدات، بغداد، المجلد الأول ١٩٥٠.

الغزي، كامل حسين: **نهر الذهب في تاريخ حلب**، ٣ أجزاء، حلب، الجزء الثالث ١٣٤٥/١٩٢٦.

قرألي، بولس: **فخر الدين المعني الثاني**، حريصا لبنان، ١٩٣٨.

لامنس، هنري: **تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار**، جزآن، بيروت ١٩١٣، ١٩١٤.

ماجد، عبد المنعم: **الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه**، القاهرة ١٩٥٩.

المعلوف، عيسى اسكندر: **تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني**، جونية ١٩٣٤، بيروت ١٩٦٦.

[illegible] أضواء [illegible] مسلك [illegible]

الهمذاني، حسين بن فيض الله: **الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن**، القاهرة ١٩٥٥.

٢ - مراجع أجنبية

أ- مراجع أولية مترجمة إلى اللغات الأوربية

Abu Salih, **The Churches and Monasteries of Egypt and Neighbouring Countries,** tr. B.T.A. Evetts, Oxford, Clarendon Press, 1895, reprinted 1969.

Attar, F., **Muslim Saints and Mystics,** episodes from the **Tadhkirat al-Awliya,** tr. A.J. Arberry, London, Routledge, 1966.

Biruni, Abu'l-Rayhan, **Al-Beruni's India,** tr. Edward Sachau, London, Trubner, 1910.

Ghazali, **Mishkat al-Anwar (The Niche for Lights),** tr. W.H.T. Gairdner, London, Royal Asiatic Society, 1924.

Hallaj, **Akhbar al-Hallaj,** tr. Louis Massignon and Paul Kraus, Paris, Vrin, 1957.

Ibn Isfandiyar, **An abridged Translation of the History of Tabaristan,** E.G. Browne, Leiden, 1905.

Ibn Khaldun, **Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun,** tr. Baron de Slane, Paris, Imprimerie Impériale, 1863-1868.

Ibn al-Qalanisi, **The Damascus Chronicle of the Crusades,** tr. H.A.R. Gibb, London, Luzac, 1932.

Ibn al-Walid, **A Creed of the Fatimids,** tr. W. Ivanow, Bombay, 1936.

Jazari, **La Chronique de Damas d'al-Jazari** (années 689-698 A.H.) J. Sauvaget, Paris, Champion, 1949.

Laoust, H., **Les Gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les Premiers Ottomans 658-1156 /1260-1744,** traduction des Annales d'Ibn Tulun et d'Ibn Gum'a, Damascus, 1952.

Maarri, Abu'l-Ala, **The Letters of Abu'l-Ala of Maarrat al-Numan,** ed. tr. D.S. Margoliouth, Oxford, Clarendon Press, 1898.

Michel le Syrien, **Chronique,** 3 vols., ed. and tr. J.B. Chabot, Paris, 1905, repr. 1963.

Naima, **Annals of the Turkish Empire 1591-1669,** tr. Frazer, vol. I, London, 1832.

Nasir-i Khosraw, **Sefer Nameh,** ed. and tr. Charles Schefer, Paris, 1881, repr. 1970.

Nasir-i Khosraw, **Kitab-i Jami al-Hikmatayn,** H. Corbin and M. Moin, Teheran, 1953.

Nizam al-Mulk, **The Book of Government or Rules for Kings,** tr. H. Darke, Yale U.P., 1960.

Omarah's History of Yaman, tr. H.C. Kay, London, 1892.

William, Archbishop of Tyre, **A History of Deeds Done Beyond the Sea,** tr. Emily A. Babcock and A.C. Krey, 2 vols., Columbia University Press, 1943.

ب- وثائق

Heyd, U., Ottoman Documents on Palestine 1552-1615, Oxford, Clarendon Press, 1960.

Ismail, Adel, **Documents Diplomatiques et Consulaires Relatifs-à-l'Histoire du Liban et des Pays du Proche-Orient du XVII Siècle à Nos Jours,** 20 vols., Beirut, 1975-1981.

[illegible] **Etrangères,** 11 vols., Paris, 1864-1901.

ج- مراجع من التاريخ القديم

Breasted, James H., **Ancient Records of Egypt, Historical Documents from the Earliest Times to the Persian Conquest,** 5 vols., University of Chicago Press, 1906- 1907, reissued in 1962.

Luckenbill, Daniel D., Ancient Records of Assyria and Babylonia, 2 vols., University of Chicago Press, 1926-27.

Plato, Great Books of the Western World, VII, Chicago Loeb Classical Library.

The **Republic,** tr. A.D. Lindsay, Everyman's Library, London, 1942.

Plato, **The Enneads,** tr. S. MacKenna, London, Faber, 1969.

Strabo, **The Geography of Strabo,** Loeb Classical Library, 8 vols.

د- ببليوغرافيا

Brockelmann, Carl, **Geschichte der Arabischen Litteratur,** 2 original vols., Berlin, 1898, 1902, 2nd ed. 1943, 1949; 3 supplementary vols., Leiden, 1937-1942.

Ivanow, W., **Ismaili Literature, A Bibliographical Survey,** Tehran, 1963.

Poonawala, Ismail K., **Biobibliography of Ismaili Literature,** Malibra, California, 1977.

Sauvaget, J., **Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman,** 2nd ed., Paris, 1961.

هـ- مذكرات ومشاهدات الرحالة

Arvieux, L., **Mémoires du Chevalier D'Arvieux,** 6 vols., Paris, 1735.

Bell, Gertrude, **The Desert and the Sown,** London, Heinemann, 1907.

Bliss, Daniel, **The Reminiscences of Daniel Bliss,** New York, Revell, 1920.

Burckhardt, J.L., **Travels in Syria and the Holy Land,** London, John Murray, 1822.

Burton, Isabel, **The Inner Life of Syria,** Palestine and the Holy Land, London, Kegan Paul, 1884.

Carnarvon, H.H. **Recollections of the Druzes of the Lebanon,** London, John Murray, 1860.

Churchill, Charles Henry, **Mount Lebanon Ten Years' Residence 1842-1852,** 3 vols., London, 1853.

Doubdan, J., **Le Voyage de la Terre Sainte Fait L'AN 1652,** Paris, 1657.

Egmont, J.A. and J. Heyman, **Travels,** 2 vols., London, 1959.

Jessup, Henry H., **Fifty-Three Years in Syria,** 2 vols., New York, Revell, 1910.

Maundrell, H., **A Journey from Aleppo to Jerusalem at Easter, AD 1697,** 7th ed., london, 1749.

Niebuhr, Karsten, **Travels through Arabia and Other Countries in the East,** 2 vols., Edinburgh, 1792.

Oliphant, Lawrence, **Haifa or Life in Modern Palestine,** London, Blackwood, 1887.

Oliphant, Lawrence, **The Land of Gilead,** London, Blackwood, 1880.

Oppenheim, Max von, **Vom Mittelmeer zum Persischen Golf,** Berlin, [illegible]

Pococke, Richard, **A Description of the East and Some Other Countries,** 2 vols., London, 1743, 1745.

Saint Pierre, Puget de, **Histoire des Druzes,** Paris, 1763.

Sanderson, John, **The Travels of John Sanderson in the Levant 1584-1602,** Hakluyt Society, second series, No. LXVII, London, 1931.

Sandys, George, A Relation of a Journey Begun An. Dom. 1610, 2nd., London, 1621.

Stanhope, Lady Hester, **Memoirs of Lady Hester Stanhope, as related by herself in conversation with her Physician,** 3 vols., London, 1845. **Travels of Lady Hester Stanhope, forming a completion of her Memoirs, narrated by her physician (Dr. Maryon),** 3 vols., London, 1846.

Thévenot, **Relation d'un Voyage fait au Levant,** Paris, 1564.

Volney, Constantin-François, **Voyage en Syrie et en Egypte pendant les Années 1783, 84, 85,** 3rd ed., Paris, An VII.

Tott, Baron de, **Memoires du Baron de Tott,** 2 vols., in 4 parts, Amsterdam, 1874-75.

و- مراجع ثانوية باللغات الأوروبية

Affifi, A.E. **The Mystical Philosophy of Muhyid Din Ibnul Arabi,** Cambridge University Press, 1939.

Anawati, G.C. et Louis Gardet, **Mystique Musulmane,** Paris, Vrin, 1961.

Arberry, Arthur J., **Sufism, an Account of the Mystics of Islam,** London, 1950.

Arnold, T.W. and R.A. Nicholson, ed., **Egeb Nameh, a Volume of Oriental Studies Presented to Edward G. Browne,** Cambridge University Press, 1922.

Arnold, Sir Thomas and Alfred Guillaume, **The Legacy of Islam,** Oxford, Clarendon, 1931.

Arriens Kappers, **The Anthropology of the Near East,** Beirut, 1932.

Atiya, A.S., **Crusade, Commerce and Culture,** Bloomington, University of Indiana Press, 1962.

Atiya, AS., **The Crusade in the Later Middle Ages,** London, Methuen, 1938.

Ayalon, David, **Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom,** London, Valentine 1956.

Barthold, W., **Turkestan Down to the Mongol Invasion,** 2nd ed. London, 1928.

Becker, Carl H., **Beitrage zur Geschichte Agyptens unter dem Islam,** Strasburg, 1902.

Blachère, R., **Un Poète Arabe du IV Siècle de l-Hegire (X Siècle de J-C); Abou t-Tayyib al-Motanabbi,** Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, 1935.

Blochet, E., **Le Messianisme dans L'Héterodoxie Musulmane,** Paris, Maison Neuve, 1903.

Boer, T.J. de, **The History of Philosophy in Islam,** London, Luzac, 1933.

Bouron, N., **Les Druses, Histoire du Liban et de la Montagne Haouranaise,** Paris, Berger-Levrault, 1930.

Bowring, John, **Report on the Commercial Statistics of Syria,** London H.M.S.O., 1840.

Braudel, Fernand, **The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II,** 2 vols., Harper and Row, 1972, 1973.

Browne, Edward G., **A Literary History of Persia,** 4 vols., Cambridge University Press, 1902-1924, reissued 1951-1956.

Cadalvène, E. de et E. Barrault, **Deux Années de L'Histoire d'Orient,** 1839-1840, 2 vols., Paris, 1840.

Cahen, Claude, **La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades et la Principauté Franque d'Antioche,** Paris, Geuthner, 1940.

Canard, Marius, **Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie, Alger,** 1951.

Carali, Paolo, **Fakhr Ad-Din II Principe del Libano et la Corte Di Toscana 1605-1635,** vol. I, Roma, 1936.

Charles-Roux, Fr., **Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIII Siècle,** Paris, Geuthner, 1928.

Chevallier, Dominique, **La Societé du Mont Liban à l'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe,** Paris, Geuthner, 1971.

Conder, C.R. and H.H. Kitchener, **The Survey of Western Palestine,** vol. I. London, 1881.

Conder, C.R., **Tent Work in Palestine.** London, Palestine Exploration Fund, 1895.

Coon, Carleton S., **The Living Races of Man,** New York, Knopf, 1965.
The Races of Europe, New York, Macmillan, 1948.

Corbin, Henry, **Histoire de la Philosophie Islamique,** 2 vols., Paris, Gallimard, 1964.
L'Imagination Créatrice dans le Soufisme d'Ibn Arabi, Paris, Flammarion, 1958.
(Creative Imagination in the Sufism of Ibn Arabi, Princeton University Press, 1969).

Creasy, Edward S., **History of the Ottoman Turks,** London, 1878.

Cumont, Franz, **The Mysteries of Mithra,** New York, Dover, 1956.
Les Religions Orientales dans le Paganisme Romain, Paris, Geuthner, 1929.

Dozy, R., **Essai sur l'Histoire de l'Islamisme,** tr. V. Chauvin, Paris-Leiden, 1879.

Dussaud, René, **Mission dans les Régions Désertiques de la Syrie Moyenne,** Paris, Imp. National, 1903.
La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, Geuthner, 1955.
Topographie Historique de la Syrie Antique et Mediévale, Paris, Geuthner, 1929.
Voyage Archéologique au Safa et dans Djebel el-Druz, Paris, Leroux, 1901.

Elisséeff, Nikita, **Nurad-Din un Grand Prince Musulman de Syrie au Temps des Croisades, 511-569 H/1118-1174,** 3 vols., Inst. Français de Damas, 1967.

Festugiére, Pere A.J, **Hermetisme et Mystique Paienne,** Paris, Aubier-Montaigne, 1967.
Personal Religion among the Greeks, Berkeley, University of California Press., 1960.
La Revelation d'Hermés Trismegiste, vol. 1, Paris, Lecoffre, 1950.

Finlay, George, **History of the Byzantine Empire,** London, Dent, 1906.

Fisher, Sir Godfrey, **Barbary Legend: War, Trade and Piracy in North Africa, 1415-1830,** Oxford Clarendon Press, 1957.

Fyzee, Asaf A.A., **Compendium of Fatimid Law,** Simla, 1969.

Gardet, Louis et G.C. Anawati, **Introduction à la Théologie Musulmane,** Paris, Vrin, 1948.

Gaudefroy-Demombynes, **La Syrie à l'Epoque des Mamelouks,** Paris, Geuthner, 1923.

Gibb, Sir Hamilton A.R., **The Life of Saladin from the Works of Imad Ad-Din and Baha Ad-Din,** Oxford, Clarendon Press, 1973.

Mohammadanism, an Historical Survey, New York, 1958.

Studies on the Civilization of Islam, ed. S.J. Shaw and W.R. Polk, London, Routledge, 1962.

Gibb, H.A.R. and Harold Bowen, **Islamic Society and the West,** vol. I, parts I and 2, Oxford University Press, 1950, 1957.

Goeje, M.J. de, **Mémoires d'Histoire et de Géographie Orientales,** Leiden, 1886.

Goldziher, Ignaz, **Le Dogme et la Loi de l'Islam,** tr. F. Arin, Paris, Geuthner, 1920.

Guys, Henri, **Théogonie des Druses,** Paris, 1863.

Hamdani, Abbas H., **The Beginning of the Ismaili Da wa in Northern India,** Cairo, 1956.

Hammer-Purgstall, H. de, **Histoire de l'Empire Ottoman,** 18 vols., tr. J.H. Hellart, Paris, 1836-41.

Heyd, W., **Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age,** 2 vols tr. F. Reynaud, Leipzig, 1885, 1886.

Holt, P.M., Ann K.S. Lambton, B. Lewis, **The Cambridge History of Islam, vol. I, The Central Islamic Lands,** Cambridge University Press, 1970.

Holt, P.M., **Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922, a Political History,** Longman, 1966.

Ismail, Adel, **Histoire du Liban du XVII Siècle à Nos Jours,** Tome I, **Le Liban au Temps de Fakhred-Din II (1590-1633),** Paris, 1955. Tome IV, **Redressement et Declin du Féodalisme Libanais (1840-1861),** Beirut, 1958.

Ivanow, W., **The Alleged Founder of Ismailism,** Bombay, 1964.

Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids, Oxford University Press, 1942.

Studies in Early Persian Ismailism, Bombay, 1955.

Jaussen, A. et R. Savignac, **Mission Archéologique en Arabie,** Paris, Geuthner, 1909, 1914, 1922.

Kahle, Paul E. **The Cairo Geniza,** Oxford, Blackwell, 1959.

Kammerer, A., **Pétra et la Nabatène,** Paris, Geuthner, 1929.

Keith, Sir Arthur, **New Discoveries Relating to the Antiquity of Man,** London, Norgate, 1931.

Laoust, Henri, **Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques de Taki-d-Din Ahmad b. Taimiya 661 / 1262-728 / 1328,** Cairo, IFAO, 1939.

La Vie et la Philosophie d'Aboul-Ala al-Ma arri, Beirut, 1944.

Lewis, Bernard, **The Origins of Ismailism: A Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate,** Cambridge, Heffer, 1940.

Macalister, R.A.S. **The Excavations of Gezer,** 3 vols., London, John Murray, 1912.

Macdonald, Duncan B., **Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional History,** New York, Macmillan, 1903.

The Religious Attitude and Life in Islam, University of Chicago Press, 1909.

Macurdy, Grace H., **Vassal Queens and Some Contemporary Women in the Roman Empire,** Baltimore, 1937.

Mamour, Prince P.H. **Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs,** London, Luzac, 1934.

Massignon, Louis. **Essai sur les Origines du Lexique Technique Musulmane,** Paris Vrin, 2nd ed. 1954.

La Passion d'Al-Hosayn-Ibn-Mansour al-Hallaj Martyr Mystique de l'Islam, 2 vols., Paris, Geuthner, 1922.

Masson, Paul, **Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVII Siècle,** Paris, Hachette, 1896.

Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVIII Siècle, Paris 1911.

Mez, Adam, **The Renaissance of Islam,** tr. S. Khuda Bukhsh and D.S. Margoliouth, London, Luzac, 1937.

Muller, August, **Der Islam in Morgen = und Abendland,** 2 vols., Berlin.

Nicholson, Reynold A., **The Idea of Personality in Sufism,** Cambridge University Press, 1923.

The Mystics of Islam, London, Bell, 1914.

Studies in Islamic Mysticism, Cambridge University Press, 1921.

Nielsen, Ditlef, **Handbuch der Altarabishen Altertumskunde,** vol. I, **Die Altarabische Kultur,** Leipzig, 1927.

Noldeke, Theodor, **Sketches from Eastern History,** tr. J.S. Black, London, Alan, 1892.

Olinder, Gunnar, **The Kings of Kinda, Leipzig,** 1927.

Perrier, F., **La Syrie sous le Gouvernment de Mehémet Ali jusqu'au 1840,** 2 vols., Paris, 1842.

Poliak, A.N., **Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon,** 1250-1900, London, Royal Asiatic Society, 1939.

Polk, William R., **The Opening of South Lebanon 1788-1840,** Harvard University Press, 1963.

Popper, William, **Egypt and Syria under the Circassian Sultans 1382-1468 A.D.,** University of California Press, Berkeley, vol. I, 1955.

Radhakrishnan, S., ed., **History of Philosophy Eastern and Western,** 2 vols., London, Allen and Unwin, 1952, 1953.

Ranke, Leopold, **The History of the Popes,** 3 vols., London, 1853.

Rostovtzeff, M., **Caravan Cities,** Oxford, Clarendon Press, 1932.

The Social and Economic History of the Hellenistic World, 3 vols., Oxford, Clarendon, 1941.

The Social and Economic History of the Roman Empire, 2 vols., 2nd ed. Clarendon, 1957.

Rothstein, Gustav, **Die Dynastie der Lahmiden in al-Hira,** Berlin, 1899.

Runciman, Steven, **A History of the Crusades,** 3 vols., Cambridge University Press, 1962, 1966.

Rustum, Asad, J., **The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria 1831-1841,** Beirut, 1936.

Sacy, Baron Silvestre de, **Exposé de la Religion des Druzes,** 2 vols., Paris, 1838.

Salibi, Kamal S., **The Modern History of Lebanon,** London, Weidenfeld, 1965.

Sauvaget, J., **Alep,** Paris, Geuthner, 1941.

Schlumberger, G., **Un Empereur Byzantin au Dixième Siècle, Nicephore Phocas,** Paris, 1890.

Seligman, C.G., **Races of Africa,** Oxford University Press, 1957.

Setton, Kenneth M., ed. **A History of the Crusades, 2 vols., University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1955, 1962.**

Shaban, M.A., **The Abbasid Revolution**, Cambridge University Press, 1970.
Smith, W. Robertson, **Kinship and Marriage in Early Arabia**, London, 1907.
Stevenson, W.B., **The Crusaders in the East**, Cambridge University Press, 1907.
Tchelenko, Georges, **Villages Antiques de la Syrie du Nord: Le Massif du Bélus à**
Thomas, B., **Arabia Felix: Across the Empty Quarter of Arabia**, London, Cape, 1932.
Tibawi, Abdul Latif, **A Modern History of Syria Including Lebanon and Palestine**, London, Macmillan, 1969.
Vasiliev, A.A., **Byzance et les Arabes**, 2 vols., Bruxelles, 1935.
Vatikiotis, P.J., **The Fatimid Theory of State, Lahore, 1957.**
Watt, W. Montgomery, **Islamic Philosophy and Theology**, Edinburgh University Press, 1962.
Islamic Political Thought, Edinburgh University Press, 1968.
Muslim Intellectual, A Study of Al-Ghazali, Edinburgh University Press, 1963.
Wellhausen, J., **The Arab Kingdom and Its Fall**, tr. Margaret G. Weir, University of Calcutta, 1927.
Skizzen und Vorarbeiten, vol. VI, Berlin, 1899.
Wensinck, A.J., **La Pensée de Ghazzali**, Librairie d'Amerique et d'Orient, 1940.
Wustenfeld, F., **Fachr ed-Din der Drusenfurst und seine Zeitgenossen**, Gottingen, 1886.
Geschichte der Fatimiden-Chalifen, Gottingen, 1881.

ز- أبحاث في دوريات

Ayalon, D., «Studies in the Structure of the Mamluk Army», **Bulletin School of Oriental and African Studies**, London University, vol. 15, 1953.
Bianquis, T., «La Prise du Pouvoir par les Fatimides en Egypte», **Annales Islamologiques**, vol. 11, 1972.
Cahen, Claude, «Une Chronique Chiite au Temps des Croisades», **Académie des Inscriptions et Belles Lettres, Comptes Rendus** des l'Année 1935.
«Al-Makhzumi et Ibn Mammati sur l'Agriculture égyptienne mediévale», **Annales Islamologiques**, vol. 11, 1972.
Dachraoui, Farhat, «Les Commencements de la Predication Isma ilienne en Ifriqiya». **Studia Islamica**, vol. 20, 1964.
Fyzee, Asaf A.A., «Qadi an-Nu man the Fatimid Jurist and Author», **Journal of the Royal Asiatic Society**, 1934.
Goitein, S.D., «From the Mediterranean to India», **Speculum**, vol. 29, 1954.
Goldziher, I., «Das Prinzip der Takijja in Islam», **Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellshaft**, vol. 60, 1906.
Gottheil, R., «A Distinguished Family of Cadis (al-Nu man) in the Tenth Century, **Journal of the American Oriental Society**, vol. 27, 1906.
Hodgson, M.G.S., «Al-Darazi and Hamza in the Origin of the Druze Religion», **Journal of the American Oriental Society**, vol. 82, 1962.
Kraus, P. «Hebraische und syrische Zitate in Ismailitischen Schriften», **Der Islam**, vol. 19, 1931.
Kraus, P., «Les Dignitaires de la Hiérarchie Religieuse selon Gabir Ibn Hayyan», **Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale**, vol. 41, 1942.

Lammens, H., «Frère Gryphon et le Liban au XV Siecle», **Revue de l'Orient Chrétien**, vol. 4, 1899.
Lammens, H., «Les Nosairis dans le Liban», **Revue de l'Orient Chrétien**, vol. 7, 1902.
Laoust, H., «Remarques sur les Expéditions du Kasrawan sous les Premiers Mamlouks», **Bulletin du Musée de Beyrouth**, vol. 4, 1940.
Levy, R., «The Account of the Ismaili Doctrines in the Jami al-Tawarikh of Rashid, ed-Din Fadlallah», **Journal of the Royal Asiatic Society**, 1930.
Lewis, B., «An Arabic Account of the Province of Safad», **Bulletin of the School of Oriental and African Studies**, vol. 15, 1953.
«The Fatimids and the Route to India», **Revue de la Faculté des Sciences Economiques de l'Université d'Istanbul**, 1949-1950.
Madelung, Wilferd, «Fatimiden und Bahrainqarmaten», **Der Islam**, vol. 34, 1959.
«Das Imamat in der fruher ismailitsche Lehre», **Der Islam**, vol. 37, 1961.
Margoliouth, D.S., «Abu'l-Ala-al-Maarri's Correspondence on Vegetarianism», **Journal of the Royal Asiatic Society**, 1902.
Marquet, Y., «Imamat, Resurrection et Hierarchie selon les Ikhwan as Safa», **Revue des Etudes Islamiques**, vol. 30, 1962.
Pines, S., «La Longue Recension de la Théologie d'Aristote dans ses Rapports avec la Doctrine Ismailienne», **Revue des Etudes Islamiques**, vol. 22, 1954.
Poliak, A.N., «Le Caractère Colonial de l'Etat Mamlouk», **Revue des Etudes Islamiques**, 1935.
Quatremère, «Mémoires Historiques sur la Dynastic des Khalifes Fatimites», **Journal Asiatique**, 3 série, 1836.
Salibi, K.S., «The Buhturids of the Garb, Mediaeval Lords of Beirut and Southern Lebanon, **Arabica**, vol. 8, 1961.
«The Secret of the House of Ma n», **International Journal of Middle East Studies**, vol. 4, 1973.
Sprengling, Martin, «The Berlin Druze Lexicon», **American Journal of Semitic Languages and Literature**, vol. 56, 1939.
«From Persian to Arabic», **American Journal of Semitic Languages and Literature**, vol. 56, 1939.
Stern, S.M., «An Embassy of the Byzantine Emperor to the Fatimid Caliph al-Mu izz», **Byzantion**, vol. 20, 1950.
«The Early Ismaili Missionaries in North-West Persia and in Khurasan and Transoxania», **Bulletin of the School of Oriental and African Studies**, vol. 23, 1960.
«Heterodox Isma ilism at the Time of al-Mu izz», B.S.O.A.S., vol. 17, 1955.
«Ismaili Propaganda and Fatimid Rule in Sind», **Islamic Culture**, vol. 23, 1949.
«New Information on the Epistles of Ikhwan al-Safa», **Islamic Studies**, 1964.
Vatikiotis, P.J., «Al-Hakim Bi-Amrillah: the God-King Idea Realized», **Islamic Culture**, 1955.
Watt, W.M., «Kharijite Thought in the Umayyad Period», **Der Islam**, vol. 36, 1961.
Wiet, G., «Un Proconsul Fatimide de Syrie: Anushtakin Dizbiri (mort en 433/1042)», **Mélanges de la Faculté Orientale de l'Université Saint Joseph**, vol. 46, 1970.

ح- أبحاث في الموسوعة الإسلامية : الطبعة الثانية

«Bahrayn» by G. Rentz and W.B. Mulligan
«Batiniyya» by M.G.S. Hodgson
«Da'i» by M.G.S. Hodgson
«Fatimids» by M. Canard
«Hikma» by A.M. Goichon
«Hilm» by Ch. Pellat
«Ikhwan al-Safa» by Y. Marquet
«Jarrahids» by M. Canard

الفهرس